طوق الحمامة

فى الألفة والألاف

للإمام الفقيه : أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم
المتوفى عام ٤٥٦ هجرية

حققه وضبط أصوله وغريبه

الأستاذ
محمد محمد عبد اللطيف
ابن الخطيب

الدكتور
محمد عبد المنعم خفاجى
عميد كلية اللغة العربية

الدكتور
ابراهيم ابراهيم هلال
أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية البنات

الناشر
المكتبة الحسينية المصرية بميدان الأزهر
محمد عبد اللطيف

طوق الحمامة

في الألفة والألاف

للإمام الفقيه : أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم

المتوفى عام ٤٥٦ هجرية

حققه وضبط أصوله وغريبه

الأستاذ
محمد محمد عبد اللطيف
ابن الخطيب

الدكتور
محمد عبد المنعم خفاجي
عميد كلية اللغة العربية

الدكتور
ابراهيم ابراهيم هلال
أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية البنات

الناشر
المكتبة الحسينية المصرية بميدان الأزهر
محمد عبد اللطيف

مطبعة المدني
٦٨ شارع العباسية ـ بالقاهرة

الطبعـــة الأولى

١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م

مقدمة

ابن حزم وكتابه (طوق الحمامة)

ابن حزم : هو على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن سفيان ابن يزيد وكنيته أبو محمد .

ولد فى آخر يوم من أيام رمضان سنة ٣٨٤ هـ ، وكانت ولادته فى ليلة ذلك اليوم بعد الفجر ، وقبل طلوع الشمس ، وكان ذلك بقرطبة بالجانب الشرقى .

وقد ذكر ابن حزم أنه ينتمى لأسرة فارسية ؛ وذلك أن جده يزيد كان فارسياً ، وكان مولى ليزيد بن أبى سفيان أخى معاوية الذى ولاه أبو بكر إمرة الجيش الأول الذى ذهب لفتح الشام ، وبهذا فهو قرشى بالولاء ، ولذلك كان يتعصب لبنى أمية فكثيراً ما يتحدث عنهم ويوالى من والاهم ، كما هو واضح فى هذا الكتاب الذى نحن بصدده ، وهذا مظهر من مظاهر الوفاء الذى عرف به ابن حزم ، حتى أنه كان أخص سجاياه وأشرف ما عرف به .

وقد رحل جده الأعلى مع البيت الأموى إلى الأندلس لما رحلوا إليها وأنشأوا ملكهم بها .

بدأ ابن حزم تعلمه ، فاستحفظ القرآن فى صغره ، حفّظته إياه النساء فى بيته من الجوارى والقريبات ، وهو يشير إلى ذلك فى كتابه هذا فيقول : « ... وهن علمننى القرآن ، وروينى كثيراً من الأشعار ، ودربننى فى الخط » .

وكان والده إلى جانب ذلك مشرفاعلى هذه التربية ، معنياً به كل العناية، فكان لا ينى عن مراقبته وملاحظة ميوله واتجاهاته .

ثم بدأ يأخذ علمه عن أستاذه أبو القاسم عبد الرحمن بن يزيد الأزدى ، واستمر يتابع جلساته العلمية فى صحبة رجل مستتميم النفس والخلق هو أبو الحسين ابن على الفاسى ، وكأن هذا الأخير كان أستاذاً لابن حزم فى التربية واستقامة الخلق إلى جانب أستاذه الأول الذى تتلمذ عليه فى تعلم العلم والشريعة . يصف ابن حزم أستاذه هذا الأخير ، أو قائده فيقول : « وكان أبو الحسين المذكور عاقلا عاملا عالما ، ممن تقدم فى الصلاح والنسك الصحيح فى الزهد فى الدنيا والاجتهاد للآخرة ، وما رأيت مثله جملة علماً وعملا وديناً وورعاً . فنفعنى الله به كثيرا ، وعلمنى موضع الإساءة ، وقبح المعاصى » .

وهنا يرشدنا أبى حزم إلى أقوم طريق فى التربية ، وهو طريق الندوة الحسنة . فعن هذا الشيخ أخذ ابن حزم ، كل ما عرف عنه من طيب الخلق وصلاح الدين ، فكان إعجابه به سببا فى أن عزف عن الأهواء والشهوات ، وأخذ نفسه بالتمسك بالخلق الصالح وتعاليم الدين .

كان ابن حزم من أسرة قريبة من السلطان ، وتولى أبوه الوزارة فى آخر عهد الأمويين الأول بالأندلس ، فنشأ فى بيت الرفه والنعيم ، وتولى هو أيضاً الوزارة ، فوزر لعبد الرحمن الخامس المسمى بالمستظهر الذى بويع بالخلافة فى رمضان سنة ٤١٤هـ وكانت سن ابن حزم إذ ذاك نحو الثلاثين .

وحياة الحكم والترف هذه لم تلهه عن تحصيل العلم ، ولا عن حياة الجد التى ملأها بالعلم وطلبه ، وبالفقه والحديث ، والفلسفة ودراستها والتعمق فيها، حتى أنه غلبت على حياته مظاهر الجد بل الجد كله وعرف به ، حتى أن بعض المتأخرين أنكر أن يكون هو الذى ألف طوق الحمامة وأن يتكلم فى الحب

والمحبين ، وإن كان هذا الإنكار مردود بما فى الكتاب من مختلف الشواهد التى تثبت أن هذا الكتاب صورة ناطقة من حياة ابن حزم ، وتطورها سياسيا وما صادفه فى حياته من مواقف تعرض فيها للغربة ، والهجرة ، والاعتقال ، وغضب السلطان ، والعامة فى بعض الأحوال[1] .

طلب ابن حزم العلم قبل السياسة ، وانصرف إليه انصرافا كاملا ، وإن كانت حياته إبان ذلك غير قارة ، ولا ثابتة ، فهو ينتقل من قرطبة للتخريب الذى أصابها إلى المرية ، ثم يقبض عليه ويسجن ، ثم ينتقل إلى بلنسية ، ثم إلى القيروان ـ وهكذا يعيش فى ترحال غير مستقر ، لا يمضى وقته فى بلد إلا فى الدرس والاطلاع والبحث والتنقيب . وما زال على ذلك فى صدر حياته ، حتى تكون له منهاج فقهى قائم بذاته لم يكن لغيره من المعاصرين . ولكن لم يتجه إلى إعلان آرائه ودرسها إلا بعد أن اعتزل السياسة وانصرف بكليته إلى العلم ونشره وتصديه للدفاع عن الإسلام مجادلا اليهود والنصارى ، ومدافعاً عن آرائه مجادلا العلماء ، يأوى إليه الشباب من الشادين فى طلب العلم المعجبين به ، وفى هذا العهد تكون له الأولياء والأعداء ، وكان له محبون ومريدون قل عددهم ، ومناوئون معادون كثر عددهم .

ابن حزم فى كتابه طوق الحمامة :

من يتصفح هذه الرسالة يرى أن ابن حزم قد كتبها وهو فى سن النضج ، أى بعد أن تخطى مرحلة الشباب ، ونزع إلى الكهولة ، ويرى الشيخ محمد أبو زهرة أنه كتب هذه الرسالة فى حدود الأربعين ، فهو فى هذا الكتاب ، إنما يحلل العواطف النبيلة ، من حب ، وبغض من الجانب النفسى ، وهذا هو

---

(١) أنظر : ابن حزم : حياته وعصره ، آراؤه وفقهه لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة . دار الفكر العربى .

الذى يقصده أولا وقبل كل شىء ، كى يبين لنا بأدلة واقعية ، مضار الاختلاط بين الرجال والنساء ، وبين الشبان والفتيات ، وأثر ذلك على نفس كل من الجانبين ، فهو كفقيه متدين ملتزم بالشريعة ، إنما يعالج الحب من هذه الناحية ، فهو يدعو إلى الحجاب والحشمة وفصل الرجال عن النساء ، والعمل على سد الأبواب والذرائع ، التى من شأنها أن توجد الاختلاط بين الرجال والنساء ، أو اختلائهما ببعضهما .

فهو ينهى عن ذلك فى قوله : « فمن ذا الذى يصف نفسه بملكها ويتعاطى ضبطها إلا بحول الله وقوته » ثم يستدل على ذلك بقوله (ﷺ) : « باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء » ويورد قصة لامرأة عربية حملت سفاحا من ذى قرابة لها ، فيها بيان لمفاسد الاختلاط ، قالت وقد سئلت ما ببطنك يا هند ؟ . فقالت : « قرب الوساد ، وطول السواد » .

ثم يقفى على ذلك بهذه الأبيات من شعره :

لا تلم من عرض النفس لما ليس يرضى غيره عند المحن
لا تقرب عرفجاً من لهب ومتى قربته قامت دخن
لا تصرف ثقة فى أحد فسد الناس جميعاً والزمن
حلق النسوان للفحل كما خلق الفحل بلا شك لهن
كل شكل يتشهى شكله لا تكن عن أحد تنفى الظنن

وهو يقص علينا من القصص الواقعية التى سمعها من الثقات ، ما يؤكد به خطر الاختلاط ، وخطر ترك المرأة وحدها دون صحبة أولى الأرحام المحارم أو الأزواج ، والتغرير بها فى الأسفار وحدها دون صحبة هؤلاء ، ولو كان ذلك السفر إلى الحج أو من الحج ، فإن النفس أمارة بالسوء ، وقليلون هم الذين

يستطيعون مقاومتها ممن هم أنبياء أو فى درجة المصافاة الكاملة التى لا تترك خلة بين الله والإنسان ، وهؤلاء أيضاً هم فى خطر .

ثم يؤكد ذلك بما يعرفه عن طبيعة المرأة فيقول : « وشىء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أنى ما رأيت امرأة قط فى مكان تحس أن رجلا يراها أو يسمع حسها ، إلا وأحدثت حركة فاضلة ، كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت غنه فى عنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك. والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء ، وأما اظهار الزينة وترتيب المشى وايقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة ، فهذا أشهر من الشمس فى كل مكان »

ويحكى عن امرأة متعبدة مجتهدة أنها قالت: «لا تحسن الظن بامرأة قط».

وهو يجعل هذا من آيات صدق علاج القرآن الكريم والسنة الصحيحة لسلامة المجتمع ، عن طريق تحريم الاختلاط ، والأمر بغض البصر . كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر » . وقول الله سبحانه وتعالى « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم » ، « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها » وقوله « ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » . ويعلق على ذلك فيقول : « فلولا علم الله عز وجل برقة إغماضهن فى السعى لإيصال حبهن إلى القلوب ، ولطف كيدهن فى التحيل لاستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذى ليس وراءه مرمى ، وهذا حد التعرض ، فكيف بما دونه ؟ » .

فهذا الكتاب ، أو هذه الرسالة ، دعوى صارخة على المسلمين تنبههم إلى مكان النفس البشرية ونزوعها إلى بنى جنسها وبنات جنسها ، وأن هذا النزوع قد يكون إلى خير إذا كان فى حدود الحلال ، وقد يكون طامة وبالا ،

إذا لم تراع فيه أوامر الشرع الكريم بهذا الصدد . ومما يقدم هذه الرسالة في هذا الثوب الإرشادى الواعظ هذان البابان الأخيران اللذان ختمها بهما وهما : باب قبح المعصية وباب فضل التعفف . فهما بمثابة وضع النقط على الحروف ، والهدى إلى ما هو خير وأبقى فى مجال الحب ، والألفة .

وفى النهاية يؤكد لنا ابن حزم وجهة نظره فى تأليف هذه الرسالة ، وأن كلامه فى هذا الموضوع كفقيه ، لا يقصد به إلا إلى ما أشرت إليه فى هذه المقدمة فيقول : « وأنا أعلم أن سينكر علىّ بعض المتعصبين تأليفى لمثل هذا ويقول : إنه خالف طريقته ، وتجافى عن وجهته ، وما أحل لأحد أن يظن فىّ غير ما قصدته ، قال الله عز وجل : « ياأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم » ، والله الموفق .

د . إبراهيم إبراهيم هلال

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال أبو محمد عفا الله عنه : أفضلُ ما أبتدىء به حمد الله عزّ وجلّ بما هو أهله ، ثم الصلاة على محمد عبدِه ورسوله خاصةً ، وعلى جميع أنبيائه عامة ، وبعد :

عصمنا الله وإياكَ من الحيرة ، ولا حمّلنا ما لا طاقة لنا به ، وقيّض لنا من جميل عونه دليلاً هادياً إلى طاعته ، ووهبنا من توفيقه أدباً صارفاً عن معاصيه ، ولا وَكلنا إلى ضعف عزائمنا وَخَوَر قُوانا ووهاء[1] بنيتنا وتلدّد[2] آرائنا ، وسوء اختيارنا ، وقلّة تمييزنا ، وفساد أهوائنا ؛ فإن كتابك[3] وردني من مدينة المريَّة[4] إلى مسكني بحضرة شاطِبَة[5] تَذكُرُ من حسن حالك ما يسرّني. وحمدت الله عز وجل عليه ، واستدمته لك ، واستزدته فيك . ثم لم ألبث أن اطلع عليّ شخصُك وقصدتني بنفسك ، على بعد الشُّقة وتنائي الديار ، وشَحَط المزار ، وطول المسافة ، وغَوْل[6] الطريق ، وفي دون هذا ما سلّى المشتاق ونسّى الذاكر ، إلا من تمسّك بحبل الوفاء مثلك ، ورعى سالف الأذمّة[7] ، ووكيد المودات ، وحق النَّشأة ، ومحبة الصبي[8] ، وكانت مودته لله تعالى . ولقد أثبت الله بيننا

---

(١) ضعف أجسامنا .

(٢) تحيرنا في مقاصدنا .

(٣) يبدو أن أحد فقهاء عصره ، وفضلائهم ، كلفه بعمل هذا الكتاب .

(٤) المرية : بلد بالأندلس .

(٥) شاطبة : بلد بالمغرب ينسب إليها الإمام الشاطبي .

(٦) غول الطريق : الغول : المشقة ، وما انهبط من الأرض .

(٧) الأذمة : جمع ذمام ، وهو الحق والحرية .

(٨) هكذا بالأصول ولعلها الصبا لتتناسب مع حق النشأة .

من ذلك ما نحن عليه حامدون وشاكرون ! وكانت معانيك فى كتابك : زائدة على ما عهدته من سائر كتبك ، ثم كشفت إلىَّ بإقبالك : غرضك ، وأطلعتنى على مذهبك ، سجيةً لم تزل علينا من مشاركتك لى فى حلوك ومرك ، وسرك وجهرك ، يحدوك الود الصحيح : الذى أنا لك على أضعافه ، لا أبتغى جزاء غير مقابلته بمثله .

وفى ذلك أقول مخاطبا لعبيدالله بن عبد الرحمن بن المغيرة بن أمير المؤمنين الناصر رحمه الله ، فى كلمة لى طويلة وكان لى صديقاً :

أودُّك وُدًّا ليس فيه غضاضةٌ ... وبعضُ مودّاتِ الرجالِ سرابُ
وأمحضتك النُّصحَ الصريحَ وفى الحشَى ... لودِّك نقشٌ ظاهرٌ وكتابُ
فلو كان فى رُوحى هواك اقتلعتُه ... ومُزِّق بالكفين عنه إهاب[1]
وما لِىَ غيرُ الودّ منك إرادةٌ ... ولا فى سواه لى إليكَ خطابُ
إذا حُزته فالأرض جمعاء والورى ... هباءٌ وسكان البلادِ ذُبابُ

وكلّفتنى أعزّك الله أن أصنِّف لك رسالةً فى صفة الحب ، ومعانيه ، وأسبابه ، وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة ، لا متزيداً ولا مفنناً ، لكن مُورداً لما يحضُرنى على وجهه وبحسب وقوعه ، حيث انتهى حفظى وسَعة باعى فيما أذكره ، فبدرتُ إلى مرغوبك . ولولا الإيجاب لك لما تكلّفته ، فهذا من الفقر .

والأَوْلى بنا مع قصر أعمارنا ألاّ نصرفها إلا فيما نرجو به رَحْبَ المُنقلب وحُسن المآب غداً .

وإن كان القاضى حمام بن أحمد حدَّثنى عن يحيى بن مالك عن عائذ بإسناد يرفعه إلى أبى الدرداء أنه قال : أجمُّوا النفوس بشىء من الباطل ،

---

(١) الإهاب : الجلد .

ليكون عوناً لها على الحق . ومن أقوال الصالحين من السلف المرضىّ . مَن لم يحسن يتفتّى[1] لم يحسن يتقوّى .

وفى بعض الأثر : أريحوا النفوس ، فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد .

والذى كلّفتنى لابد فيه من ذكرما شاهدَتْه حضرتى، وأدركته عنايتى، وحدّثنى به الثقات من أهل زمانى، فاغتفرْ لى الكناية عن الأسماء ، فهى إما عورة لانَستجيز كشفها ، وإما نحافظ فى ذلك صديقاً ودوداً ورجلا جليلا .

وبحسبى أن أُسمِّى من لاضرر فى تسميته ، ولا يَلحقنا والمسمَّى عيبٌ فى ذكره ، إما لاشتهار لا يُغنى عنه الطىّ وتركُ التبيين، وإما لرضى من المَخْبَرُ عنه بظهور خبره ، وقلةِ إنكار منه لنقله .

وسأورد فى رسالتى هذه أشعاراً قلتُها فيما شاهدته ، فلا تنكر أنت ومن رآها علىّ أنى سالكٌ فيها مسلك حاكى الحديث عن نفسه ، فهذا مذهب المتحلِّين بقول الشعر ، وأكثر من ذلك فإنّ إخوانى يجشِّمونى القول فيما يَعْرِض لهم على طرائقهم ومذاهبهم. وكفانى أنى ذاكر لك ماعرض لى مما يشاكل ما نحوتُ نحوه وناسبُه إلىّ .

والتزمت فى كتابى هذا الوقوفَ عند حدك ، والاقتصارَ على ما رأيتُ أو صحّ عندى بنقل الثقات ، ودعنى من أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلُهم غير سبيلنا، وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبى أن أنضى[2] مطيَّة سواى، ولا أتحلَّى بحلى مستعار ، والله المستغفَر والمستعان لاربّ غيره .

باب

وقسّمت رسالتى هذه على ثلاثين باباً ، منها فى أصول الحب عشرة :

---

(١) يتفتى : أى يكون فتى ، فى مرحه ، ودعابته .

(٢) يقال : نضا الفرس ، سبق أى لا أسبق بفرس سواى . والقصد أنه لايرضى لنفسه أن يرتفع بجهد غيره .

فأولها هذا الباب ، ثم باب فى علامات الحب ، ثم باب فيه ذكر من أحب فى النوم ، ثم باب فيه ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب فيه ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب فيه ذكر من لاتصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير .

ومنها فى أعراض الحب وصفاته المحمودة والمذمومة : اثنا عشر باباً ، وإن كان الحب عَرضاً والعرض لايحتمل الأعراض ، وصفةً . والصفةُ لاتُوصف . فهذا على مجاز اللغة فى إقامة الصفة مُقام الموصوف ، وعلى معنى قولنا : وجودنا عرضاً أقل فى الحقيقة من عرض غيره ، وأكثر وأحسن وأقبح فى إدراكنا لها : علمنا أنها متباينة فى الزيادة والنقصان من ذاتها المرئية والمعلومة ، إذ لاتقع فيها الكمية ولا التجزى ، لأنها لاتشغل مكاناً ، وهى : باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طى السر ، ثم باب الكشف والإذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يُحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت .

ومنها فى الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهى باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو .

من هذه الأبواب الستة بابان لكل واحد منهما ضد من الأبواب المتقدمة الذكر ، وهما باب العاذل : وضده باب الصديق المساعد ؛ باب الهجر وضده باب الوصل . ومنها أربعة أبواب لاضد لها من معانى الحب ، وهى باب الرقيب ، وباب الواشى ، ولاضد لهما إلا ارتفاعهما . وحقيقة الضد ما إذا وقع ارتفع الأول ، وإن كان المتكلمون قد اختلفوا فى ذلك . ولولا خوفنا إطالة الكلام فيما ليس من جنس الكتاب لتقصيناه .

وباب البين وضده تصاقب الديار[1] ؛ وليس التصاقب من معانى الحب التى نتكلم فيها . وباب السلو وضده الحب بعينه ؛ إذ معنى السلو : ارتفاع الحب وعدمه .

ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما : باب الكلام فى قبح المعصية ، وباب فى فضل التعفف . ليكون خاتمةَ إيرادنا وآخرَ كلامنا الحضُّ على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فذلك مُفترضٌ على كل مؤمن .

لكنا خالفنا فى نَسق بعض هذه الأبواب هذه الرُّتبة المقسمة فى دَرَج هذا الباب الذى هو أول أبواب الرسالة ، فجعلناها على مباديها إلى منتهاها واستحقاقها فى التقدم والدرجات والوجود ، ومن أول مراتبها إلى آخرها ، وجعلنا الضد إلى جنب ضده . فاختلف المساق فى أبواب يسيرة ، والله المستعان.

وهَيْئَتُها فى الإيراد : أولُها هذا الباب الذى نحن فيه . وفيه صدر الرسالة وتقسيم الأبواب ، والكلام فى باب ماهية الحب ، ثم باب علامات الحب ، ثم باب من أحب بالوصف ، ثم باب من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب من لا يحب إلا مع المطاولة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير ، ثم باب طى السر ، ثم باب إذاعته ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب العاذل ، ثم باب المساعد من الإخوان ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى ، ثم باب الوصل ، ثم باب الهجر ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب البين ، ثم باب القنوع ، ثم باب الضنى ، ثم باب السلو ، ثم باب الموت ، ثم باب قبح المعصية ، ثم باب التعفف .

---

(١) تصاقب الديار: تباعدها وتقاربها، والمقصود هنا التقارب. فهذه الكلمة من الأضداد .

الـكلام فى ماهية الحب[١]

الحب — أعزك الله — أوله هَزْل وآخره جِد . دقّت معانيه لجلالتها عن أن تُوصف ، فلا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة . وليس بمنكر فى الديانة ولا بمحظور فى الشريعة ، إذ القلوب بيد الله عز وجل . وقد أحب من الخلفاء المهديين والأئمة الراشدين كثير ، منهم بأندلسنا عبد الرحمن بن معاوية لدَعجاء ، والحكم بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم ، وشغفهُ بطروب أم عبد الله ابنه أشهر من الشمس ، ومحمد بن عبد الرحمن وأمره مع غزلان أم بنيه عثمان والقاسم والمطرف مَعلوم ، والحكم المستنصر وافتتانُه بصبح أم هاشم المؤيد بالله رضى الله عنه وعن جميعهم ، وامتناعُه عن التعرض للولد من غيرها . ومثل هذا كثير . ولولا أن حقوقهم على المسلمين واجبة — وإنما يجب أن نذكر من أخبارهم ما فيه الحزمُ وإحياء الدين ، وإنما هو شىء كانوا ينفردون به فى قُصورهم مع عيالهم فلا ينبغى الإخبار به عنهم — لأوردتُ من أخبارهم فى هذا الشأن غير قليل .

وأما كِبار رجالهم، ودعائم دولتهم : فأكثر من أن يُحصوا ، وأحدثُ ذلك ما شاهدناه بالأمس من كلف المظفَّر بن عبد الملك بن أبى عامر: بواحد بنت رجل من الجبائين[٢] حتى حمله حُبِّها أن يتزوجها ، وهى التى خلف عليها بعد فناء العامر بن الوزير عبد الله بن مسلمة ، ثم تزوجها بعد قتله رجلٌ من رؤساء البربر .

ومما يشبه هذا أن أبا العيش بن مَيمون القرشى الحسينى أخبرنى أن نزار

---

(١) فى بعض النسخ ، مائية الحب وهى مقلوبة عن الهاء لأن الهمزة تخالف الهاء فى كلاهما حرف حلق .

(٢) الجبائين: الذين يجبون الخراج .

ابن معدَّ صاحب مصر لم ير ابنه منصور بن نزار، الذى ولى الملك بعده وادعى الإلهية إلاَّ بعد مدة من مولده ، مشاغلة لجارية كان يُحبها حباً شديداً ، هذا ولم يكن له ذَكَر ولا من يرث ملكه ويحيي ذكره سواه .

ومن الصالحين والفقهاء فى الدهور الماضية والأزمان القديمة من قد استغنى بأشعارهم عن ذكرهم . وقد ورد من خبر عُبيد الله بن عُتبة بن مسعود وشعره مافيه الكفاية . وهو أحد فقهاء المدينة السبعة . وقد جاء من فُتيا ابن عبَّاس رضى الله عنه مالا يحتاج معه إلى غيره حين يقول : هذا قتيل الهوى لاعَقْل ولا قود .

وقد اختلف الناس فى ماهيته وقالوا وأطالوا ، والذى أذهب إليه أنه اتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع ، لا على ماحكاه محمد بن داود رحمه الله عن بعض أهل الفلسفة . الأرواح أُكَر مقسومة لكنْ على سبيل مناسبة قواها فى مقرٍّ عالَمها العلوى ومجاورتها فى هيئة تركيبها .

وقد علمنا أن سر التمازج والتباين فى المخلوقات ، إنما هو الاتصال والانفصال. والشكل دأباً يستدعى شكله ، والمِثْل إلى مِثْله ساكن، وللمُجانسة عملٌ محسوس وتأثير مشاهد ، والتنافر فى الأضداد والموافقة فى الأنداد ، والنزاع فيما تَشابه موجود فيما بيننا فكيف بالنفس، وعالمها العالم الصافى الخفيف. وجوهرها الجوهر الصعاد المعتدل ، وسِنْخها(١) المهيأ لقَبول الاتفاق والمَيل والتَّوق والانحراف والشَّهوة والنفار .

كل ذلك معلوم بالفطرة فى أحوال تصرُّف الإنسان وزوجه ، فيسكن إليها ، والله عز وجل يقول : (هُو الذى خَلَقكم من نَفْسٍ واحدةٍ وخَلَق منها

---

(١) المراد هنا الأصل .

(١) أى سنخ مسنوخاً ، رسخ وعلا .

زَوْجَها ليسْكُن إليها) فجعل علّة السكون أنها منه . ولو كان علةُ الحب حُسن الصورة الجسديّة لوجب ألا يُستحسن الأنقصُ من الصورة . ونحن نجد كثيرا ممن يُؤثر الأدنى ويَعلم فضلَ غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه . ولو كان المُوافقة فى الأخلاق : لما أَحَبَّ المرء من لا يساعده ولا يُوافقه . فَعلِمْنا أنه شىء فى ذات النفس. وربما كانت المحبة لسبب من الأسباب ، وتلك تفنى بفناء سببها . فمن ودّك لأمر : ولّى مع انقضائه . وفى ذلك أقول :

ودادى لك الباقى على حَسْب كونه　　تناهَى فلم ينقُص بشىء ولم يَزِدْ
وليست له غيرُ الإرادة علّة　　ولا سَبب حاشاه يعلمه أحَدْ
إذا ما وجدنا الشىء علّة نفسه　　فذاك وجودٌ ليس يفنى على الأبَدْ
وإمّا وجدناه لشىء خلافه　　فإعدامه فى عُدمنا ماله وجِد

ومما يؤكد هذا القول أننا علمنا أن المحبة ضُروب : فأفضلها محبّة المتحابّين فى الله عز وجل ؛ إما لاجتهاد فى العمل ، وإما لاتفاق فى أصل النِّحلة والمذاهب، وإما لفضل عِلْم يمنحه الإنسان .

ومحبة القرابة ، ومحبة الألفة والاشتراك فى المطالب ، ومحبة التصاحب والمعرفة ، ومحبة البر : يضعه المرء عند أخيه ، ومحبة الطمع فى جاه المحبوب ، ومحبة المتحابين لسر يجتمعان عليه يلزمهما ستره ، ومحبة بلوغ اللذة وقضاء الوطر ، ومحبة العشق التى لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس .

وكل هذه الأجناس منقضية مع انقضاء عللها ، وزائدة بزيادتها وناقصة بنقصانها ، متأكدة بدنوها ، فاترة ببعدها . حاشَى محبة العشق الصحيح المُمكن من النفس فهى التى لا فناء لها إلا بالموت . وإنك لتجد الإنسان السالى برغمه. وذا السِّن المتناهية ، إذا ذكّرته تذكر وارتاح وصبا ، واعتاده الطرب واهتاج له الحنين .

ولا يعرض فى شىء من هذه الأجناس المذكورة ، من شُغل البال ، والخبل ، والوسواس ، وتبدّل الغرائز المركبة واستحالة السجايا المطبوعة والنُّحول ، والزفير ، وسائر دلائل الشجا[1] : مما يعرض فى العشق ، فصحّ بذلك أنه آستحسان روحانى وامتزاج نَفسانى . فإن قال قائل : لو كان هذا كذلك : لكانت المحبّة بينهما مستوية ، إذ الجزآن مشتركان فى الاتصال ، وحظّهما واحد . فالجواب عن ذلك أن نقول : هذه لَعمرى معارضة صحيحة ، ولكنّ نفس الذى لا يحب من يحبه مكتنفةُ الجهات ببعض الأعراض الساترة ، والُحجب المحيطة بها من الطبائع الأرضية فلم تُحس بالجزء الذى كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هى ، ولو تخلّصت لاستويا فى الاتصال والمحبة . ونفس المحب متخلصة عالمة بمكان ما كان يشركها فى المجاورة ، طالبة له ، قاصدة إليه ، باحثة عنه ، مشتهية لملاقاته ، جاذبة له لو أمكنها كالمغنطيس والحديد . قوة جوهر المغنطيس المتصلة بقوة جوهر الحديد لم تبلغ من تحكمها ولا من تصفيتها أن تقصد إلى الحديد على أنه من شكلها وعنصرها ، كما أن قوة الحديد لشدتها قصدت إلى شكلها وانجذبت نحوه ، إذ الحركة أبداً إنما تكون من الأقوى ، وقوة الحديد متروكة الذات غير ممنوعة بحابسٍ ، تطلب ما يشبهها وتنقطع إليه ، وتنهض نحوه بالطبع والضرورة ، وبالاختيار والتعمّد . وأنت متى أمسكت الحديد بيدك : لم ينجذب إذ لم يبلغ من قوته أيضاً مغالبةَ المُمسك له مما هو أقوى منه . ومتى كثرت أجزاء الحديد اشتغل بعضها ببعض واكتفت بأشكالها عن طلب اليسير من قواها النازحة عنها ، فمتى عظُم جِرم المغناطيس ووازت قُواه جميعَ قُوى جرم الحديد : عادت إلى طبعها المعهود . وكالنار فى الحجر لا تبرز على قوة الحجر فى الاتصال والاستدعاء لأجزائها حيث كانت إلا بعد القدح ومجاورة

---

(١) الحزن وخمود النفس .

المجرمين بضغطهما واصطكاكهما ، وإلا فهى كامنة فى حجرها لا تبدو ولا تظهر .

ومن الدليل على هذا أيضاً أنك لا تجد اثنين يتحابان إلا وبينهما مشاكلة، واتفاق الصفات الطبيعية لابد فى هذا وإن قل ، وكلما كثرت الأشباه زادت المجانسة وتأكدت المودة . فانظر هذا تراه عياناً ، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤكده : « الأرواح جنود مجنَّدة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ، وقولٌ مرويٌّ عن أحد الصالحين : أرواح المؤمنين تتعارف . ولهذا اغتم بقراط حين وُصف له رجل من أهل النقصان يحبه ، فقيل له فى ذلك، فقال : ما أحبنى إلا وقد وافقته فى بعض أخلاقه .

وذكر أفلاطون أن بعض الملوك سجنه ظلماً ، فلم يزل يحتجّ عن نفسه حتى أظهر براءته ، وعلم الملك أنه له ظالم ، فقال له وزيره الذى كان يتولى إيصال كلامه إليه : أيها الملك ، قد استبان لك أنه برىء فمالك وله ؟فقال الملك : لعمرى مالى إليه سبيل ، غير أنى أجد لنفسى استثقالا لا أدرى ما هو . فأدّى ذلك إلى أفلاطون . قال : فاحتجت أن أفتش فى نفسى وأخلاقى شيئاً أقابل به نفسه وأخلاقه مما يشبهها ، فنظرت فى أخلاقه فإذا هو محب للعدل كاره للظلم ، فميزت هذا الطبع فىَّ ، فما هو إلا أن حركته هذه الموافقة وقابلت نفسه بهذا الطبع الذى بنفسى فأمر بإطلاقى ، وقال لوزيره : قد انحل كل ما أجد فى نفسى له .

وأما العلة التى توقع الحب أبداً فى أكثر الأمر على الصورة الحسنة، فالظاهر أن النفس حسنة تولع بكل شىء حسن وتميل إلى التصاوير المتقنة ، فهى إذا رأت بعضها تثبتت فيه ، فإن ميزت وراءها شيئاً من أشكالها اتصلت وصحت المحبة الحقيقية ، وإن لم تميز وراءها شيئاً من أشكالها لم يتجاوز حبها الصورة ، وذلك هو الشهوة .

وإن للصور لتوصيلاً عجيباً بين أجزاء النفوس النائية . وقرأت فى السفر الأول من التوراة أن النبى يعقوب عليه السلام أيام رَعيه غنما لابن خاله مهراً لابنته شارَطه على المشاركة فى إنسالها ، فكل بهيم[١] ليعقوب ، وكل أغرّ[٢] للابان ، فكان يعقوب عليه السلام يعمد إلى قضبان الشجر يسلخ نصفا ويترك نصفاً بحاله ، ثم يلقى الجميع فى الماء الذى تَرده الغنم ، ويتعمد إرسال الطروقة فى ذلك الوقت فلا تلد إلا نصفين ، نصفاً بُهماً ونصفاً غُرًّا .

وذكر عن بعض القافة[٣] أنه أُتى بابن أسود لأبيَضَيْن ، فنظر إلى أعلامه[٤] فرآه لهما غير شك . فرغب أن يُوقَف على الموضع الذى اجتمعا عليه . فأدخل البيتَ الذى كان فيه مَضْجَعهما ، فرأى فيما يوازى نظر المرأة صورة أسود فى الحائط ، فقال لأبيه : مِن قِبل هذه الصورة أُتيتَ فى ابنك .

وكثيراً ما يصرف شعراء أهل الكلام هذا المعنى فى أشعارهم ، فيخاطبون المرئىَّ فى الظاهر خطابَ المعقول الباطن ، وهو المستفيض فى شعر النظّام إبراهيم ابن سيَّار وغيره من المتكلمين ، وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ما علة النَّصر فى الأعداء تعرفها ... وعلة الفرّ منهم أن يفرّونا
إلا نِزاعُ نُفوس النــاس قاطبةً ... إليك يالؤلؤاً فى الناس مكنونا
من كنتَ قُدَّامه لاينثنى أبداً ... فهم إلى نُورك الصعَّاد يعْشُونا[٥]
ومن تكن خلفَه فالنفسُ تصرفه ... إليك طوعاً فهم دأباً يكرّونا

ومن ذلك أقول :

---

(١) أى ذا لون واحد لاتعدد فيه ، ويطلق على الأسود الخالص .

(٢) أبيض .

(٣) الذين يتعرفون على الشخص وينسبونه لأصله بناء على ما فيه من صفات تتوافق مع ذلك الأصل .

(٤) ملامحه ودلائل انتسابه .

(٥) أى يأتون إليك على أثر نورك .

أمِن عالم الأملاك أنت أم آنسيٌّ ... أبِنْ لى فقد أزرَى بتمييزى العىُّ[1]

أرى هيئةً إنسيةً غيرَ أنه ... إذا أُعمل التفكيرُ فالجِرْم عُلوىّ

تبارك من سوى مذاهب خلقه ... على أنك النور الأنيق الطبيعىّ

ولا شك عندى أنك الروح ساقه ... إلينا مثال فى النفوس اتصالىّ

عَدِمنا دليلاً فى حُدوثك شاهداً ... نَقيس عليه غيرَ أنك مَرْئىّ

ولولا وُقوع العين فى الكون لم نَقُل ... سوى أنك العقل الرفيع[2] الحقيقىّ

وكان بعض أصحابنا يُسمِّى قصيدة لى « الإدراك المتوهم » منها :

ترى كل ضِدٍّ به قائماً ... فكيف تَحُد اختلافَ المعانى

فيأيها الجسم لاذا جِهاتٍ ... ويا عَرضاً ثابتاً غيرَ فَانِ

نقضت علينا وُجوه الكلام ... فما هو مُذ لُحتَ بالمستبانِ

وهذا بعينه موجود فى البغضة ، ترى الشخصين يتباغضان لا لمعنى ، ولا علة ، ويثتقل بعضهما بعضاً بلا سبب .

والحب أعزك الله داء عَيَاء وفيه الدواء منه على قدر المعاملة ، ومقامٌ مستلذ، وعلة مشتهاة لا يوّد سليمُها البرءَ، ولا يتمنّى عليلها الإفاقة. يزيّن المرء ما كان يأنف منه ، ويسهّل عليه ما كان يصعُب عنده . حتى يُحيل الطبائع المركبة والجِبلة المخلوقة . وسيأتى كل ذلك ملخصاً فى بابه إن شاء الله .

خبر : ولقد علمتُ فتى من بعض معارفى قدوَحِل فى الحب وتورّط فى حبائله، وأضر به الوجد ، وأنضجه الدنف[3] ، وما كانت نفسه تطيب بالدعاء إلى الله عز وجل فى كشف ما به ولا ينطلق به لسانُه ، وما كان دعاؤه إلا بالوصل والتمكن ممن يُحب ، على عظيم بلائه وطويل همه ، فما الظنّ بسقيم لا يريد فقد سقمه ، ولقد جالستُه يوماً فرأيت من إكبابه وسوء حاله وإطراقه ماساءنى

---

(١) السكوت وعدم النطق .

(٢) هو العقل الأول عند الفلاسفة ، وهو أول الموجودات عند بعضهم أو الله عند البعض الآخر .

(٣) الدنف : المرض الملازم وأنضجه : أى مس سائر جسده .

فقلت له في بعض قولى : فرّج الله عنك . فلقد رأيت أثر الكراهية فى وجهه. وفى مثله أقول من كلمة طويلة :

واستلذّ بلائى فيك يا أملى ولستُ عنك مدى الأيام أنصرفُ
إن قيل لى تتسلى عن مودته فما جوابِىَ إلا اللامُ والألفُ

خبر :وهذه الصفات مخالفة لما أخبرنى به عن نفسه أبو بكر محمد بن قاسم بن محمد القرشىّ . المعروف بالشلشى، من ولد الإمام هشام بن عبد الرحمن بن معاوية، أنه لم يُحب أحداً قط ، ولا أسف على إلف بانَ منه ، ولا تجاوز حد الصُّحبة والأُلفة إلى حدّ الُحب والعِشق منذ خُلق .

باب علامات الحب

وللحُب علامات [1] يقفوها الفطِن ، ويهتدى إليها الذكىّ . فأولها إدمان النظر ، والعينُ بابُ النفس الشارع ، وهى المُنقبة عن سرائرها ،والمعبِّرة لضمائرها. وَالمعربة عن بواطنها . فترىَ الناظر لا يطرف يتنقل بتنقل المحبوب وينزوى بانزوائه ، ويميل حيث مال كالحرباء مع الشمس . وفى ذلك أقول شعراً منه:

فليس لعينى عند غيرك موقفٌ كأنك ما يحكون من حَجَر البَهْتِ [2]
أصرِّفها حيث انصرفْت وكيفما تقلبتَ كالمنعوت فى النَّحو والنَّعْتِ

ومنها الإقبالُ بالحديث ،فما يكاد يُقبل على سوى محبوبه ولو تعمد غير ذلك ، وإن التكلف ليستبين لمن يرمقه فيه ، والإنصات لحديثه إذا حدث ، واستغرابُ كل ما يأتى به وكأنه عينُ المحال وخَرق العادات [3] ، وتصديقه وإن كذب ، وموافقته وإن ظلم ، والشهادة له وإن جار ، واتباعُه كيف سلك وأىّ وجه من وجوه القول تناول .

---

(١) يتعرف عليها .
(٢) نوع من الأحجار الكريمة معروف . القاموس مادة بهت .
(٣) أى فوق ما اعتاده الناس من الأعمال .

ومنها الإسراع بالسير نحو المكان الذى يكون فيه ، والتعمد للقعود بقربه والدنو منه [١] ، واطراح الأشغال الموجبة للزوال [٢] عنه ، والاستهانة بكل خطب جلل داعٍ إلى مفارقته ، والتباطؤ فى الشىء عند القيام عنه . وفى ذلك أقول شعراً :

وإذا قمتُ عنك لم أمش إلاّ   مشْىَ عانٍ [٣] يقاد نحو الفناء
فى مجيئى إليك أحتث [٤] كالبد   ر إذا كان قاطعاً للسماء
وقيامى إن قمتَ كالأنجم العا   ليةِ الثابتات فى الإبطاء

ومنها بَهْت [٥] يقع ، وروعةٌ تبدو على المحب عند رؤية من يُحب فجأة وطلوعه بغتة .

ومنها اضطراب يبدو على المحب عند رؤية من يُشبه محبوبه أو عند سماع اسمه فجأة . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

إذا مارأتْ عيناى لابَس حمرةٍ   تقطّع قلبى حَسرة وتفطّرا
غدا لدماء الناس باللّحظ سافكا   وضرّج منها ثوبه فتعصفرا

ومنها أن يجود المرء ببذل كل ما كان يقدر عليه مما كان ممتنعاً به قبل ذلك ، كأنه هو الموهوب له والمسعى فى حظه ، كل ذلك ليبدى محاسنه ويرغّب فى نفسه . فكم بخيل جاد ، وقطوب [٦] تطلّق [٧] ، وجبان تشجّع ، وغليظ الطبع تطرّب ، وجاهل تأدب ، وتفِل [٨] تزين ، وفقير تجمل . وذى سن تفتى ، وناسك تفتّك [٩] ، ومصون تبذّل .

---

(١) ترك
(٢) الانصراف عنه
(٣) أسير مأسور
(٤) أسرع
(٥) تحير وذهول واضطراب
(٦) القطوب : العابس الذى يزوى ما بين عينيه
(٧) صار باشا طلق الوجه
(٨) التفل : المتغير الريح
(٩) صار فاتكا سفاكا للدماء

وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجُّج حريقه ، وتوقد شعله ، واستطارة لهبه . فأما إذا تمكن وأخذ مأخذه فحينئذ ترى الحديث سِرارا ، والإعراض عن كل ماحضر إلا عن المحبوب جهارا . ولى أبيات جمعت فيها كثيرا من هذه العلامات ، منها :

أهوى الحديث إذا ما كان يذكر لى فيه ويَعْبَق لى عن عنبر أرج
إن قال لم أستمع ممن يُجالسنى إلى سوى لفظة المستطرف الغَنِج (١)
ولو يكون أمير المؤمنين معى ما كنت من أجله عنه بمُنعرج (٢)
فإن أقم عنه مُضطرا فإنى لا أزال مُلتفتاً والمشى مشىُ وَجِى (٣)
عيناى فيه وجسمى عنه مرتحلٌ مثل ارتقاب الغريق البَرّ فى اللُّجج
أغصُّ بالماء إن أذكُر تباعدَه كمن تثاءب وَسْط النقع والوَهَج
وإن تقُل ممكن قَصْد السماء أقل نعم وإنى لأدرى موضع الدَّرج

ومن علاماته وشواهده الظاهرة لكل ذى بصر الانبساطُ الكثير الزائد، والتضايق فى المكان الواسع ، والمجاذبة على الشىء يأخذه أحدهما ، وكثرة الغمز الخفى ، والميل بالاتكاء ، والتعمد لمسّ اليد عند المحادثة ، ولمس ما أمكن من الأعضاء الظاهرة . وشرب فضلة ما أبقى المحبوب فى الإناء ، وتحرى المكان الذى يقابله فيه .

ومنها علامات متضادة ، وهى على قدر الدواعى والعوارض الباعثة والأسباب المحركة والخواطر المهيجة ،والأضداد أنداد ، والأشياء إذا أفرطت فى غايات تضادها . ووقفت فى انتهاء حدود اختلافها تشابهت ، قدرة من الله عز وجل تضل فيها الأوهام،فهذا الثلج إذا أدمن حبسه فى اليد فعل فعل النار ، ونجد الفرح إذا أفرط قتل ، والغم إذا أفرط قتل ، والضحك إذ كثر واشتد

(١) الجميل المتهادى
(٢) بقائم من مجالسته
(٣) المتعثر فى مشيه لألم فى رجله

أسال الدمع من العينين . وهذا فى العالم كثير ، فنجد المحبين إذا تكافيا فى المحبة وتأكدت بينهما تأكداً شديداً : أكثر بهما جدهما بغير معنى ،وتضادهما فى القول تعمداً ، وخروجُ بعضهما على بعض فى كل يسير من الأمور ، وتتبع كلٌّ منهما لفظةً تقع من صاحبه وتأولها على غير معناها ، كل هذه تجربة ليبدو ما يعتقده كل واحد منهما فى صاحبه . والفرق بين هذا وبين حقيقة الهجرة والمضادة المتولدة عن الشحناء ومُخارجة التشاجر سرعةُ الرضى . فإنك بينما ترى المُحبين قد بلغا الغاية من الاختلاف الذى لا يقدر يصلُح عند الساكن النفس السالم من الأحقاد فى الزمن الطويل ولا ينجبر عن الحقود أبداً ، فلا تلبث أن تراهما قدعادا إلى أجمل الصُّحبة ، وأهدرت المعاتبة ، وسقط الخلاف ، وانصرفا فى ذلك الحين بعينه إلى المضاحكة والمداعبة ، هكذا فى الوقت الواحد مراراً . وإذا رأيت هذا من اثنين فلا يُخالجك شك ولا يدخلنك ريبٌ البتةَ ولا تمارَ فى أن بينهما سرًّا من الحب دفينا ، واقْطع فيه قطع من لا يصرفه عنه صارف ودونكها تجربة صحيحةً وخِبرةً صادقة . هذا لا يكون إلا عن تكافؤٍ فى المودة وائتلاف صحيح ، وقد رأيته كثيراً .

ومن أعلامه أنك تجد المحب يستدعى سماع اسم من يُحب ، ويستلذ الكلام فى أخباره ويجعلها هُجيِّراه[١] ، ولا يرتاح لشىء ارتياحه لها ، ولا ينهنهه[٢] عن ذلك تخوّفُ أن يفطن السامع ويفهم الحاضر ، وحُبك الشىء يعمى ويصم. فلو أمكن المحبَّ ألا يكون حديثٌ فى مكان يكون فيه إلا ذُكر من يُحبه لما تعدَّاه. ويعرض للصادق المودة أن يبتوىء فى الطعام وهوله مُشْتَهٍ فما هو إلا وقتٌ، ما تهتاج له من ذِكْر من يُحب : صار الطعام غصة فى الحلق وشجى فى المرىء . وهكذا فى الماء وفى الحديث فإنه يفاتحه متبهجاً فتعرض

(١) هجيراه . دأبة وشأنه .
(٢) ينهنهه أى يكفه ويزجره .

له خَطرة من خطرات الفكر فيمن يُحب فتستبين الحوالة فى منطقه والتقصير فى حديثه، وآية ذلك الوُجومُ والإطراق وشدة الانغلاق، فبينما هو طَلْقُ الوجه خفيفُ الحركات صار مُنطبقاً متثاقلا حائرَ النفس جامدَ الحركة يبرم من الكلمة ويضجر من السؤال.

ومن علاماته حُبُّ الوحدة والأُنس بالانفراد، ونُحول الجسم دون حدٍّ يكون فيه ولا وجع مانع من التقلب والحركة والمشى. دليل لا يكذِب ومُخبر لا يخون عن كلمة فى النفس كامنة.

والسهرُ من أعراض المُحبين. وقد أكثر الشعراء فى وصفه وحكوا أنهم رعاة الكواكب وواصفُوا طول الليل. وفى ذلك أقول وأذكر كتمان السر وأنه يتوسّم بالعلامات :

تعلّمتِ السحائبُ من شُؤونى ... فعمَّت بالحيا السَّكْبِ الهَتُونِ
وهذا الليل فيكَ غدا رفيقى ... بذلك أم على سهرى مُعينى
فإن لم يَنقِض الإظلام عنى ... ألاَ ما أطبقت نوماً جُفونى
فليس إلى النهار لنا سبيلٌ ... وسُهد زائد فى كل حين
كأنّ نُجومه والغَيم يُخفى ... سناها عن مُلاحظة العُيون
ضَميرى فى وِدادك يامُنايا ... فليس يبين إلا بالظُّنون

وفى مثل ذلك قطعة منها :

أرعى النُجوم كأنَّنى كُلِّفت أن ... أرعى جميعَ ثُبوتها والخُنَّسِ
فكأنها والليلُ نِيران الجوى ... قد أُضرمت فى فِكْرتى من حِندِس
وكأننى أمسيتُ حارسَ روضةٍ ... خضراء وشِّعَ نَبْتُها بالنَّرجس
لو عاش بطْليموس أيقن أننى ... أقوى الوَرَى فى رَصْد جَرْى الكُنَّس

والشيء قد يذكر لما يُوجبه : وقع لى فى هذه لأبيات تشبيه شيئين بشيئين

فى بيت واحد . وهو البيت الذى أوله « فكأنها والليل» وهذا مستغرب فى الشعر . ولى ما هو أكملُ منه ، وهو تشبيه ثلاثة أشياء فى بيت واحد ، وتشبيه أربعة أشياء فى بيت واحد . وكلاهما فى هذه القطعة التى أوردها ، وهى:

مُشوقٌ مُعَنًّى ما يَنام مُسهَّد بخمر التَّجنّى ما يزال يُعربدُ
فنى ساعةٍ يُبدى إليك عجائباً يمرّ ويَستحلى ويُدنى ويُبعِدُ
كأن النَّوى والعَتْب والهَجْر والرِّضى قِرَانٌ وأنداد ونحس وأسعدُ
رَثَى لغرامى بعد طول تمنّع
وأصبحتُ محسوداً وقد كنت أحسُد
نِعْمنا على نُور من الرَّوض زاهر سقته الغوادى فهو يُثنى ويحمدُ
كأن الحيا والمُزن والرَّوض عاطراً دُموعٌ وأجفان وخدٌّ موردُ

ولا ينكر علىّ منكر قولى « قران » فأهل المعرفة بالكواكب يسمّون التقاء كوكبين فى درجة واحدة قراناً .

ولى أيضاً ما هو أتم من هذا ، وهو تشبيه خمسة أشياء فى بيت واحد فى هذه القطعة ، وهى :

خلوتُ بها والرَّاح ثالثةٌ لها وجُنح ظَلام اللَّيل قد مُدَّ ما انبلج
فتاةٌ عدمتُ العيشَ إلا بقُربها
فهل فى ابتغاء العيش ويحك من حَرَج
كأنى وَهِي والكاسَ والخمر والدُّجى
ثَرًى وحياً والدُّرُّ والتِّبر والسَّبَج

فهذا أمر لا مزيدَ فيه ولا يقدر أحدٌ على أكثر منه ، إذ لا يحتمل العَروضُ ولا بنية الأسماء أكثر من ذلك ..

ويعرض للمحبين التلق عند أحد أمرين :

أحدهما عند رجائه لقاء من يُحب فيعرض عند ذلك حائل .

خبر :

وإنى لأعلم بعضَ مَن كان محبوبُه يَعِده الزيارة ، فما كنتُ أراه إلا جائياً وذاهباً لا يقرّ به القرار ولا يثبت فى مكان واحد ، مقبلاً مدبراً قد استخفه السرور بعد ركانة ، وأشاطه بعد رزانة . ولى فى معنى انتظار الزيارة :

أقمتُ إلى أن جاءنى الليلُ راجيا … لِقاءَك ياسُؤلى وياغاية الأمل
فأيأسنى الإظلامُ عنك ولم أكن … لأيأس يوماً إن بدا الليلُ يتَّصل
وعندى دليلٌ ليس يكذب خُبْره … بأمثاله فى مشكل الأمر يُستدلّ
لأنك لو رُمْت الزيارة لم يكن … ظلامٌ ودام النُّور فينا ولم يَزُل

والثانى عند حادث يحدُث بينهما من عتاب لا نُدرى حقيقته إلا بالوصف. فعند ذلك يشتدّ القلق حتى توقف على الجليلة ، فإما أن يذهب تحمُّله إن رجا العفو ، وإما أن يصير القلق حزناً وأسفا إن تخوف الهجر .

ويعرض للمُحب الاستكانةُ لجفاء المحبوب عليه . وسيأتى مفسَّراً فى بابه إن شاء الله تعالى .

ومن أعراضه الجزع الشديد والحمرة المقطعة تغلب عند ما يرى من إعراض محبوبه عنه ونِفاره منه ، وآية ذلك الزفير وقلة الحركة والتأوه وتنفس الصُّعداء . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

جميلُ الصَّبر مَسْجون … ودمع العين مَسْفُوح

ومن علاماته أنك ترى المحب يحب أهل محبوبه وقرابته وخاصته حتى يكونوا أحظى لديه من أهله ونفسه ومن جميع خاصته .

والبكاء من علامات المحب ولكن يتفاضلون فيه ، فمنهم غزير الدمع هامِل الشؤون تُجيبه عينه وتحضُره عبرته إذا شاء ، ومنهم جَمود العين عديم الدَّمع ،

وأنا منهم . وكان الأصل فى ذلك إدمانى أكل الكُنْدر[1] لخفقان القلب ؛ وكان عَرَض لى فى الصبا ، فإنى لأصاب بالمصيبة الفادحة فأجد قلبى يتفطَّر ويتقطَّع وأُحِسّ فى قلبى غُصّة أمرّ من العلقم تَحُول بينى وبين توفية الكلام حقّ مخارجه؛ وتكاد تشرقنى النفس أحياناً ولا تجيب عينى البتة إلا فى الندرة بالشىء اليسير من الدمع .

خبر :

ولقد أذكرنى هذا الفصل يوماً : ودعت أنا وأبو بكر محمد بن إسحاق صاحبى أبا عامر محمد بن عامر صديقنا رحمه الله فى سفرته إلى المشرق التى لم نَرَه بعدها ، فجعل أبو بكر يبكى عند وداعه وينشد متمثّلا بهذا البيت :

ألا إن عيناً لم تَجُد يومَ واسطٍ عليك بباقى دَمعها لجَمودُ

وهو فى رثاء يزيد من عمر بن هُبيرة رحمه الله . ونحن وقوف على ساحل البحر بمالقة ، وجعلت أنا أكثر التفجّع والأسف ولا تساعدنى عينى ؛ فقلت مُجيباً لأبى بكر :

وانّ امرأ لم يُفنِ حُسن اصطباره عليك وقد فارقْتَه لجليد

وفى المذهب الذى عليه الناس أقول من قصيدة قلتُها قبل بلوغ الُحلم ؛ أولها :

دليل الأسى نارٌ على القلب تلفَحُ ودمعٌ على الخدّين يَحْمى ويَسفح
إذا كَتم المشغوفُ سرّ ضُلوعه فإن دموع العين تُبدى وتَفْضح
إذا ما جُفون العين سالت شُؤونها ففى القلب داء للغـرام مُبرِّح

ويعرض فى الُحب سوء الظن واتّهام كل كلمة من أحدهما وتوجيهها إلى غير وجهها ، وهذا أصل العتاب بين المحبين. وإنى لأعلم من كان أحسن الناس

(١) نوع من اللبان ويؤخذ أيضا لقطع البلغم .

ظناً وأوسعهم نفساً وأكثرهم صبراً وأشدهم احتمالا وأرحبهم صدراً ، ثم لا يحتمل ممن يُحب شيئاً ولا يقع له معه أيسر مخالفة حتى يبدى من التَّعديد فنوناً ومن سوء الظن وجوها . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

أُسيء ظنّي بكُل محتقرٍ   تأتى به والحقيرُ من حَقَرْ
كى لا يُرى أصل هجرة وقلى   فالنارُ فى بدء أمرها شَرَرْ
وأصلُ عُظْم الأمور أهونُها   ومن صغير النَّوى ترى الشَّجَرْ

وترى المُحب ، إذا لم يثِق بنقاء طويّة محبوبه له ، كثير التحفظ مما لم يكن يتحفظ منه قبل ذلك ، مثقفاً لكلامه ، مزيناً لحركاته ومرامى طرفه ، ولاسيما إن دُهى بمتجنٍّ وبُلى بمُعربد .

ومن آياته مراعاةُ المُحب لمحبوبه ، وحفظُه لكل ما يقع منه ، وبحثه عن أخباره حتى لا تسقط عنه دقيقة ولا جليلة ، وتتّبعه لحركاته . ولعمرى لقد ترى البليد بصيراً فى هذه الحالة ذكيا ، والغافل فطناً .

خبر : ولقد كنتُ يوماً بالمريَّة قاعداً فى دُكان إسماعيل بن يونس الطبيب الإسرائيلى ، وكان بصيراً بالفراسة مُحسناً لها ، وكُنا فى لمة ، فقال له مجاهد بن الحصين القيسى: ماتقول فى هذا ؟ وأشار إلى رجل مُنتبذ عنَّا ناحيةً اسمه حاتم ويكنى أبا البقاء ، فنظر إليه ساعةً يسيرة ثم قال : هو رجل عاشق . فقال له : صدقت ، فمن أين قلت هذا ؟ قال : لِبُهْت مُفرطٍ ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته ، فعلمت أنه عاشق وليس بمريب .

باب من أحب فى النوم

ولا بُد لكل حُب من سبب يكون له أصلاً ، وأنا مبتدىء بأبعد ما يمكن أن يكون من أسبابه ليجرى الكلامُ على نسق ، أو أن يبتدأ أبدا بالسهل والأهون . فمن أسبابه شيء لولا أنى شاهدته لم أذكره لغرابته .

خبر : وذلك أنى دخلتُ يوماً على أبى السرىّ عمّار بن زياد صاحبنا مولى المؤيد فوجدته مفكّرا مهتماً فسألته عما به ، فتمنع ساعة ثم قال : لى أُعجوبة ما سُمعت قط . قلت : وماذاك ؟ قال : رأيت فى نَومى الليلة جاريةً فاستيقظتُ وقد ذهب قلبى فيها وهِمْت بها وإنى لفى أصعب حال من حبها ، ولقد بقى أياماً كثيرة يزيد على الشهر مغموماً مهموماً لايهنئه شىء وَجْداً ، إلى أن عذلته وقلت له : من الخطأ العظيم أن تشغل نفسك بغير حقيقة ، وتعلق وهمك بمعدوم لايوجد . هل تعلم من هى ؟ قال: لا والله . قلت : إنك لفَيْل(١) الرأى مصاب البصيرة إذ تحب من لم تره قط ولا خُلق ولا هو فى الدنيا ، ولو عشقت صورة من صور الحمام لـكنتَ عندى أعذر . فمازِلْتُ به حتى سلا وما كاد .

وهذا عندى من حديث النفس وأضغاثها ، وداخل فى باب التمنى وتخيل الفـكر . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

يا ليت شعرىَ من كانت وكيف سَرَتْ ... أطَلْعة الشمس كانت أم هى القمرُ

أظنّه العقـل أبداه تدبُّره ... أو صورة الروح أبدتها لىَ الفِكرُ

أو صورة مثّلت فى النفس من أملى ... فقد تخيّل فى إدراكها البَصَرُ

أو لم يكن كُل هـذا فهى حادثةٌ ... أتى بها سبباً فى حَتْفِىَ القَدَرُ

باب من أحب بالوصف

ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة ، وهذا أمر يُترقَّى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة والهم والوجد والسهر على غير الأبصار ، فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً فى النفس ظاهراً .

(١) فيل الرأى بفاء مفتوحة وتكسر : فاسده .

وأن تسمع نغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال.
وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندى بنيان هار على غير أُس، وذلك أن الذى أفرغ ذهنه فى هوى مَن لم ير لا بُدّ له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورةً يتوهمها وعيناً يقيمها نُصب ضميره ، لا يتمثّل فى هاجسه غيرها ، قد مال بوهمه نحوها ، فإن وقعت المُعاينة يوماً ما فحينئذ يتأكَّد الأمر أو يبطل بالكلية ، وكلا الوجهين قد عَرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا فى ربّات القُصور المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحُب النساء فى هذا أثبت من حُب الرجال لضعفهن وسُرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن، وتمكنه منهن . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

ويا مَن لامنى فى حُبٍّ مَنْ لم يَره طَرْفِى
لقد أفرطتَ فى وصفك لى فى الحب بالضَّعف
فقُل هل تُعرف الجنَّة يوماً بسوى الوَصْف

وأقول شعراً فى استحسان النَّغمة دون وقوع العين على العيان ، منه :

قد حلّ جيش الغرام سَمْعى وَهْو على مُقلتىّ يبدو

وأقول أيضاً فى مخالفة الحقيقة لظن المحبوب عند وقوع الرؤية :

وَصفُوكَ لى حتى إذا أبصرت ما وَصَفُوا علمت بأنه هَذَيان
فالطَّبل جِلد فارغ وطَنِينَهُ يرتاع منه ويَفرَق الإنسان

وفى ضد هذا أقول :

لقد وصفوكَ لى حتى التقينا فصار الظنُّ حقًّا فِى العِيان
فأوصاف الجِنان مُقصِّرات على التَّحقيق عن قدر الجِنان

وإن هذه الأحوال لتحدث بين الأصدقاء والإخوان ، وعنى أحدث .
خبر : إنه كان بينى وبين رجل من الأشراف ود وكيد وخطاب كثير، وما تراءينا قط . ثم منح الله لى لقاءه ، فما مرت إلا أيام قلائل حتى وقعت

لنا مُنافرة عظيمة ووحشة شديدة متصلة إلى الآن ، فقلت فى ذلك قطعة ، منها :

أبدلت أشخاصنا كُرهًا وفَرط قِلًى   كما الصحائف قد يُبدلْن بالنَّسخ

ووقع لى ضد هذا مع أبى عامر بن أبى عامر رحمة الله عليه ، فإنى كنت له على كراهة صحيحة وهو لى كذلك ، ولم يرنى ولا رأيته ، وكان أصل ذلك تَنقيلاً يُحمل إليه عنى وإلىَّ عنه ، ويؤكده انحراف بين أبوينا لتنافسهما فيما كانا فيه من صُحبة السلطان ووجاهة الدنيا ، ثم وفَّق الله الاجتماعَ به فصار لى أودَّ الناس وصرتُ له كذلك ، إلى أن حال الموت بيننا . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

أخٌ لى كَسبَّنيه اللقاء   وأوجدنى فيه عِلْقاً[1] شريفاً
وقد كنت أكره منه الجوارَ   وما كنتُ أرغبه لى أليفاً
وكان البغيضَ فصار الحبيبَ   وكان الثقيل فصار الخفيفا
وقد كنت أدمن[2] عنه الوَجيف[3]   فصرتُ أُديم إليه الوَجيفا

وأما أبو شاكر عبد الرحمن بن محمد القبرىّ فكان لى صديقاً مدةً على غير رؤية ، ثم التقينا فتأكَّدت المودة واتصلت وتمادت إلى الآن .

باب من أحب من نظرة واحدة

كثيراً ما يكون لُصوق الحب بالقلب من نظرة واحدة . وهو ينقسم قسمين ، فالقسم الواحد مخالف للذى قبل هذا ، وهو أن يعشق المرء صورةً لا يعلم من هى ولا يدرى لها اسماً ولا مستقراً ، وقد عرض هذا لغير واحد .

---

(١) نفيساً .   (٢) أمنع .   (٣) الإسراع فى المشى .

خبر: حدثنى صاحبنا أبو بكر محمد بن أحمد بن إسحاق عن ثقة أخبره سَقط عنى اسمه ، وأظنه القاضى ابن الحذاء ، أن يوسف بن هارون الشاعر المعروف بالرَّمادى كان مجتازاً عند باب العطارين بقُرطبة ، وهذا الموضع كان مجتمع النساء ، فرأى جارية أخذت بمجامع قلبه وتخلّل حبها جميعَ أعضائه ، فانصرف عن طريق الجامع وجعل يَتبعها وهى ناهضة نحو القنطرة ، فجازتها إلى الموضع المعروف بالرَّبَض. فلما صارت بين رياض بنى مروان — رحمهم الله — المبنية على قبورهم فى مقبرُة الربض خَلْف النهر . نظرت منه مُنفرداً عن الناس لا همّة له غيرها ، فانصرفت إليه فقالت له : مالك تمشى ورائى ؟ فأخبرها بعظيم بليته بها . فقالت له : دع عنك هذا ولا تطلب فضيحتى فلا مطمع لك فى النية ولا إلى ما ترغبه سبيل . فقال : إنى أقنع بالنظر . فقالت : ذلك مُباح لك . فقال لها : ياسيدتى ، أحرة أم مملوكة ؟ فقالت : مملوكة . فقال لها : ما اسمك ؟ قالت : خلوة . قال : ولمن أنت ؟ فقالت له : علمك والله بما فى السماء السابعة أقرب إليك مما سألت عنه ، فدع المحال . فقال لها : يا سيدتى، وأين أراك بعد هذا ؟ قالت : حيث رأيتنى اليوم فى مثل تلك الساعة من كل جمعة . فقالت له: إما أن تنهض أنت وإما أنهض أنا . فقال لها : انهضى فى حفظ الله . فنهضت نحو القنطرة ولم يمكنه اتباعها لأنها كانت تلتفت نحوه لترى أيسايرها أم لا. فلما تجاوزت باب القنطرة أتى يقفوها فلم يقع لها على مسألة .

قال أبو عمر ، وهو يوسف بن هارون : فوالله لقد لازمت باب العطارين والرَّبض من ذلك الوقت إلى الآن فما وقعت لها على خبر ولا أدرى أسماءٌ لحسَتْها أم أرض بلعتها ، وإن فى قلبى منها لأحر من الجمر . وهى خلوة التى يتغزل بها فى أشعاره .

ثم وقع بعد ذلك على خبرها بعد رحيله فى سببها إلى سَرَقُسطة فى قصة

طويلة . ومثل ذلك كثير . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

عينى جَنت فى فؤادى لوعةَ الفِكَر ... فأُرسل الدمع مُقتصًّا من البَصَرِ
فكيف تُبصر فعل الدَّمع مُنتصفاً ... منها بإغراقها فى دَمْعها الدررِ
لم ألقها قبل إبصارى فأعرفها ... وآخر العهد منها ساعة النظر

* * *

والقسم الثانى مخالف للباب الذى يأتى بعد هذا الباب إن شاء الله ، وهو أن يعلق المرء من نظرة واحدة جاريةً معروفة الاسم والمكان والمَنشأ ، ولكن التفاضل يقع فى هذا فى سُرعة الفناء وإبطائه ، فمن أحبَّ من نظرة واحدة وأسرع العلاقة من لمحة خاطرة فهو دليل على قلَّة الصبر، ومُخبر بسرعة السلو، وشاهد الظرافة والملل . وهكذا فى جميع الأشياء أسرعُها نمواً أسرعها فَناء ، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاذاً .

خبر : إنى لأعلم فتىً من أبناء الكتّاب ورأته امرأة سريّة النشأة ، عالية المنصب، غليظة الحجاب ، وهو مُجتاز ، ورأته فى موضع تَطَّلع منه كان فى منزلها ، فعلقته وعَلقها وتهاديا المراسلة زماناً على أرقّ من حد السيف ، ولولا أنى لم أقصد فى رسالتى هذه كشفَ الحيل وذكر المكائد لأوردتُ مما صحّ عندى أشياء تحير اللبيب وتدهش العاقل ، أسبل الله علينا ستره وعلى جميع المسلمين بمنه ، وكفانا .

باب من لا يحب إلا مع المطاولة

ومن الناس من لا تصحّ محبته إلا بعد طول المُخافتة[1] وكثير المُشاهدة ومتمادى الأُنس ، وهذا الذى يوشك أن يدوم ويثبت ولا يحيك فيه مر الليالى ،

---

(١) الحديث الخفى .

فادخل عسيراً لم يخرج يسيراً ،وهذا مذهبي.وقد جاء فى الأثر أن الله عز وجل قال للروح حين أمره أن يدخل جسدَ آدم ،وهو فخّار ، فهاب وجَزع: ادخل كرهاً واخرج كرهاً . حدّثناه عن شيوخنا .

ولقد رأيت من أهل هذه الصفة من إن احسّ من نفسه بابتداءهوى،أو توجّس من استحسانه ميلاً إلى بعض الصور استعمل الهجر وترك الإلمام ، لئلا يزيد ما يجد فيخرج الأمر عن يده ، ويُحال بين العَيْر والنَّزَوان . وهذا يدل على لُصوق الْحب بأكباد أهل هذه الصفة . وأنه إذا تمكن منهم لم يُحلّ أبداً . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

سأبعد عن دواعى الُحبّ إنى — رأيتُ الحزم من صِفة الرّشيد
رأيتُ الحب أوّله التصـدى — بعينك فى أزاهير الخُـدود
فبينا أنت مغتبط مُخـلًّى — إذا قد صرت فى حلَقُ القُيود
كمغترّ بضحضاح [1] قريب — فذل فغاب فى غمر المُدود [2]

وإنى لأطيل العجب من كل مَن يدعى أنه يحب مِن نظرة وَاحدة ولا أكاد أصدقه ولا أجعل حبُه إلا ضرباً من الشهوة ، وأما أن يكون فى ظنى متمكناً من صميم الفؤاد نافذاً فى حِجاب القلب فما أقدر ذلك ، وما لصق بأحشائى حُب قطّ إلا مع الزمن الطويل وبعد ملازمة الشخص لى دهراً وأخذى معه فى كل جد وهزل ، وكذلك أنا فى السلوّ والتوقى، فما نسيت ودًّا لى قطّ ،وإن حَنينى إلى كل عهد تقدم لى ليغصّني بالطعام ويُشرقنى بالماء ، وقد استراح مَن لم تكن هذه صفتُه .وما مللتُ شيئاً قط بعد معرفتى به ، ولا أسرعت إلى الأنس بشىء قط أولَ لقائى له ، وما رغبتُ فى الاستبدال إلى سبب من أسبابى مذ كنت م

---

(١) ماء قليل لا يغطى كف القدم

(٢) غمر المدود : المياه الغامرة

لا أقول فى الألاّف والإخوان وحدهم ، لكن فى كل ما يَستعمل الإنسان من ملبوس ومركوب ومطعوم وغير ذلك، وما انتفعتُ بعيش ولا فارقنى الإطراق والانغلاق مذ ذقت طعم فراق الأحبة ، وإنه لشَجًى يعتادنى وولوع همّ ما ينفكّ يَطرّقنى ، ولقد نغَّص تذكرى ما مَضَى كُلّ عيش أستأنفه ، وإنى لقَتيل الهموم فى عداد الأحياء ، ودفين الأسى بين أهل الدنيا . والله المحمود على كل حال لا إله إلا هو . وفى ذلك أقول شعرا ، منه :

محبة صدق لم تكن بنتَ ساعة ولا وَرِيت حين ارتياد زنادُها

ولكنْ على مهل سرت وتولدت بطول امتزاج فاستقر عمادُها

فلم يَدْنُ منها عزمها وانتقاضُها ولم يَنْأَ عنها مُكثها وازديادها

يؤكّد ذا أنَّا نرى كل نشأة تَتِم سريعاً عن قَريب معادها

ولكنَّنى أرض عَزازٌ صليبةٌ منيع إلى كل الغروس انقيادها

فما نَفَذت منها لديها عُروقها فليست تُبالى أن يجود عِهادها

ولا يظن ظانّ ولا يتوهمّ متوهّم أن كل هذا مخالف لقولى المسطر فى صدر الرسالة ، أن الحب اتصال بين النفوس فى أصل عالمَها العُلْوى ، بل هو مؤكِّد له. فقد علمنا أن النفس فى هذا العالم الأدنى قد غمرتها الحجب ، ولحقتها الأغراض وأحاطت بها الطبائع الأرضية الكونية، فسترت كثيرا من صفاتها وإن كانت لم تحله (١) ، لكن حالت دونه فلا يرجى الاتصال على الحقيقة إلا بعد التهيؤ من النفس والاستعداد له ، وبعد إيصال المعرفة إليها بما يشاكلها ويوافقها ومقابلة الطبائع التى خفيت مما يشابهها من طبائع المحبوب ، فحينئذ يتصل اتصالا صحيحاً بلا مانع .

---

(١) تحله بسكون اللام : تغيره .

وأما ما يقع لأول وهلة ببعض أعراض الاستحسان الجسدى ، واستطراف البصر الذى لا يجاوز الألوان ، وهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة ، فإذا غلبت الشهوة وتجاوزت هذا الحد ووافق الفصلَ اتصالٌ نفسانى تشترك فيه الطبائع مع النفس يُسمَّى عشقاً . ومن هذا دخل الغَلَط على من يزعُم أنه يُحب اثنين ويعشق شخصين متغايرين ، فإنما هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا آنفاً ، وهى على هذا المجاز تسمى محبة لا على التحقيق ، وأما نفس المحب فما فى المَيل به فضل يصرفه من أسباب دينه ودنياه ، فكيف بالاشتغال بحُب ثانٍ . وفى ذلك أقول :

كذب المُدعى هوى اثنين حتماً ... مثل ما فى الأصول أكذب مانى[1]

ليس فى القلب موضعٌ لحبيبين ... ولا أحدثُ الأمور بثانى

فكما العقلُ واحد ليس يدرى ... خالقاً غَير واحد رَحمانِ

فكذا القلبُ واحدٌ ليس يهوى ... غيرَ فَرد مباعدٍ أو مدانِ

هو فى شِرْعة المودةِ ذو شك ... بعيد من صحة الإيمان

وكذا الدِّين واحدٌ مستقيمٌ ... وكفور من عقده دينان

وإنى لأعرف فتًى من أهل الجدّ والحسب والأدب كان يبتاع الجارية وهى سالمة الصدر من حُبه ، وأكثر من ذلك كارهة له لقلة حلاوة شمائل كانت فيه ، وقُطوب دائم كان لا يفارقه ولا سيما مع النساء ، فكان لا يلبث إلا يسيراً ريثما يصل إليها بالجماع ويعود ذلك الكره حُبًّا مفرطاً وكلفاً زائداً واستهتاراً مكشوفا ، ويتحول الضجر لصحبته ضجراً لفراقه . صحبه هذا الأمر فى عدة منهن . فقال بعضُ إخوانى : فسألته عن ذلك فتبسَّم نحوى وقال : إذاً والله أخبرك ، أنا أبطأ الناس إنزالا ، تقضى المرأة شهوتها وربما ثنَّت

---

(١) مانى: فيلسوف من فلاسفة المجوس يزعمون أنه نبي .

وإنزالى وشهوتى لم ينقضيا بعد ، وما فترت بعدها قط ، وإنى لأبقى بمُنّتى بعد انقضائها الحين الصالح . وما لاقى صدرى صدر امرأة قط عند الخلوة إلا عند تعمدى المعانقة ، وبحسب ارتفاع صدرى نزولُ مؤخرى .

فمثل هذا وشبهه إذا وافق أخلاق النفس ولّد المحبة ، إذ الأعضاء الحساسة مسالك إلى النفوس ومؤديات نحوها .

باب من أحب صفة لم يستحسن بعدها غيرها مما يخالفها

واعلم أعزّك الله أن للحُب حكما على النفوس ماضياً ، وسلطاناً قاضياً ، وأمراً لا يخالف ، وحدًّا لا يُعصى ، وملكاً لا يتعدّى ، وطاعة لا تُصرف ، ونفاذاً لا يُرد ، وأنه ينقض المِرَر[1] ، ويُحل المُبرم ، ويحلل الجامد ، ويحل الثابت ، ويَحل الشغافَ ، ويُحلّ الممنوع ، ولقد شاهدت كثيراً من الناس لا يُتهمون فى تمييزهم ، ولا يُخاف عليهم سقوط فى معرفتهم ، ولا اختلال بحُسن اختيارهم ، ولا تقصير فى حدسهم ، وقد وصفوا أحباباً لهم فى بعض صفاتهم بماليس بمُستحسن عند الناس ولا يرضى فى الجمال ، فصارت هجّيراهم ، وعُرضة لأهوائهم ، ومنتهى استحسانهم . ثم مضى أولئك إمّا بسلو أو بَيْن أو هجر أو بعض عوارض الحب ، وما فارقهم استحسان تلك الصفات ولا بان عنهم تفضيلها ، على ماهو أفضل منها فى الخليقة ، ولا مالوا إلى سواها ؛ بل صارت تلك الصفات المُستجادة عند الناس مهجورة عندهم ساقطة لديهم إلى أن فارقوا الدنيا وانقضت أعمارهم ، حنيناً منهم إلى من فقدوه ، وألفة لمن صحبوه. وما أقول إن ذلك كان تصنعاً لكن طبعاً حقيقياً واختياراً لا دخل فيه ، ولا يرون سواه ، ولا يقولون فى طَىّ عَقْدهم بغيره . وإنى لأعرف من كان فى جيد حبيبه بعض

---

(١) القوى .

الوَقَص[١] ، فما استحسن أغيد[٢] ، ولا غيداء بعد ذلك . وأعرف مَن كان أولَ علاقته بجارية مائلة إلى القِصَر فما أحبَّ طويلةً بعد هذا . وأعرف أيضاً مَن هوى جارية فى فمها فَوَه[٣] . لطيف فلقد كان يتقذَّر كل فم صغيرويذُمه ويكرهه الكراهية الصحيحة . وما أصف عن منقوصى الحظُوظ فى العلم والأدب لكن عن أوفر الناس قسطاً فى الإدراك ، وأحقهم باسم الفهم والدّراية .

وعنّى أخبرك أنّى أحببتُ فى صباى جاريةً لى شقراء الشعر فما استحسنتُ من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس أو على صورة الحسن نفسه . وإنى لأجد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ، لا تُؤاتينى نفسى على سواه ولا تحب غيره البتة ، وهذا العارض بعينه عَرض لأبى رضى الله عنه وعلى ذلك جرى إلى أن وافاه أجلُه .

وأما جماعة خلفاء بنى مروان — رحمهم الله — ولا سيّما ولدُ الناصر منهم ، فكلهم مجبولون على تفضيل الشقرة ، لا يختلف فى ذلك منهم مختلف . وقد رأيناهم ورأينا من رآهم من لَدُن دولة الناصر إلى الآن فما منهم إلا أشقر ، نزاعاً إلى أمهاتهم ، حتى صار ذلك فيهم خِلقة ، حاشَى سليمان الظافر رحمه الله ، فإنى رأيته أسود اللمّة واللحية .

وأما الناصر والحكم المُستنصر رضى الله عنهما فحدّثنى الوزير أبى رحمه الله وغيره أنهما كانا أشقرين أشهلين ، وكذلك هشام المؤيد ومحمد المهدى وعبد الرحمن المرتضى رحمهم الله ، فإنى قد رأيتهم مراراً ودخلت عليهم فرأيتهم شُقراً شُهلا ، وهكذا أولادهم وإخوتهم وجميع أقاربهم ، فلا أدرى أذلك استحسان مركّب

(١) العيب ، أو القصر .
(٢) الناعم الجميل .
(٣) إتساع .

فى جميعهم ، أم لرواية كانت عند أسلافهم ذلك فجروا عليها . وهذا ظاهر فى شعر عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن أمير المؤمنين الناصر وهو المعروف بالطليق ، وكان أشعر أهل الأندلس فى زمانهم ، وأكثر تغزله بالشُّقر ، وقد رأيته وجالسته .

وليس العجب فيمن أحبّ قبيحاً ثم لم يَصحبه ذلك فى سواه ، فقد وقع من ذلك ولا فيمن طُبع مذ كان على تفضيل الأدنى ، ولكن فيمن كان ينظر بعين الحقيقة ، ثم غَلَب عليه هوًى عارضٌ بعد طول بقائه فى الجماعة فأحاله عما عهدْته نفُسه حوالةً صارت له طبعاً ، وذهب طبعه الأول وهو يعرف فضل ما كان عليه أوّلا . فإذا رجع إلى نفسه وجدها تأبى إلا الأدنى ، فاعجب لهذا التغلب الشديد والتسلط العظيم ، وهو أصدق المحبة حقاً ، لا من يتحلّى بِشِيَم قوم ليس منهم ، ويدّعى غريزة لا تقبله فيزعم أنه يتخيّر من يحب ، أما لو شغل الحب بصيرته ، وأطاح فكرته ، وأجحف بتمييزه ، لحال بينه وبين التخيّل والارتياد ، وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

منهم فتًى كان فى مَحبوبه وقَص ... كأنما الغَيد فى عَيْنيه جنّان
وكان منبسطاً فى فَضل خِبْرته ... بحُجة حقّها فى القول تِبْيان
إنّ المها وبها الأمثال سائرةٌ ... لا يُنكر الحسن فيه الدهرُ إنسان
وُقْصٌ فليس بها عَنقاء واحدةٌ ... وهل تزان بطول الجيد بُعْران[1]
وآخَر كان فى مَحبوبه فَوَهٌ ... يقول حَسْبىَ فى الأفْواهِ غزْلان
وثالثٌ كان فى محبوبه قِصر ... يقول إنّ ذواتِ الطُّول غيلان

وأقول أيضاً :

---

(١) البعران : الإبل .

يَعيبونها عِندى بشُقرة شَعرها ... فقلت لهم هذا الذى زانها عِندى
يعيبون لون النَّور والتِّبر ضِلّةً ... لرأيٍ جَهول فى الغِواية ممتدّ
وهل عاب لونَ النَّرجس الغَضّ عائبٌ ... ولونَ النجوم الزاهرات على البُعد
وأبعدُ خَلْق الله من كُل حكمة ... مُفضِّل جِرْمٍ فاحم اللون مُسودّ
به وُصفت ألوان أهــــل جهنَّم ... ولِبْسة باكٍ مُثْكل الأهل مُحتدّ
ومُذ لاحت الرَّايات[1] سُودا تيقَّنت ... نفوسُ الورى أن لاسبيلَ إلى الرُّشد

باب التعريض بالقول

ولا بُد لكل مَطلوب من مدخل إليه ، وسبب يُتوصَّل به نحوه ، فلم ينفرد بالاختراع دون واسطة إلا العليمُ الأول جلّ ثناؤه . فأول مايَستعمل طُلاَّب الوصل وأهل المحبة فى كشف ما يجدونه إلى أحبتهم التعريضُ بالقول ، إما بإنشاد شعر ، أو بإرسال مُثَل ، أو تعمية بيت ، أو طرح لغز ، أو تسليط كلام .

والناس يختلفون فى ذلك على قدر إدراكهم ، وعلى حسب مايرونه من أحبتهم من نفار أو أنس أو فطنة أو بلادة . وإنى لأعرف من ابتدأ كشف محبّته إلى من كان يُحب بأبيات قلتُها . فهذا وشبهه يَبتدىء به الطالب للمودة ، فإن رأى أنسا وتسهيلاً زاد ، وإن يُعاين شيئاً من هذه الأمور فى حين إنشاده لشىء مما ذكرنا ، أو إيراده لبعض المعانى التى حدّدنا ، فانتظاره الجواب ، إما بلفظ أو بهيئة الوجه والحركات ، لموقفٌ بين الرجاء واليأس هائل ، وإن كان حيناً قصيراً ، ولكنه إشراف على بلوغ الأمل أو انقطاعه .

ومن التعريض بالقول : جنسٌ ثانٍ ، ولا يكون إلا بعد الاتفاق ومعرفة المحبّة من المحبوب ، فحينئذ يقع التشكى وعقدُ المواعيد والتعريض وإحكام المودات بالتعريض ، وبكلام يظهر لسامعه منه معنى غيرُ مايذهبان إليه ، فيجيبُ السامعُ عنه بجواب غير مايتأدّى إلى المقصود بالكلام ، على حسب مايتأدى إلى سمعه ويسبق إلى وهمه ، وقد فهم كلٌّ واحد منهما عن صاحبه وأجابه بما لا يفهمه

(١) وهى رايات بنى العباس (وكانت سوداء) حين قيامهم لإسقاط دولة الأمويين .

غيرُهما ، إلاّ من أيد بحسّ نافذ ، وأعين بذكاء ، وأمدّ بتجربة ، ولا سيما إن أحس من معانيهما بشىء . وقلّما يغيب عن المتوسّم المُجيد ، فهنالك لا خفاء عليه فيما يريدان .

وأنا أعرف فتى وجارية كانا يتحابان ، فأرادها فى بعض وصْلها على بعض مالاَ يجمل . فقالت : والله لأشكونَّك فى الملأ علانيةً ولأفضحنك فضيحة مستورة . فلما كان بعد أيام حضرت الجاريةُ مجلس بعض أكابر المُلوك وأركان الدولة وأجلّ رجال الخلافة ، وفيه ممن يُتوقّى أمره من النساء والخدم عددٌ كثير ، وفى جملة الحاضرين ذلك الفتى ، لأنه كان بسبب من الرئيس ، وفى المجلس مغنيات غيرها . فلما انتهى الغناء إليها سوَّت عودها واندفعت تغنى بأبيات قديمة ، وهى :

غَزال قد حَكَى بدرَ التّمام ... كشمس قد تجلَّت من غَمام
سَبى قلبى بألحاظ مِراضٍ ... وقدِّ الغُصن فى حُسن القَوام
خَضعتُ خُضوع صَبٍ مُستكين ... له وذَلَلْت ذِلّة مُستهام
فَصِلْنى يافديتُك فى حَلال ... فما أهوى وصالا فى حَرام

وعلمت أنا هذا الأمر فقلت :

عِتابٌ واقع وشَكاةُ ظُلْم ... أتتْ من ظالم حَكَمٍ وخَصْم
تَشكَّت ما بها لم يَدْر خَلْق ... سِوَى المشكوِّ ما كانت تُسمِّى

باب الاشارة بالعين

ثم يتلو التعريضَ بالقبول ، إذا وقع القبولُ والموافقة ، الإشارةُ بلحظ العين. وإنه ليقوم فى هذا المعنى المقامَ المحمود ، ويبلغ المبلغ العجيب ، ويُقطَع به ويُتواصل ، ويُوعد ويهدد ، ويُنتهر ويبسط ، ويُؤمر وينهى ، وتُضرب به الوعود ، وَينبّه على الرقيب ، ويضحك ويحزن ، ويسأل ويجاب ، ويمنع ويعطى .

ولكل واحد من هذه المعانى ضرب من هيئة اللحظ لا يُوقف على تحديده إلا بالرؤية ، ولا يُمكن تصويرُه ولا وصفُه إلا بالأقل منه . وأنا واصف ما تيسر من هذه المعانى :

فالإشارة بمؤخر العين الواحدة نهى عن الأمر ، وتفتيرها إعلام بالقبول ، وإدامة نظرها دليل على التوجع والأسف ، وكسر نظرها آية الفرح .

والإشارة إلى اطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقة إلى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيه على مُشَار إليه .

والإشارة الخفيّة بمؤخر العينين كلتاهما سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين إلى المُوق بسرعة شاهدُ المنع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام . وسائر ذلك لا يدرك إلا بالمشاهدة .

واعلم أن العين تنوب عن الرُسل ، ويدرك بها المراد . والحواس الأربع أبواب إلى القلب ومنافذ نحو النفس ، والعين أبلغها وأصحها دلالة وأوعاها عملاً ، وهى رائد النفس الصادق ودليلها الهادى ومرآتها المجلوّة التى بها تَقف على الحقائق وتميّز الصفات وتفهم المحسوسات . وقد قيل : ليس المُخبر كالمعاين . وقد ذكر ذلك افليمون صاحبُ الفِراسة وجعلها مُعتمده فى الحكم . وبحسبك من قوة إدراك العين أنها إذا لاقى شعاعُها شعاعاً مجلوًّا صافياً ، إما حديداً مفصولا أو زجاجاً أو ماء أو بعض الحجارة الصافية أو سائر الأشياء المجلوة البراقة ذوات الرفيف والبصيص واللمعان ، يتصل أقصى حدوده بجسم كثيف ساتر منّاع كدر ، انعكس شعاعُها فأدرك الناظرُ نفسَه ومازها عياناً . وهو الذى تَرى فى المرآة ، فأنت حينئذ كالناظر إليك بعين غيرك . ودليل عيانى على هذا أنك تأخذ مرآتين كبيرتين فتُمسك إحداهما بيمينك خلف رأسك والثانية بيسارك قُبالة وجهك ثم تزويها قليلا حتى يلتقيان بالمقابلة ، فإنك ترى قفاك وكل ما وراءك . وذلك لانعكاس ضوء العين إلى ضوء المرآة التى خلفك

إذ لم تجد منفذاً فى التى بين يديك ، ولما لم يجد وراء هذه الثانية منفذاً انصرف إلى ما قابله من الجسم . وإن كان صالح غلام أبى إسحاق النظّام خالف فى الإدراك فهو قول ساقط لم يوافقه عليه أحد . ولو لم يكن من فضل العين إلا أنّ جوهرها أرفع الجواهر وأعلاها مكاناً ، لأنها نورية لا تُدرَك الألوان بسواها ، ولا شىء أبعد مرمى ولا أنأى غاية منها ، لأنها تُدرِك بها أجرام الكواكب التى فى الأفلاك البعيدة ، وترى بها السماء على شدة ارتفاعها وبُعدها ، وليس ذلك إلا لاتصالها فى طبع خِلقتها بهذه المرآة ، فهى تدركها وتصل إليها بالنظر ، لا على قطع الأماكن والحلول فى المواضع وتنقل الحركات ، وليس هذا الشىء من الحواس مثل الذوق واللمس لا يُدركان إلا بالمجاورة ، والسمع والشم لا يدركان إلا من قريب . ودليل على ما ذكرناه من النظر أنك ترى المُصوِّت قبل سماع الصوت ، وإن تعمّدت إدراكهما معاً . وإن كان إدراكهما واحداً لما تقدّمت العينُ السمعَ .

باب المراسلة

ثم يتلو ذلك إذا امتزجا المراسلةُ بالكتب ، وللكتب آيات . ولقد رأيتُ أهل هذا الشأن يُبادرون لقطع الكُتُب وبحلّها فى الماء وبمحو أثرها ، فرُبَّ فضيحة كانت بسبب كتاب . وفى ذلك أقول :

عزيزٌ علىّ اليومَ قطعُ كتابكم ولكنه لم يُلفَ للودِّ قاطعُ
فآثرتُ أن يبقى ودادٌ وينمحى مِدادٌ فإن الفرْع للأصل تابعُ
فكم من كِتاب فيه مِيتةُ ربِّه ولم يَدْرِه إذ نمّقته الأصابعُ

وينبغى أن يكون شكل الكتاب ألطفَ الأشكال ، وجنسه أملحَ الأجناس . ولعمرى إن الكتاب لَلِسانٌ فى بعض الأحايين ، إما لحصَرٍ فى الإنسان وإما لحياء وإما لهيبة . نعم ، حتى إنّ لوصول الكتاب إلى المحبوب وعِلم المُحب أنه

فقد وقع بيده وزرآه للذة يجدها الحب عجيبة تقوم مقام الرؤية ، وإن لرد الجواب والنظر إليه سروراً يعدل اللقاء ، ولهذا ما ترى العاشق يضع الكتاب على عينيه وقلبه ويعانقه . ولعهدى ببعض أهل المحبة ، ممن كان يدرى ما يقول ويحسن الوصف ويعبر عما فى ضميره بلسانه عبارةً جيدة ويجيد النظر ويدقق فى الحقائق ، لا يدع المراسلة وهو ممكن الوصل قريبُ الدار أتى المزار ، ويحكى أنها وجوه اللذة . ولقد أُخبرت عن بعض السُّقَّاط الوُضعاء أنه كان يضع كتاب محبوبه على إحليله . وأن هذا النوع من الاغتلام قبيحٌ وضرب من الشَّبق فاحش .

وأما سَقْى الحِبْر بالدَّمع فأعرف من كان يفعل ذلك ويقارضه محبوبه ، يسقى الحبر بالرِّيق . وفى ذلك أقول :

جوابٌ أتانى عن كتابٍ بعثتُهُ ... فسكَّن مُهْتاجاً وهَيَّج ساكناَ
سقيتُ بدَمع العين لمّا كتبتُه ... فِعالَ مُحبٍّ ليس فى الوُد خائناَ
فما زال ماءُ العين يَمْحو سُطُورَه ... فيا ماءَ عينى قد محوتَ المحاسناَ
غَدا بدمُوعى أول الخط بيننا ... وأضحى بدَمعى آخرُ الخط بائناَ

خبر :

ولقد رأيتُ كتاب المُحب إلى محبوبه ، وقد قطع فى يده بسكّين له فسال الدم واستمد منه وكتب به الكتاب أجمع . ولقد رأيت الكتاب بعد جفوفه فما شككت أنه بِصِبْغ اللكّ .

باب السفير

ويقع فى الحب بعد هذا ، بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس ، إدخال السفير ، ويجب تخيُّره وارتياده واستجادته واستفراهه ، فهو دليل عقل المرء ، وبيده حياته وموته ، وستره وفضيحته بعد الله تعالى . فينبغى أن يكون الرسول ذا

هيئة ، حاذقاً يكتفى بالإشارة ، ويقرطس عن الغائب ، ويُحسن من ذات نفسه ويَضع من عَقله ما أغفله باعثُه ، ويؤدى إلى الذى أرسله كل ما يشاهد على وجهه كأنما كان للأسرار حافظاً ، وللعهد وفياً ، قنوعاً ناصحاً . ومن تعدّى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقصه منها . وفى ذلك أقول شعرا ، منه :

رسولك سيفٌ فى يَمينك فاستجِدْ حُساماً ولا تضرب به قبل صَقْلِهِ
فمن يك ذا سيفٍ كَهام فَضُرّه يعود على المعنىّ منه بجَهْلِهِ

وأكثر ما يستعمل المحبُّون فى إرسالهم إلى من يحبونه ، إما خاملا لا يُؤْبه له ولا يُهتدى للتحفظ منه ، لصباه أو لهيئة رثّة أو بداذة فى طلعته .

وإما جليلاً لا تلحقه الظِّنن لنُسك يظهره أو لسنٍّ عالية قد بلغها . وما أكثر هذا فى النساء ولاسيما ذوات العكاكيز والتّسابيح والثّوبين الأحمرين . وإنى لأذكر بقُرطبةَ التحذيرَ للنساء المُحدثات من هذه الصفات حيثما رأيتها .

أو ذوات صناعة يقرّب بها من الأشخاص . فمن النساء كالطبيبة والحجّامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمُعلمة والمُستخفة والصنّاع فى المغزل والنسيج ، وما أشبه ذلك .

أو ذا قرابة من المرسَل إليه لا يشحّ بها عليه . فكم مَنيع سُهّل بهذه الأوصاف . وعسير يُسر ، وبعيد قُرب . وجَموح أنس ، وكم داهية دهت الحُجب المصونة ، والأستار الكثيفة ، والمقاصير المحروسة ، والسدد المضبوطة ، لأرباب هذه النعوت . ولولا أن أنبه عليها لذكرتها ، ولكن لقطع النظر فيها وقلة الثقة بكل واحد . والسعيدُ من وُعظ بغيره . وبالضد تتميز الأشياء . أسبل الله علينا وعلى جميع المسلمين ستره ، ولا أزال عن الجميع ظل العافية .

غير : وإني لأعرف من كانت الرسول بينهما حمامة مؤدبة، ويعقد الكتاب في جناحها . وفي ذلك أقول قطعة ، منها :

تخيَّرها نوحٌ فما خابَ ظنُّه لديها وجاءت نحوَه بالبشائرِ
سأُودِعها كُتْبِي إليك فهاكها رسائلَ تُهدَى في قوادمِ طائرِ

باب طي السر

ومن بعض صفاتِ الحب الكتمانُ باللسان ، وجحود المحب إن سئل ، والتصنّع بإظهار الصبر ، وأن يُرى أنه عزهاة خلي . ويأبى السر الدقيق ، ونارُ الكلف المتأججة في الضلوع ، إلا ظهوراً في الحركاتِ والعينِ، ودبيباً كدبيب النار في الفحم والماء في يبيس المدر . وقد يمكن التمويه في أول الأمر على غيرِ ذي الحس اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال . وربما يكون السبب في الكتمان تَصاونُ المُحب على أن يَسِم نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة ، فيفر منها ويتفادى ، وما هذا وجه التصحيح، فبحسب المرء المُسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل التي يأتيها باختياره ويحاسب عليها يوم القيامة. وأما استحسان الحسن وتمكن الحب فطبع لا يؤمر به ولا يُنهى عنه ، إذ القلوب بيد مُقلبها ، ولا يلزمه غيرُ المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب، وأن يعتقد الصحيح باليقين . وأما المحبة فخِلقة ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارِحه المكتسبة . وفي ذلك أقول :

يلوم رجالٌ فيك لم يَعرفوا الهوَى وسيَّان عندي فيك لاحٍ وساكتُ
يقولون جانبتَ التَّصاون جُملةً وأنت عليهم بالشريعة قانِتُ
فقلتُ لهم هذا الرِّياءُ بعينه صُراحاً وزيّ المرائين ماقِتُ
متى جاء تحريم الهوى عند محمدٍ وهل مَنْعه في محكم الذِّكر ثابِتُ

إذا لم أوقع محرماً أتَّقى به ... مجيئي يوم البعث والوجه باهتُ
فلستُ أبالى فى الهوى قولَ لائم ... سواءٌ لعمرى جاهرٌ أو مُخافتُ
وهل يلزم الإنسان إلى اختيارُه ... وهل بخبايا اللفظ يُؤخذ صامتُ

خبر: وإنى لأعرف بعضَ من امتُحن بشىء من هذا فسكن الوجدُ بين جوانحه ، فرام جَحْده إلى أن غَلَظ الأمر ، وعرف ذلك فى شمائله من تعرَّض للمعرفة ومن لم يتعرض . وكان مَن عَرَض له بشىء نجهه[1] وقبَّحه إلى أن كان مَن أراد الحُظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقه فى إنكاره وتكذيبَ من ظن به غير ذلك ، فسر بهذا . ولعهدى به يوماً قاعداً ومعه بعضُ من كان يَعرض له بما فى ضميره ، وهو ينتفى غاية الانتفاء ، إذ اجتاز بهما الشخص الذى كان يُتَّهم بعلاقته ، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى ، واُصفر لونه وتفاوتت معانى كلامه بعد حُسن تثقيف ، فقطع كلامَه المُتكلم معه . فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره . فقيل له : ماعدا عما بدا . فقال : هو ماتظنون ، عذر من عذر ، وعذل من عذل . فى ذلك أقول شعراً ، منه :

ماعاش إلا لأن الموتَ يرحمه ... مما يرى من تَباريح الضَّنى فيه
وأنا أقول : دُموع الصبّ تَنْسفكُ ... وسِتْر الصّب ينْهتكُ
كأنَّ القلبَ إذ يبدو ... قطاة ضَمَّها شَرَكُ
فيا أصحابنا قولُوا ... فإن الرأى مُشتركُ
إلى كم ذا أكاتمــــه ... وما لى عنه مترَّكُ

وهذا إنما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان ، والتصاون لطبع المُحب

---

(١) استقبله استقبالا سيئا .

وغلبته ، فيكون صاحبه مُتحيّراً بين نارين مُحرقتين . وربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب على محبوبه ، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع . وفي ذلك أقول :

درى الناس أني فتًى عاشقٌ	كئيبٌ مُعنًّى ولكن بمَنْ
إذا عاينوا حالتي أيقنوا	وإنْ فتَّشُوا رجعوا في الظَّنَنْ
كخطٍّ يُرى رَسْمه ظاهراً	وإن طلبوا شرحَه لم يُبِنْ
كصوت حَمام على أيكة	يرجِّع بالصوت في كل فَنّْ
تلذّ بفحْواه أسماعُنا	ومعناه مُستعجم لم يَبِنْ
يقولون بالله سَمِّ الذي	نَفَى حُبُّه عنك طيب الوَسَنْ
وهيهات دون الذي حاولوا	ذهاب العُقول وخَوضُ الفِتَنْ
فهم أبداً في اختلاج الشكوك	بظنٍّ كقطْع وقَطع كظَنْ

وفي كتمان السر أقول قطعة ، منها :

للسرِّ عندِي مكانٌ لو يحلّ به	حيٌّ إذا لا اهتدى ريب المَنُون له
أميته وحياة السر ميتته	كما سُرور المُعنَّى في الهوى الوَله

وربما كان سبب الكِتمان توقِّي المحب على نفسه من إظهار سره ، لجلالة قدر المحبوب .

خبر : ولقد قال بعضُ الشعراء بقُرطبة شعراً تغزل فيه بصُبح أم المؤيَّد رحمه الله . فغنَّت به جاريةٌ أُدخلت على المنصور محمد بن أبي عامر ليبتاعَها ، فأمر بقتلها .

خبر : وعلى مثل هذا قُتل أحمد بن مُغيث . واستئصال آل مُغيث والتَّسجيل عليهم ألاَّ يُستخدَم بواحدٍ منهم أبداً حتى كان سبباً لهلاكهم وانقراض بيتهم .

فلم يبق منهم إلا الشريد الضال . وكان سببُ ذلك تغزُّله بإحدى بنات الخلفاء. ومثل هذا كثير .

ويحكى عن الحسن بن هانىء أنه كان مغرماً بحب محمد بن هارون المعروف بابن زُبيدة . وأحسَّ منه ببعض ذلك فانتهره ، على إدامة النظر إليه . فذُكر عنه أنه قال: إنه كان لا يقدر أن يديم النظر إليه إلا مع غلبة السُّكر على محمد . وربما كان سبب الكتمان ألا يَنْفِر المحبوب أو يُنْفر به . فإنى أدرى مَن كان محبوبه له سكناً وجليساً ، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلَّت نجومها . وهذا ضرب من السياسة ، ولقد كان يبلغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية ، فما هو إلا أن باح إليه بما يجد فصار لا يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالَّة الحب وتمنع الثقة بملك الفؤاد ، وذهب ذلك الانبساط ووقع التصنّع والتَّجنى ، فكان أخاً فصار عبداً ، ونظيراً فعاد أسيراً ، ولو زاد فى بَوحه شيئاً إلى أن يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه إلا فى الطيف ، ولا نقطع القليل والكثير ، ولعاد ذلك عليه بالضرر .

وربما كان من أسباب الكتمان الحياء الغالب على الإنسان . وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى المحب من محبوبه انحرافاً وصدًّا ويكون ذا نفس أبيّة ، فيستتر بما يجد لئلا يشمت به عدو ، أو يريهم ومَن يُحب هوان ذلك عليه .

باب الإذاعة

وقد تعرض فى الحب الإذاعة ، وهو من منكر ما يحدث من أعراضه ، ولها أسباب ، منها :

أن يريد صاحب هذا الفعل أن يتزيا بزىّ المحبين ويدخل فى عدادهم ، وهذه خلابة[1] لا ترضى ، وتخليج[2] بغيض ، ودعوى فى الحب زائفة .

وربما كان من أسباب الكشف غلبة الحب وتسوّر الجهر على الحياء . فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عدلا . وهذا من أبعد غايات العشق وأقوى تحكمه على العقل ، حتى يمثل الحسن فى تمثال القبيح ، والقبيح فى هيئة الحسن. وهناك يرى الخير شرًّا ، والشر خيرا . وكم من مصون الستر مسبل القناع مسدول الغطاء قد كشف الحبُّ ستره ، وأباح حريمه ، وأهمل حماه . فصار بعد الصيانة علماً ، وبعد السكون مثلا . وأحبُّ شىء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره . ولطالت استعاذته منه . فسَهُل ما كان وعراً ، وهان ما كان عزيزاً ، ولان ما كان شديداً .

ولعهدى بفتًى من سَرَوات الرجال وعِلْية إخوانى قد دُهى بمحبّة جارية مقصورة هام بها وقطعه حُبُّها عن كثير من مصالحه ، وظهرت آيات هواه لكل ذى بصر ، إلى أن كانت هى تعذله على ما ظهر منه مما يتوده إليه هواه .

خبر : وحدَّثنى موسى بن عاصم بن عمرو قال : كنت بين يدى أبى الفتح والدى رحمه الله وقد أمرنى بكتاب أكتبه . إذ لمحتْ عينىّ جاريةً كنت أكلَف بها ، فلم أملك نفسى ورميتُ الكتاب عن يدى وبادرتُ نحوها . وبُهت

---

(١) خداع. (٢) اضطراب وتمثيل .

أبى وظن أنه عرض لى عارض . ثم راجعنى عقلى فمسحتُ وجهى ثم عُدت واعتذرت بأنه غَلبنى الرُّعاف .

واعلم أن هذا داعيةُ نِفار المحبوب ، وفساد فى التدبير ، وضعف فى السياسة. وما شىء من الأشياء إلا وللمأخذ فيه سُنة وطريقة ، متى تعدّاها الطالب ، أو خَرِق فى سلوكها انعكس عمله عليه ، وكان كَدّه عناء ، وتعبه هباء ، وبحثه وباء . وكلما زاد عن وجه السِّيرة انحرافاً وفى تجنّبها إغراقاً وفى غير الطريق إيغالا ازداد عن بلوغ مراده بعداً . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

ولا تَسَعْ فى الأمر الجسيم تهازُءا ولا تَسْع جَهراً فى اليَسير تُريده
وقابلْ أفانين الزَّمان متى يَرِد عليك فإنّ الدهر جَمّ ورُوده
فأشكالُها من حُسن سَعْيك يَكفك اليسير بغير والشريد شريده
ألم تُبصِر المِصْباح أولَ وَقْده وإشعاله بالنَّفْخ يُطْفا وُقوده
وإن يَتَصرَّم لَفحه ولَهيبه فنفخُك يُذْكيه وتَبْدو مُدوده

خبر :

وإنى لأعرف من أهل قُرطبة من أبناء الكتاب وجِلَّة الخَدَمَة من اسمه أحمد بن فَتْح ، كنت أعهده كثيرَ التصاون ، من بُغاة العلم وطلاب الأدب ، يبز أصحابه فى الانقباض، ويفُوتهم فى الدَّعة ،لا ينظر إلا فى حَلْقة فضل،ولا يُرى إلا فى محفل مرضًّى ، محمود المذاهب ، جميل الطريقة ، بائناً بنفسه ، ذاهباً بها. ثم أبعدت الأقدارُ دارى من داره ، فأول خَبر طرأ علىّ بعد نزولى شاطبة أنه خلع عذاره فى حُب فتًى من أبناء الفتّانين يسمى إبراهيم بن أحمد أعرفه ، لا تستأهل صفاته محبة من بيتُه خير وتقدّم ؛ وأموال عريضة ووفر تالد ، وصحّ عندى أنه كشف رأسه وأبدى وجهه ورَمى رَسَنَه وحَسر مُحَيَّاه وشمَّر عن ذراعيه وصمد صَمْد الشهوة ، فصار حَديثاً للسمّار ومُدافعاً بين نقلة الأخبار ،

وتُهودِىَ ذكْره فى الأقطار ، وجرت نقلته فى الأرض راحلةَ بالتعجّب ، ولم يحصل من ذلك إلا على كشف الغطاء ، وإذاعة السر، وشُنعة الحديث . وفتح الأحدوثة ، وشُرود محبوبه عنه جملة . والتّحذير عليه من رؤيته ألبتة ، وكان غنيًّا عن ذلك وبمَندوحة ومعزل رحب عنه . ولوطوى مكنون سرّه ، واخفى بليّات ضميره لاستدام لباس العافية ، ولمُ ينهج[١] بُرد الصيانة ، ولكان له فى لقاء من بلى به ومحادثته ومجالسته أمل من الآمال ، وتعلّل كاف ، وإنَّ حَبل العذر ليقطع به ، والحجّة عليه قائمة ، إلا أن يكون مُختلطاً فى تمييزه ، أو مصابا فى عقله بجليل مافدَحه . فربما آل ذلك لعذر صحيح ، وإما ان كانت بقية من عقل أو ثبتت مُسكة فهو ظالم فى تعرضه مايعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذى به .

هذا غير صفة أهل الحب ، وسيأتى هذا مفسراً فى باب الطاعة إن شاء الله تعالى .

ومن أسباب الكشف وجه ثالث

وهو عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط ، وذلك أن يرى المُحب من محبوبه غدراً أو مللاً أو كراهة ، فلا يجد طريقَ الانتصاف منه إلا بما ضرره عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار . وهذا أشدّ العار وأقبح الشنار وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف . وربما كان الكشف من حديث ينتشر وأقاويل تفشو ، توافق قلة مبالاة من المحب بذلك ، ورضى بظهورسره ، إما لإعجاب وإما لاستظهارعلى بعض مايؤمله . وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخوانى من أبناء القوّاد ، وقرأت فى بعض

---

(١) يبلى .

أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ويكشف حُبه ويجاهر ويعلن وينوّه بذكرهن ؛ ولا أدرى ما معنى هذا ، على أنه يذكر عنهن العفاف ، وأى عفاف مع امرأة أقصى مُناها وسرورها الشهرة فى هذا المعنى .

باب الطاعة

ومن عجيب ما يقع فى الحب طاعةُ المحب لمحبوبه ، وصرفُه طباعَه قسراً إلى طباع من يُحبه ، وربما يكون المرء شَرِسَ الخلق ، صعب الشكيمة ، جموح القياد ، ماضى العزيمة ، حمىّ الأنف ، أَبى الخسف ، فما هو إلا أن يتنسّم نَسيم الحب ، ويتورّط غمره ، ويعوم فى بحره ، فتعود الشراسة لِياناً ، والصعوبة سهلة ، والمضاء كلالة ، والحميةّ استسلاما . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

فهل للوصال إلينـــا مَعـاد وهل لتصاريف ذا الدّهر حَدّْ
فقد أصبح السيفُ عَبْدَ القَضيب وأضحى الغَزَال الأسيرُ أسَدْ

وأقول شعراً ، منه :

وإنى وإن تَعتِب لأهونُ هالك كذائبِ تُبْر[1] زلّ من يد جِهْبذ
على أن قتلِى فى هواكَ لذاذةٌ فيا عجباً من هالك متلذِّذ

ومنها :

ولو أبصرتْ أنوار وجهك فارسٌ لأغناهم عن هِرَمزان ومَوْبذِ

وربما كان المحبوب كارهاً لإظهار الشكوى متبرماً بسماع الوَجد، فترى المحب حينئذ يكتُم حزنه، ويكظم أسفه وينطوى على علّته . وإن الحبيب متجنٍ ، فعندها يقع الاعتذار عند كل ذنب والإقرار بالجريمة ، والمرء

---

(١) تبر ، بالضم : قطع من الذهب والفضة .

منها برىء ، تسليما لقوله وتركاً لمخالفته . وإنى لأعرف من دُهى بمثل هذا فما كان ينفكّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له ، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نقى الجلد .

وأقول شعراً إلى بعض إخوانى ، ويقرب مما نحن فيه وإن لم يكن منه :

وقد كنت تلقانى بوجه لقُربه تَدانٍ وللهجران عن قُربه سخطُ
وما تكره العَتْبَ اليسير سجيّتى على أنه قد عِيب فى الشَّعرَ الوَخْط[1]
فقد يُتعب الإنسانَ فى الفكر نفسَه وقد يَحْسُن الخيلانُ فى الوجه والنَّقْط
تزين إذا قلّت ويَفحُش أمرها إذا أفرطت يوماً وهل يُحمد الفرط

ومنـــــه :

أعِنْه فقد أضحى لفَرْط همومه يَبكى إذ القرطاس والحبر والخط

ولا يقولَّن قائل إن صبر المحب على ذلّة المحبوب دَناءة فى النفس فقد أخطأ ، وقد علمنا أنّ المحبوب ليس له كفواً ولا نظيرا فيُقارض بأذاه ، وليس سبّه وجفاه مما يعبر به الإنسان ويبقى ذكره على الأحقاب ، ولا يقع ذلك فى مجالس الخلفاء ، ولا فى مقاعد الرؤساء ، فيكون الصبر جارًّا للمذلة ، وضراعة قائدة للاستهانة ، فقد ترى الإنسان لا يكلف بأمته التى يملك رقّها ، ولا يحول حائل بينه وبين التعدّى عليها فكيف الانتصارُ منها . وسبل الامتعاض من السبب غير هذه ، إنما ذلك بين عِلْية الرجال الذين تحصل أنفاسهم وتتبع معانى كلامهم فتوجه لها الوجوه البعيدة ، لأنهم لا يُوقعونها سدى ولا يُلقونها هملا ، وأما المحبوب فصَعْدة ثابتة وقضيب مُنآد ، يجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى . وفى ذلك أقول :

ليس التذلّل فى الهوى يُستنكر فالحبّ فيــه يَخْضَع المُستكبر

---

(١) الشيب القليل .

لا تعجبوا من ذلّتى فى حالةٍ قد ذلّ فيها قبلىَ المُستبصر
ليس الحبيب مماثلا ومُكافياً فيكونَ صبرُك ذلةً إذ تَصبر
تُفاحة وقعت فآلَم وَقْعُها هل قَطْعُها منك انتصاراً يذكر

خبر : وحدّثنى أبو دلف الورّاق عن مَسلمة بن أحمد الفيلسوف المعروف بالمرجيطى أنه قال فى المسجد الذى بشرقىّ مقبرة قريش بقرطبة الموازى لدار الوزير ابن عمرو أحمد بن محمد جدير رحمه الله ؛ فى هذا المسجد كان مقدم ابن الأصفر مريضاً أيام حداثته لعشق بعجيب ، فتى الوزير أبى عمرو المذكور . وكان يترك الصلاة فى مسجد مسرور وبها كان سكناه ، ويقصد فى الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب ، حتى أخذه الحرس غير مامرّة فى الليل فى حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة ، وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ويقوم إليه فيُوجعه ضرباً ويلطم خدّيه وعينيه ، فيسر بذلك ويقول ؛ هذا والله أقصى أمنيتى والآن قرّت عينى ، وكان على هذا زماناً يماشيه .

قال أبو دلف : ولقد حدّثنا مُسلم بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجيب عندما كان يرى من وجاهة مقدّم بن الأصفر وعرض جاهه وعافيته ؛ فكانت حال مقدم بن الأصفر هذا قد جلّت جدا واختص بالمظفر بن أبى عامر اختصاصاً شديدا واتصل بوالدته وأهله وجرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات وتسهيل وجوه الخير غيرُ قليل ؛ مع تصرّفه فى كل ما يتصرف فيه أصحاب السلطان من العناية بالناس وغير ذلك .

خبر : وأشنع من هذا أنه كانت لسعيد بن مُنذر بن سعيد صاحب الصلاة فى جامع قرطبة أيام الحكم المستنصر بالله رحمه الله جاريةٌ يحبها حباً شديداً ؛

فعرض عليها أن يُعتقها ويتزوّجها . فقالت له ساخرة به ، وكان عظيم اللحية : إن لحيتك أستبشع عِظَمها فإن حذفت منها كان ما ترغبه . فأعمل الجلمين فيها حتى لَطُفت . ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها ، ثم خَطبها إلى نفسه فلم ترض به . وكان فى جملة من حضر أخوه حكم بنُ منذر فقال لمن حضر : آعرض عليها أنى أخطبها أنا ، ففعل فأجابت إليه . فتزوجها فى ذلك المجلس بعينه ورضى بهذا العار الفادح على ورعه ونُسكه وآجتهاده .

فأنا أدركت سعيداً هذا وقد قَتله البربر يوم دخولهم قرطبة عَنوة وآنتهابهم إياها ، وحكم المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم وأستاذهم ومتكلّمهم وناسكهم ، وهو مع ذلك شاعر طيب وفقيه . وكان أخوه عبد الملك بن مُنذر متهماً بهذا المذهب أيضاً . وولى خُطبة الرد أيام الحكم رضى الله عنه . وهو الذى صَلبه المنصور بن أبى عامر إذ آتهمه هو وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة أنهم يُبايعون سرًّا لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر رضى الله عنهم ، فقُتل عبد الرحمن وصُلب عبد الملك بن منذر وبدّد شمل جميع من آتهم . وكان أبوهم قاضى القضاةِ منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال أيضاً . وكان أخطب الناس وأعلمهم بكُل فن وأورعهم وأكثرهم هزلا ودُعابة . وحَكَم المذكور فى الحياة فى حين كتابتى إليك بهذه الرسالة قد كُف بصره وأسنّ جدا .

خبر : ومن عجيب طاعة المُحب لمحبوبه أنى أعرف مَن كان سهر الليالى الكثيرة ولقى الجهد الجاهِد فقطعتْ قلبَه ضروبُ الوَجد . ثم ظفر بِمن يُحب وليس به آمتناع ولا عنده دفع ، فحين رأى منه بعضَ الكراهة لما نَواه تركه وآنصرف عنه ، لا تعففّاً ولا تخوّفاً لكن توقّفاً عند مُوافقته رضاه . ولم يجد من نفسه مُعينا على إتيان ما لم يَرَ له إليه نشاطاً وهو يَجدما يجد . وإنى لأعرف من

فعل هذا الفعل ثم تندّم لعذر ظهر من المحبوب . فقلت فى ذلك :

غافِص الفُرصة واعلم أنها كمُضِيّ البرق تمْضى الفُرص
كم أمور أمكنت أُمهلها هى عندى إذ تولّت غُصص
بادر الكنز الذى ألفيتَه وانتهزْ صبراً كباز يقْنص

ولقد عرض مثلُ هذا بعينه لأبى المظفَّر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود صديقنا وأنشدته أبياتاً لى فطار بها كل مطار ، وأخذها منى فكانت هجيراه .

خبر : ولقد سألنى يوماً أبو عبد الله محمد بن كُليب من أهل القيروان أيامَ كونى بالمدينة ، وكان طويل اللسان جدًّا متقّفاً للسؤال فى كل فن ، فقال لى وقد جرى بعض ذكر الحب ومعانيه : إذا كره من أحب لقائى وتجنّب قربى فما أصنع ؟ قلت : أرى أن تسعى فى إدخال الرَّوْح على نفسك بلقائه وإن كره . فقال : لكنى لا أرى ذلك بل أوثر هواه على هواى ومُراده على مرادى ، وأصبر ولو كان فى ذلك الحْتف . فقلت له : إنى إنما أحببتهُ لنفسى ولالتذاذها بصورته فأنا أتبع قياسى وأقود أصلى وأقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها . فقال لى : هذا ظلم من القياس ، أشد من الموت ما تمنى له الموت . وأعز من النفس ما بذلت له النفس . فقلت له : إن بذلت نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألاّ تبذلها لما بذلتها ، وتركك لقاءه اختياراً منك أنت فيه ملوم لإضرارك بنفسك وإدخالك الحتف عليها . فقال لى : أنت رجل جدلىّ ولا جدل فى الحب يلتفت إليه . فقلت له : إذاً كان صاحبه مؤُوفا[1] فقال : وأىّ آفة أعظم من الحب .

---

(١) أى به آفة .

باب المخالفة

وربما أتبع المحب شهوته وركب رأسه فبلغ شفاءه من محبوبه ، وتعمّد مسرته منه على كل الوجوه سخط أو رضى . ومَن ساعده على الوقت هذا وثَبت جنانه وأُتيحت له الأقدار آستوفى لذته جميعها وذهب غمّه وانقطع همّه ورأى أمله وبلغ مرغوبه . وقد رأيتُ مَن هذه صفته . وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

إذا أنا بلّغت نفسى المُنى   مِن رَشأ مازال لى مُمْرِضا
فما أُبالى الكُره من طاعة   ولا أُبالى سَخطاً مِن رِضـــا
إذا وجدتُ الماء لابُدّ أن   أُطفى به مُشْعِل جَمْر الغضا

باب العاذل

وللحُب آفات ، فأوّلها العاذل . والعذّال أقسام ، فأصلهم صديقٌ قد أسقطتَ مؤونةَ التحفّظ بينك وبينه فَعَذْلُه أفضل من كثير المساعدات ؟وهى من الحظ والنهى ، وفى ذلك زاجر للنفس عجيب ، وتقوية لطيفة لها عرض ، وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة ، ولاسيما إن كان رفيقاً فى قوله حسن التوصل إلى مايوردمن المعانى بلفظه ، عالمًا بالأوقات التى يؤكّد فيها النهى،وبالأحيان التى يزيد فيها الأمر . والساعات التى يكون فيها وقتاً بين هذين ، على قدر مايرى من تسهيل العاشق وتوعّره ، وقَبوله وعصيانه .

ثم عاذل زاجر لا يُفيق أبداً من المَلامة ، وذلك خطب شديدوعبء ثقيل. وَوقع لى مثلُ هذا ، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يُشبهه ، وذلك أن أبا السريّ عمار بن زياد صديقَنا أكثر من عذلى على نحو نحوتُه وأعان

علىّ بعضُ من لامنى فى ذلك الوجه أيضاً ، وكنت أظن أنه سيكون معى مخطئاً كنتُ أو مصيباً . لوَكيد صداقتى وصحيح أخوتى به .

ولقد رأيت مَن اشتد وَجْده وعَظُم كلفه حتى كان العذل أحبَّ شىء إليه، لُيرى العاذلَ عصيانَه ويستلذّ مخالفته ، ويحصِّل مقاومته للائمة وغلبته إياه . كالملك الهازم لعدوه والمجادل الماهر الغالب لخصمه،ويُسَرَّ بما يقع منه فى ذلك وربما كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

أحبُّ شىء إلىّ اللومُ والعَذْل　　كى أسمعَ اسمَ الذى ذِكْراه لى أمَل
كأننى شاربٌ بالعَذْل صافيةً　　وباسم مولاى بعد الشُّرب أنتقل

باب المساعد من الاخوان

ومن الأسباب المتمنَّاة فى الُحْب أن يهب الله عزّ وجل للانسان صديقاً مُخلصاً ، لطيفَ القول ، بسيط الطَّول . حسنَ المأخذ . دقيق المنفذ . متمكنَ البيان . مُرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع العلم ، قليل المخالفة ، عظيم المساعفة، شديد الاحتمال صابراً على الإدلال،جم الموافقة،جميل المخالفة،مستوى المطابقة، محمود الخلائق ، مكفوف البوائق،محتوم المساعدة ، كارهاً للمباعدة، نبيل المدخل، مصروف الغوائل ، غامض المعانى ، عارفاً بالأمانى ، طيب الأخلاق ، سرىّ الاعراق ، مكتوم السر ، كثير البر ، صحيح الأمانة ، مأمون الخيانة ، كريم النفس ، نافذ الحس ، صحيح الحدس ، مضمون العون ، كامل الصون ، مشهور الوفاء ، ظاهر الغَناء ، ثابت القريحة ، مبذول النصيحة ،مستيقن الوداد ، سهل الأنقياد ، حسن الاعتقاد ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطباع ، رحب الذراع ، واسع الصدر ، متخلقاً بالصبر ، يألف الإمحاض ، ولا يعرف

الإعراض ، يستريح إليه ببلابله ، ويشاركه في خلوة فقره ، ويفاوضه في مكتوماته ، وإن فيه للمحب لأعظمَ الراحات ، وأين هذا ، فإن ظفرتْ به يداك فشُدَّها عليه شد الضنين ، وأمسك بهما إمساك البخيل ، وصُنه بطارفك وتالدك ، فمعه يكمل الأنس ، وتنجلى الأحزان ، ويقصر الزمان ، وتطيب الأحوال . ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلا ، ورأياً حسناً ، ولذلك اتخذ الملوك الوزراء والدخلاء كى يخففوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمورِ وطُوِّقوه من باهض[1] الأحمال . ولكى يستغنوا بآرائهم ويستمدوا بكفاياتهم . وإلا فليس فى قوة الطبيعة أن تقاوم كل ما يَرِد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها . ولقد كان بعض المحبين ، لعدمه هذه الصفة من الإخوان وقلّة ثقته منهم لما جرّبه من الناس وأنه لم يعدم مَن باح إليه بشىء من سرّه أحد وجهين إما إزرآء على رأيه وإما إذاعة لسره ، أقام الوُحدة مقام الأنس . وكان ينفرد فى المكان النازح عن الأنيس ، ويناجى الهوى ، ويكلم الأرض ، ويجد فى ذلك راحة كما يجد المريض فى التأوه والمحزون فى الزفير ؛ فإن الهموم إذا ترادفت فى القلب ضاق بها ، فإن لم يُنْضِ منها شىء باللّسان ، ولم يسترح إلى الشكوى لم يلبث أن يهلك غمّا ويموت أسفاً . وما رأيت الإسعاد أكثر منه فى النساء . فعندهن من المحافظة على هذا الشأن والتواصى بكتمانه والتواطؤ على طيّه إذا اطلعن عليه ماليس عند الرجال ، وما رأيت امرأة كشفت سرّ متحابين إلا وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة مرمية عن قوس واحدة . وإنه ليوجد عند العجائز فى هذا الشأن مالا يوجد عند الفتيات ، لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير ، وهذا لا يكون إلا فى النُّدرة . وأما العجائز فقد يَئِسن من أنفسهن فانصرف الإشفاق محضاً إلى غيرهن .

---

(١) ثقيلها ، وهو بالظاء أكثر .

خبر: وإنى لأعلم آمرأة مُوسرة ذات جوار وخَدَم ، فشاع على إحدى جواريها أنها تعشق فتىً من أهلها ويعشقها وأن بينهما معانى مكروهة ، وقيل لها : إن جاريتك فلانة تعرف ذلك وعندها جليّة أمرها . فأخذتها وكانت غليظة العقوبة فأذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يَصبر على مثله جُلداء الرجال ، رجاء أن تبوح لها بشىء مما ذُكر لها ، فلم تفعل البتة .

خبر: وإنى لأعلم آمرأة جليلة حافظةً لكتاب الله عزّ وجل ناسكة مقبلة على الخير ، وقد ظَفرت بكتاب لفتى إلى جارية كان يكلَف بها ، وكانت فى غير ملكها ، فعرّفته الأمر فرام الإنكار فلم يتهيأ له ذلك ، فقالت له : مالك ؟ ومن ذا عُصم ؟ فلا تُبال بهذا فوالله لا أطلعت على سرّكما أحداً أبداً ، ولو أمكنتنى أن أبتاعها لك من مالى ولو أحاط به كله لجعلتها لك فى مكان تصل إليها فيه ولا يَشعر بذلك أحد .

وإنك لترى المرأة الصالحة المُسنّة المُنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحبّ أعمالها إليها وأرجاها للقبول عندها سعيُها فى تزويج يتيمة ، وإعارة ثيابها وحَليها لعروس مُقلّة . وما أعلم علّة تمكن هذا الطبعَ من النساء إلا أنهن متفرّغات البال من كل شىء إلا من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه لاشغل لهن غيره ولا خُلقن لسواه . والرجال مُقتسمون فى كسب المال وصحبة السلطان وطَلب العلم وحياطة العِيال ومُكابدة الأسفار والصيد وضُروب الصناعات ومُباشرة الحروب ومُلاقاة الفِتَن وتحمّل المخاوف وعمارة الأرض ، وهذا كله مُتحيّف للفراغ ، صارف عن طريق البُطْل . وقرأت فى سير ملوك السودان أن الملك منهم يوكّل ثقةً له بنسائه يُلقى عليهن ضريبةً من غزل الصوف يشتغلن بها أبد الدهر ؛ لأنهم يقولون : إن المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال ، وتحنّ إلى النكاح . ولقد شاهدت

النساء وعلمتُ من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيرى ، لأنى رُبيت فى حجورهن، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرَهن . ولا جالستُ الرجال إلا وأنا فى حدّ الشباب وحين تفيّل وجهى . وهن علّمننى القرآن وروّيننى كثيراً من الأشعار ودرّبننى فى الخط ، ولم يكن وُكدى وإعمال ذهنى مذ أول فهمى وأنا فى سن الطفولة جدًّا إلا تعرّف أسبابهن، والبحث عن أخبارهن، وتحصيل ذلك. وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن ، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعتُ عليها ، وسوء ظن فى جهتهن فُطرتُ به فأشرفتُ من أسبابهن على غير قليل. وسيأتى ذلك مفسراً فى أبوابه إن شاء الله تعالى .

باب الرقيب

ومن آفات الُحب الرقيبُ ، وإنه لحُمّى باطنة ، وبرسام مُلحّ ، وفكر مُكِبّ . والرقباء أقسام ، فأولهم مُثْقِل بالجلوس غير متعمّد فى مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه ، وعزما على إظهار شىء من سرهما والبوح بوجدهما والانفراد بالحديث . ولقد يعرض المُحب من القلق بهذه الصفة مالا يعرض له مما هو أشد منها ، وهذا وإن كان يزول سريعاً فهو عائق حالَ دون المُراد وقَطع متوفر الرجاء .

خبر : ولقد شاهدت يوماً مُحبين فى مكان قد ظنّا أنهما انفردا فيه وتأهّبا للشكوى فاستحليا ماهما فيه من الخلوة ، ولم يكن الموضع حمًى ، فلم يلبثا أن طلع عليهما من كانا يستثقلانه ، فرأى فَمَدل إلىَّ وأطال الجلوس معى ، فلو رأيتَ الفتى المحب وقد تمازج الأسفُ البادى على وجهه مع الغضب لرأيت عجباً . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

يُطيل جُلوساً وهو أثقل جالس ... ويُبدى حديثاً لستُ أرضى فُنونه
شمام ورَضْوى واللُّكام وَيذْبل ... ولُبنان والصّمان والحرب دونه

ثم رقيب قد أحسَّ من أمرهما بطَرف ، وتوجّس من مذهبهما شيئاً ، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك ، فيُدمن الجلوس ، ويطيل القعود ، ويتخفى بالحركات ، ويرمُق الوُجوه ، ويحصِّل الأنفاس . وهذا أعدى من الحرب ، وإنى لأعرف مَن هَمَّ أن يُباطش رقيباً هذه صفته . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

مُواصل لا يُغبّ قَصداً ... أعْظم بهـــذا الوصال غمّا
صار وصِرْنا لفَرْط مالاَ ... يَزُول كالأسم والمُسمَّى

ثم رقيب على المحبوب ، فذلك لا حيلةَ فيه إلا بترضية . وإذا أرضى فذلك غاية اللذة ، وهذا الرقيب هو الذى ذكرته الشعراء فى أشعارها . ولقد شاهدتُ مَن تلطف فى استرضاء رقيب حتى صار الرقيبُ عليه رقيباً له ، ومتغافلاً فى وقت التغافل ، ودافعاً عنه وساعياً له . ففى ذلك أقول :

ورُب رقيب أرقبوه فلم يزل ... على سيدى عمداً ليُبعدنى عنه
فما زالت الألطاف تحكم أمره ... إلى أن غدا خوفى له آمناً منه
وكان حُساماً سُلَّ حتى يَهدُنى ... فعاد مُحبّا ما لنعمتِه كُنهْ

وأقول قطعة ، منها :

صار حياةً وكان سَهْم رَدًى ... وكان سمًّا فصار دِرْياقاً[1]

وإنى لأعرف مَن رقَّب على بعض من كان يُشفق عليه رقيباً وثِق به عند نفسه ، فكان أعظمَ الآفة عليه وأصلَ البلاء فيه .

---

(١) شتاء .

وأما إذا لم يكن فى الرقيب حيلة ولا وجد إلى ترضّيه سبيل فلا طمع إلا بالإشارة بالعين همساً وبالحاجب أحياناً والتعريض اللطيف بالقول ، وفى ذلك مُتعة وبلاغ إلى حين يَقنع به المُشتاق . وفى ذلك أقول شعراً أوله :

على سيّدى منى رقيبٌ محافظٌ　　وفىٌّ لمن والاه ليس بناكث

ومنه :

ويَقطع أسباب اللُّبانة فى الهوى　　ويَفعل فيها فِعْل بعض الحوارث
كأنّ له فى قَلبه ريبة تُرى　　وفى كُل عين مُخبر بالأحادث

ومنه :

على كُل من حولى رقيبان رتبا　　وقد خَصَّنى ذو العرش منهم بثالث

وأشنع ما يكون الرقيب إذا كان مما اُمتُحن بالعشق قديماً ودُهى به وطالت مدته فيه ثم عُرى عنه بعد إحكامه لمعانيه ، فكان راغباً فى صيانة من رقّب عليه . فتبارك الله أى رقبة تأتى منه ، وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته . وفى ذلك أقول :

رَقيب طالما عَرَف الغَراما　　وقاسَى الوَجْد وآمتنع المَناما
ولاقَى فى الهَوَى ألما أليما　　وكاد الحُب يُورده الحِماما
وأتقن حيلةَ الصَّبّ المُعَنّى　　ولم يَضع الإشارة والكلاما
وأعقبه التسلِّى بعد هذا　　وصار يرى الهوى عاراً وذاما
وصيّر دِيْن من أهوى رقيباً　　ليُبعد عنه صَبًّا مُستهاما
فأىّ بليّة صُبت علينا　　وأى مُصيبة حلّت لِماما

ومن طريف معانى الرقباء ، أنى أعرف محبين مذهبهما واحد فى حُب محبوب واحد بعينه ، فلعهدى بهما كُل واحد منهما رقيب على صاحبه . وفى ذلك أقول :

صَبَّان هَيْمانان فى واحِدٍ　　كلاهما عن خِدْنه مُنحرف
كالكلب فى الآرى[1] لا يعتلف　　ولا يُخلّى الغيْر أن يعتلف

باب الواشى

ومن آفات الْحُب الواشى ، وهو على ضربين . أحدهما واش يريد القَطع بين المتحابين فقط ، وإن هذا لأفترهما سوأة ، على أنه السم الذُّعاف والصاب المُمقر والحتف القاصد والبلاء الوارد . وربما لم يَنجع ترقيشه[2] . وأكثر ما يكون الواشى فإلى المحبوب ، وأما المحب فهيهات ، حال الجريض دون القريض . ومنع الحَرَب من الطرب ، شغله بما هو مانع له من استماع الواشى . وقد علم الوُشاة ذلك ، وإنما يقصدون إلى الخلىّ البال ، الصائل بحوزة الملك ، المتعقب عند أقل سبب .

وإن للوُشاة ضُروباً من التَّنقيل ، فمنها أن يذكر المحبوب عمن يُحب أنه غير كاتم للسر ، وهذا مكان صعب المُعاناة ، بطىء البُرء إلا أن يوافق معارضاً للمُحب فى محبته . وهذا أمر يوجب النِّفار ، فلا فرج للمحبوب إلا بأن تُساعده الأقدار بالأطلاع على بعض أسرار من يُحب ، بعد أن يكون المحبوب ذا عقل ، وله حظ من تمييز ، ثم يدعه والمُطاولة . فإذا تكذّب عنده نَقْل الواشى مع ما أظهر من الجفاء والتحفظ ولم يسمع لسره إذاعة علم أنه إنما زوّر له الباطل واضمحل ما قام فى نفسه . ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المُحبين مع بعض من كان يُحب ، وكان المحبوب شديدَ المراقبة عظيم الكتمان ، وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك فى وجهه وحدَث فى حُب لم يكن ، وركبتْه رحمة ، وأظلته فكرة ، ودهمته حيرة ، إلى أن ضاق صدره وباح بما نُقل إليه.

---

(١) الآرى : مربط الدواب .

(٢) الترقيش : تجميل الكلام وتحسينه .

فلو شاهدت مقام المحب فى اعتذاره لعلمت أن الهوى سلطان مُطاع ، وبناء مشدود الأواخى ، وسنان نافذ ، وكان اعتذاره بين الاُستسلام والاعتراف، والإنكار والتوبة والرمى بالمقاليد ، فبعد لأيٍ ماصلح الأمر بينهما .

وربما ذكر الواشى أن ما يُظهر المُحب من المحبة ليست بصحيحة ، وأن مذهبه فى ذلك شفاء نفسه وبلوغ وَطره . وهذا فصل وإن كان شديداً فى النقل فهو أيسر مُعاناة مما قبله ، فحالة المحب غير حالة المتلذّذ ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما . وقد وقع من هذا نُبذ كافية فى باب الطاعة . وربما نقل الواشى أن هوى العاشق مشترك وهذه النار المُحرقة والوَجع الفاشى فى الأعضاء ، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أن يكون المُحب فتًى حسنَ الوجه حُلو الحركات مرغوباً فيه مائلاً إلى اللذات دُنياوى الطبع ، والمحبوب امرأة جليلة القدر سرّية المنصب ، فأقرب الأشياء سَعْيها فى إهلاكه وتصدّيها لحتفه . فكم صريع على هذا السبب ، وكم مَن سُقى السم فقَطع أمعاءه لهذا الوجه . وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حدير ، والد أحمد المتنسك ، وموسى وعبد الرحمن المعروفين بابنى لبنى ، من قِبل قَطْر الندى جاريته . وفى ذلك أقول محذّراً لبعض إخوانى قطعة ، منها :

وهل يأمن النسوانَ غيرُ مغفَّل جَهول لأسباب الردَى مُتأرِّض[1]
وكم وارد حوضاً من الموت أسود ترشّفه من طيِّب الطعم أبيض

والثانى واشٍ يَسعى للقَطْع بين المُحبين لينفرد بالمحبوب ويستأثر به . وهذا أشد شىء وأقطعه وأجزم لاجتهاد الواشى واستفادة جُهده .

ومن الوشاة جِنس ثالث ، وهو واشٍ يَسعى بهما جميعاً ويكشف سرّهما، وهذا لا يُلتفت إليه إذا كان المُحب مساعداً . وفى ذلك أقول :

---

(١) متأرض : متعرض .

عجبتُ لواشٍ ظَلَّ يكشف أمرَنا وما بِسوَى أخبارنا بتنفّس
وماذا عليه من عَنائى ولَوْعتى أنا آكلُ الرّمان والوُلْدُ تَضرس

ولابد أن أُورد ما يُشبه ما نحن فيه ، وإن كان خارجاً منه ، وهو شىء فى بيان التنقيل والنمائم . فالـكلام يدعو بعضُه بعضاً كما شرطنا فى أول الرسالة ، وما فى جميع الناس شر من الوُشاة ، وهم النمامون ، وإن النميمة لطَبْع يدُل على نتن الأصل ورداءة الفَرع وفساد الطبع وخُبث النشأة ، ولابد لصاحبه من الـكذب .

والنميمة فرع من فروع الـكذب ونوع من أنواعه ، وكل نمّام كذّاب ، وما أحببت كذاباً قط ، وإنى لأسامح فى إخاء كل ذى عَيب وإن كان عظيما ، وأَكِل أمره إلى خالقه عزّ وجل ، وآخذ ماظَهر من أخلاقه ، حاشى مَن أعلمه يكذب فهو عندى ماحٍ لـكل محاسنه ، ومُعَفٍّ على جميع خِصاله ، ومُذهب كلَّ ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلا ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه . وكل ذامّ فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه ، حاشى الـكذب فلا سبيلَ إلى الرجعة عنه ولا إلى كتمانه حيث كان . وما رأيت قط ولا أخبرنى مَن رأى كذّاباً وترك الـكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت قط بقطيعة ذى معرفة إلا أن أطلع له على الـكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته والمتعرِّض لمتاركته ، وهى سِمة ما رأيتُها قط فى أحد إلا وهو مَزْنون فى نفسه إليه بشق ، مغموز عليه لعاهة سوء فى ذاته . نعوذ بالله من الخذلان .

وقد قال بعض الحـكماء : آخِ من شئت واجتنب ثلاثة : الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك ، والمَلُول فإنه أوثق ما تـكون به لطول الصحبة وتأكدها يخذلك ، والـكذّاب فإنه يجنى عليك آمنَ ما كنت فيه من حيثُ لا تشعر .

وحديث عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلم : حسن العهد من الإيمان .
وعنه عليه السلام . لا يُؤمِن الرجلُ بالإيمان كله حتى يدع الكذب في المُزاح .

حدثنا بهما أبو عمر أحمد بن محمد عن محمد بن عليّ بن رفاعة عن عليّ بن عبد العزيز عن أبي عُبيد القاسم بن سلاّم عن شيوخه ، والآخر منهما مُسند إلى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما .

والله عز وجل يقول : (ياأيها الذين آمنُوا لِمَ تَقُولون مالا تَفْعلون . كَبُرَ مقتاً عند الله أن تَقُولُوا مالا تَفْعلُون) .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سُئل هل يكون المؤمن بَخيلاً ؟ فقال : نعم . قيل: فهل يكون المُؤمن جَبانًا ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن كَذّاباً ؟ قال : لا .

حدّثناه أحمد بن محمد بن أحمد عن أحمد بن سَعيد عن عُبيد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك بن أنس عن صَفوان بن سليم .

وبهذا الإسناد ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لاخيرَ فى الكذب. فى حديث سُئل فيه .

وبهذا الإسناد عن مالك أنه بلغه عن ابن مسعود أنه كان يقول : لا يزال العَبد يكْذِب وينكت فى قلبه نُكتة سوداء حتى يَسودّ القلب فيُكتب عند الله من الكذّابين .

وبهذا الإسناد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : عليكم بالصِّدق فإنه يهدى إلى البر والبرّ يهدى إلى الجنة . وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار .

وروى أنه أتاه صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يارسول الله ،إنى أستتر بثلاث : الخمر والزنا والكذب . فمُرنى أيهما أترك . قال : اترك الكذب . فذهب منه . ثم أراد الزنا فنكر فقال : آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألنى : أزنيت ؟ فإن قلت : نعم ، حدنى ؛ وإن قلت : لا ، نقضت العهد ، فتركه ثم كذلك فى الخمر . فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله، إنى تركت الجميع .

فالكذب أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوء ، وجالبُ لمقت الله عز وجل .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : لا إيمان لمن لا أمانة له .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : كل الخلال يُطبع عليها المؤمنُ إلا الخيانة والكذب . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ثلاث من كنَّ فيه كان منافقا : من إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب وإذا أؤتمن خان .

وهل الكُفر إلا كذب على الله عز وجل ، والله الحق وهو يحب الحق وبالحق قامت السموات والأرض . وما رأيت أخزى من كذّاب ، وما هلكت الدول ولا هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولاهتكت الأستار بغير النمائم والكذب ، ولا أكدت البغضاء والإحَن المردية إلا بنمائم لايَحْظى صاحبها إلا بالمَقت والخزى والذل ، وأن ينظر منه الذى ينقل إليه فضلاً عن غيره بالعين التى ينظر بها من الكاب . والله عزّ وجل يقول : (وَيلٌ لكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة) . ويقول جل من قائل : (يا أيها الذين آمَنُوا إن جَاءكم فاسقٌ بنَبأٍ فتبيَّنوا) . فسمى النقل باسم الفسوق . ويقول : (ولاتُطع كُلَّ حَلاَّفٍ مَهين . همَّازٍ مَشَّاءٍ بنَميم . منَّاعٍ للخير معتد أثيم . عُتُل بعد ذلك زنيم) . والرسول عليه السلام يقول : لايدخل الجنة

قَتَّات[1] ويقول : وإياكم وقاتل الثلاثة . يعنى المنقِّل والمنقول إليه والمنقول عنه ، والأحنف يقول : الثقة لا يبلِّغ ، وحق لذى الوَجهين ألاّ يكون عند الله وجيهاً . وهو ما يَجعله من أخسّ الطبائع وأرذلها .

ولِى إلى أبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الثَّقفى الشاعر رحمه الله ، وقد نقل إليه رجل من إخوانى عنى كذباً على جهة الهزل ، وكان هذا الشاعر كثير الوهم فأغضبه وصدّقه ، وكلاهما كان لى صديقاً ، وما كان الناقل إليه من أهل هذه الصفة ولكنه كان كثير المُزاح جم الدعابة . فكتبت إلى أبى إسحاق ، وكان يقول بالخبر ، شعراً منه .

ولا تتبدّل قلةً قد سمعتها تقال ولا تدرى الصحيحَ بما تَدرى

كمن قد أراق الماء للآل إن بدا فلاقَى الرَّدى فى الأفيح المَهمه القَفْر

وكتبتُ إلى الذى نقل عنى ، شعراً منه :

ولا تَزْعُماً فى الجدّ مَزْحاً كُولج فَسادِ علاج النَّفس طىَّ صلاحها

ومَن كان نَقْلُ الزُّور أمضَى سِلاحه كمِثل الُحبارى[2] تتقى بسُلاحها

وكان لى صديق مرة ، وكثر التدخل بينى وبينه حتى كَدح ذلك فيه واستبان فى وجهه وفى لحظه ، وطُبعتُ على التأنى والتربص والمُسالمة ما أمكنت ، ووجدت بالانخفاض سبيلاً إلى معاودة المودة ، فكتبت إليه شعراً ، منه :

ولى فى الذى أُبدى مرامٍ لوأنها بدت ما ادّعى حُسن الرماية وَهْرز

وأقول مخاطباً لعُبيد الله بن يحيى الجزيرى الذى يحفظ لعمه الرسائل البليغة ؛ وكان طبْع الكذب قد استولى عليه واستحوذ على عقله وألفه وألفة النفس

(١) قتات : نمام .

(٢) الحبارى : نوع من الطيور أكبر من الدجاج الأهلى .

الأدل ، ويؤكِّد نقله وكذبه بالأيمان المؤكَّدة المُغلظة ، مجاهراً بها أكذب من السراب ، مستهتراً بالكذب مشغوفاً به ، لا يزال يحدث من قد صحّ عنده أنه لا يصدقه، فلا يزجره ذلك عن أن يحدث بالكذب :

بدا كلُّ ما كَتَّمته بين مُخبر ... وحالٍ أرتنى قُبح عَقدك بيِّنَا
وكم حالةٍ صارت بَياناً بحالة ... كما تُثبت الأحكامُ بالحَبَل الزنا

وفيه أقول قطعة منها :

أنمُّ من المرآة فى كل مادرى ... وأقْطع بين الناس من قَصَب الهِنْد
أظن المَنـــايا والزّمان تعلما ... تَحيُّله بالقطع بين ذَوى الوُدّ

وفيه أيضاً أقول من قصيدة طويلة :

وأكذب من حُسْن الظُّنون حديثُهُ ... وأقبح من دَيْنٍ وفقرٍ مُلازِمِ
وأمر ربٍّ العرش أضيعُ عندهُ ... وأهونُ من شكوَى إلى غير راحم
تجمَّع فيه كلّ خِزْى وفضْحة ... فلم يُبْقِ شتماً فى المقال لشاتم
وأثقلُ من عَذْل على غير قابِلِ ... وأبرد بَرداً من مدينة سالم
وأبغض من بين وهَجر ورِقْبة ... جُمعْن على حرَّان حَيْران هائم

وليس من نَبّه غافلاً ، أو نصح صديقاً، أو حفظ مسلماً، أو حكى عن فاسق، أو حدث عن عدو مالم يكن يكذب ولا يكذب ، ولا تعمد الضغائن ، متنقِّلا . وهل هلاك الضعفاء وسقط من لا عقل له إلا فى قلة المعرفة بالناصح من النمام ، وهما صفتان متقاربتان فى الظاهر متفاوتتان فى الباطن ، إحداهما داء والأخرى دواء . والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما ، لكن الناقل من كان تنقيله غيرَ مرضىّ فى الديانة ، ونوى به التشتيت بين الأولياء، والتضريب بين الإخوان، والتحريش والتوبيش والترقيش. فمن خاف إن سلك طريق النصيحة أن

يقع في طريق النميمة ، ولم يثق لنفاذ تمييزه ومضاء تقديره فيما يرده من أمور دنياه ومعاملة أهل زمانه ، فليجعل دينه دليلاً له وسراجاً يستضيء به ، فحيثما سلك به سلك، وحيثما أوقفه وقف . فشارع الشريعة وباعث الرسول عليه السلام، ومرتب الأوامر والنواهي أعلم بطريق الحق وأدرى بعواقب السلامة ومغبَّات النجاة من كل ناظر لنفسه بزعمه ، وباحث بقياسه في ظنه .

باب الوصل

ومن وجوه العِشق الوصل ، وهو حظ رفيع ، ومرتبة سريّة ، ودرجة عالية ، وسعد طالع . بل هو الحياة المجدّدة : والعيش السنيّ ، والسرور الدائم ورحمة من الله عظيمة . ولولا أن الدنيا دار مَمَرّ ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا إن وصل المحبوب هو الصفاء الذي لا كَدَر فيه ، والفَرح الذي لا شائبة ولا حزن معه ، وكمال الأماني ، ومنتهى الأراجي. ولقد جرّبت اللذات على تصرفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنوّ من السلطان ، ولا المال المُستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوبة بعد طول الغَيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا التروّح على المال ، من الموقع في النفس، ما للوصل؛ لاسيّما بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر حتى يتأجج عليه الجوى، ويتوقد لهيب الشوق ، وتتضرم نار الرجاء . وما إصحاء النبات بعد غِبّ[1] القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب الساريات في الزمان السجسج، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار ، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر ، بأحسَن من وصل حَبيب قد رُضيت أخلاقه ، وحُمدت

---

(١) مجيئه بعد انقطاع طويل .

غرائزه ، وتقابلت فى الحسن أوصافه . وإنه لمُعجز ألسنة البلغاء ، ومقصّر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش الألباب ، وتعزب الأفهام . وفى ذلك أقول :

وسائِل لِيَ عما لى من العُمر ... وقد رأى الشيبَ فى الفَوْدين والعُذُر

أجبتُه ساعةً لا شىء أحسبُه ... عُمْراً سواها بحُـكم العقل والنظر

فقـال لى كيف ذا بَيِّنْهُ لى فلقد ... أخبرتنى أشنع الأنباء والخبر

فقلتُ إن التى قلبى بهـا عَلِقٌ ... قَبَلتها قُبلة يوماً على خَطر

فما أعُدّ ولو طالت سِنِىّ سوى ... تلك السُّويعة بالتَّحقيق من عُمُرى

ومن لذيذ معانى الوصل المواعيد ، وإن للوعد المُنتظر مكاناً لطيفاً من شغاف القلب ، وهو ينقسم قسمين ، أحدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه . وفيه أقول قطعة ، منها :

أسامر البدرَ لمّا أبطأت وأرى ... فى نوره من سَنا إشراقها عَرَضا

فبِتّ مشترطاً والوُد مُختلطاً ... والوَصل مُنبسطاً والهجر مُنقبضا

والثانى انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه ، وإنّ لمبادى الوصل وأوائل الإسعاف لتولّجا على الفؤاد ليس لشىء من الأشياء . وإنى لأعرف من كان مُمتحنا بهوى فى بعض المنازل المُصاقبة فكان يصل متى شاء بلا مانع ولا سبيل إلى غير النظر والمُحادثة زماناً طويلا ، ليلا متى أحب ونهارًا ، إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة ، ومكّنته بإسعاد بعد يأسه ، لطول المدة . ولعهدى به قد كاد أن يختلط عقله فرحاً ، وما كاد يتلاحق كلامه سروراً ، فقلت فى ذلك :

برغبة لو إلى ربّى دعوتُ بها ... لـكان ذنبىَ عند الله مغفورا

ولو دعوتُ بها أُسْد الفلا لَغَدا | إضرارها عن جميع الناس مقصورا
فجاد باللثم لى من بعد مَنعته | فاهتاج من لوعتى ما كان مغمورا
كشارب الماء كى يُطْفِى الغليلَ به | فغُص فانصاع فى الأجداث مقبورا

وقلت :

جَرى الُحب منِّى مجرى النَّفس | وأعطيت عينى عِنان الفَرس
ولى ســيدٌ لم يَزل نافراً | ورُبّما جاد لى فى الخِلَس
فقبّلتــه طالباً راحة | فزاد أليلاً (١) بقلبى اليبس
وكان فؤادى كنبتٍ هَشِيمٍ | يَبيس رمَى فيــه رام قَبَس

ومنها :

ويا جَوهر الصِّين سُحْقاً فقد | غَنِيت بيــاقوتة الأندلس

خبر : وإنى لأعرف جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، وهو لا علم عنده ، وكثر غمّها وطال أسفها إلى أن ضَنِيتْ بحُبه ، وهو بغرارة الصِّبى لا يشعر ، ويَمنعها من إبداء أمرها إليه الحياء منه ، لأنها كانت بكراً بخاتَمها ، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدرى لعله لا يوافقه . فلما تمادى الأمر وكانا إلفين فى النشأة ، شكَت ذلك إلى امرأة جزلة الرأى كانت تثق بها لتولّيها تربيتها ، فقالت لها : عرِّضى له بالشعر . ففعلت المرةَ بعد المرة ، وهو لا يأبه فى كل هذا . ولقد كان لَقِناً ذكيّا لم يظن ذلك فيميل إلى تنتيش الكلام بوهمه ، إلى أن عِيل صبرُها وضاق صدرها ولم تُمسك نفسها فى قَعدة كانت لها معه فى بعض الليالى منفردَيْن ، ولقد كان يعلم الله عفيفاً مُتصاوناً بعيداً عن المعاصى ، فلما حان قيامها عنه بَدرت إليه فقبّلته فى

---

(١) أليلا : ألما ووجعا .

فمه ثم ولت فى ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة ، وهى تتهادى فى مشيها ، كما أقول فى أبيات لى :

كأنها حين تخطو فى تأودها　　قضيبُ نرجسة فى الروض ميّاس
كأنما خُلدها فى قلب عاشقها　　ففيه من وَقعها خَطر ووسواس
كأنما مَشْيها مشى الحمامة لا　　كدٌّ يُعاب ولا بُطء به باس

فبُهت وسُقط فى يده وفُت فى عضده وَوَجد فى كبده وعلقه وجمة ، فما هو إلا أن غابت عنه ووقع فى شَرَك الردى وآشتعلت فى قلبه النار وتصعدت أنفاسه وترادفت أوجاله وكثر قلقه وطال أرقه ، فما غمض تلك الليلة عيناً ، وكان هـــذا بدء الحب بينهما دهراً ، إلى أن جَذَّت جملتها يدُ النوى . وإن هذا لمن مصائد إبليس ودواعى الهوى التى لا يقف لها أحد إلا من عصمه الله عز وجل ، ومن الناس من يقول : إن دوام الوصل يُودى بالحب ، وهذا هجين من القول ، إنما ذلك لأهل المَلَل ، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا .

وعنى أخبرك أنى ماروِيتُ قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ . وهذا حكم مَن تداوى برأيه وإن ربه عنه سريعا . ولقد بلغتُ من التمكّن بمن أحب أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتُنى إلا مستزيداً ، وَلقد طال بى ذلك فما أحسست بسآمة ولا رهقتنى فترة ، ولقد ضمّنى مجلس مع بعض من كنتُ أحب فلم أُجل خاطرى فى فن من فنون الوصل إلا وجدته مقصراً عن مرادى وغير شافٍ وُجْدى ولا قاضٍ أقلّ لُبانة من لباناتى ، ووجدتُنى كلما ازددتُ دنوًّا ازددتُ ولوعا ، وقدحتْ زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى ، فقلت فى ذلك المجلس :

وَدِدْت بأنّ القلبَ شُق بمُدية　　وأُدخلتِ فيه ثم أُطبق فى صَدْرِى

فأصبحتِ فيه لا تحاين غيرَه　　إلى مُنْقَضى يوم القيامة والحشْر
تَعيشين فيه ما حييتُ فإن أمتْ　　سكنتِ شغاف القلبِ فى ظُلَمِ القبر

وما فى الدنيا حالة تَعدل محبّين إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من البين ، ورغبا عن الهجر ، وبَعُدا عن الملل ، وفقدا العذّال ، وتوافقا فى الأخلاق ، وتكافيا فى المحبَّة ، وأتاح الله لهما رزقاً دارّا ، وعيشاً قارّا ، وزماناً هادياً ، وكان اجتماعُهما على ما يرضى الربّ من الحال ، وطالت صُحبتهما واتصلت إلى وقت حُلول الحِمام الذى لا مردّ له ولابد منه ، هذا عطاء لم يحصُل عليه أحد ، وحاجة لم تُقْض لكل طالب ، ولولا أن مع هذه الحال الإشفاق من بغَتات المقادير المحكمة فى غيب الله عز وجل ، من حُلول فراق لم يُكتسب ؛ واخترام منية فى حال الشباب أو ما أشبه ذلك ، لقلت إنها حال بعيدة من كل آفة ، وسليمة من كل داخلة . ولقد رأيت مَن اجتمع له هذا كُله إلا أنه كان دُهى فيمن كان يحبه بشَراسة الأخلاق ، ودالَّة على المَحبة ، فكانا لا يتهنَّيان العيش ولا تطلع الشمس فى يوم إلا وكان بينهما خلاف فيه ، وكلاهما كان مطبوعاً بهذا الُخلق . لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه ، إلى أن دنت النَّوى بينهما فتفرّقا بالموت المرتَّب لهذا العالم ، وفى ذلك أقول :

كيف أذمّ النوى وأظلمها　　وكُل أخلاق من أُحب نوًى
قد كان يَكْفى هوى أضيق به　　فكيف اذ حَلَّ بى نوىً وهوى

وروى عن زياد بن أبى سفيان رحمه الله أنه قال لُجلسائه : من أنعم الناس عيشة ؟ قالوا : أمير المؤمنين . فقال : وأين ما يلقى من قريش ؟ قيل : فأنت . قال : أين ما ألقى من الخوارج والثغور ؟ قيل : فمن أيها الأمير . قال

رجل مُسلم له زوجة مسلمة لهما كفاف من العيش قد رضيت به ورضى بها لا يَعرفنا ولا نعرفه .

وهل فيما وافق إعجاب المخلوقين ، وجلا القلوب ، واستمال الحواس ، واستهوى النفوس ، واستولى على الأهواء ، واقتطع الألباب ، واختلس العقول ، مستحسن يعدل إشتياق مُحب على محبوب . ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً ، وإنه لمن المَناظر العجيبة الباعثة على الرقّة الرائقة المعنى لاسيما إن كان هوى يتكتم به . فلو رأيت المحبوب حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضبه بمُحبه ، وخجلته فى الخروج مما وقع فيه بالاُعتذار ، وتوجيهه إلى غير وجهه ، وتحيله فى استنباط معنى يُقيمه عند جلسائه ، لرأيت عجباً ولذة مخفية لا تقاومها لذة ، وما رأيت أجلب للقلوب ولا أغوص على حياتها ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل . وإن للمُحبين فى الوصل من الاعتذار ما أعجزَ أهلَ الأذهان الذكيّة والأفكار القوية . ولقد رأيت فى بعض المرات هذا فقلت :

إذا مزجتَ الحقَّ بالباطلِ	جَوَّزت ما شئت على الغافلِ
وفيهما فَرق صحيحٌ له	علامةٌ تَبدو إلى العـــاقلِ
كالتِّبْر إن تمزّج به فِضّةً	جازت على كل فتًى جاهل
وإن تُصادف صائغاً ماهراً	مَيَّز بين المحض والحائل

وإنى لأعلم فتى وجارية ، كان يكلف كل واحد منهما بصاحبه ، فكانا يَضطجعان إذا حضرهما أحد وبينهما المُسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفُرش . ويلتقى رأساهما وراء المسند ويُقبّل كل واحد منهما صاحبه ولا يُريان ، وكأنهما إنما يتمدّدان من الكلل . ولقد كان بلغ من

تكافؤهما فى المودة أمراً عظيماً ، إلى أن كان الفتى المُحب ربما استطال عليها. وفى ذلك أقول :

ومن أعاجيب الزمان التى طَمّت على السامع والقائل
رَغبة مَرْكوبٍ إلى راكب وذِلّةٌ المسؤول للسائل
وطَوْل مأسور إلى آسر وصَولة المَقتول للقاتل
ما إن سمعنا فى الورى قبلها خضوعَ مأمول إلى آمل
هل هاهنا وجه تراه سِوَى تواضع المَفعول للفاعل

ولقد حدّثتنى امرأة أثق بها أنها شاهدت فتى وجاريةً كان يَجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وَجْد ، قد اجتمعا فى مكان على طَرب ، وفى يد الفتى سِكّين يقطع بها بعض الفَواكه ، فجرّها جراً زائداً فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم ، وكان على الجارية غلالة قَصب خَزائنية لها قيمة ، فصرفت يدها وخرقتها وأخرجت منها فضلة شدّ بها إبهامه ، وأما هذا الفعل للمُحب فقليل فيما يجب عليه ، وفرض لازم وشريعة مؤداة ، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها .

خبر : وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيى التَّميمى المعروف بابن برطال ، وعمها كان قاضى الجماعة بقُرطبة محمد بن يحيى ، وأخوه الوزير القائد الذى كان قتله غالب وقائدين له فى الوقعة المشهورة بالثغور ، وهما مروان بن أحمد بن شهيد ويوسف بن سعيد العكى ، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ابن الوزير يحيى بن إسحاق ، فعاجلته المنية وهو فى أغض عيشه وأنضر سرورهما ، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه فى دِثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها .

وإن للوصل المختلس الذى يُخاتل به الرقباء ويتحفّظ به من الُحضّر، مثل الضحك المستور ، والنحنحة ، وجولان الأيدى ، والضغط بالأجناب ، والقرص باليد والرجل ، لموقعاً من النفس شهيّا . وفى ذلك أقول :

إن للوصل الخفى محلاّ ليس للوصل المكين الجلىّ
لذة أمرها بارتقاب كمسير فى خلال النقى

خبر : ولقد حدثنى ثقة من إخوانى جليل من أهل البيوتات أنه كان عَلق فى صباه جارية كانت فى بعض دُور آله ، وكان ممنوعاً منها فهام عقله بها . قال لى : فتنزهنا يوماً إلى بعض ضياعنا بالسهلة غربىّ قرطبة مع بعض أعمامى ، فتمشّينا فى البساتين وأبعدنا عن المنازل وانبسطنا على الأنهار . إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث ، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يكفى الجميع . قال : فأمر عمى ببعض الأغطية فأُلقى علىّ وأمرها بالاكتنان معى ، فظن بما شئت من التمكن على أعين الملأ وهم لا يشعرون ، ويالك من جمع كخلاء ، واحتفال كانفراد . قال لى : فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبدا . ولعهدى به وهو يحدثنى بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك وهو يهتز فرحاً على بعد العهد وامتداد الزمان . ففى ذلك أقول شعراً ، منه :

يَضحك الروضُ والسحائبُ تبكى كحبيبٍ رآه صَبٌّ مُعَنّى

خبر : ومن بديع الوصل ما حدّثنى به بعض إخوانى أنه كان فى بعض المنازل المُصاقبة له هوى ، وكان فى المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر ، فكانت تقف له فى ذلك المَوضع ، وكان فيه بعضُ البُعد ، فتسلم عليه ويدها ملفوفة فى قميصها . فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك . فأجابته : إنه ربما أحس من أمرنا شىء فوقف لك غيرى فسلّم عليك فرددتَ عليه ، فصح الظن ، فهذه

علامة بيني وبينك ، فإذا رأيت يداً مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدى فلا تجاوب .

وربما استُحلى الوصال وآتفقت القلوب حتى يقع التخلج فى الوصال ، فلا يلتفت إلى لائم ولا يستتر من حافظ ولا يبالى بناقل ، بل العذل حينئذ يُغرى . وفى صفة الوصل أقول شعراً ، منه :

كم دُرت حول الحب حتى لقد   حصلت فيه كحصول الفَراشِ

ومنـــــه :

تَمشو إلى الوصل دواعى الهَوى   كما سَرى نحو سَنا النارَ عاش

ومنـــــه :

عَلَّلنى بالوَصل من سَيِّدى   كمِثل تَعليل الظِّماء العِطاش

ومنـــــه :

لا تُوقف العـــــينَ على غاية   فالُحسن فيـه مُستزيد وباشٍ(١)

وأقول من قصيدة لى :

هل لقتيل الحب من وادى   أم هل لعانى الُحب من فادِى
أم هل لدهرى عودةٌ نحوها   كمثل يوم مَرّ فى الوادِى
ظللْتُ فيه سابحاً صادياً   يا عجباً للسابح الصادى
ضَنيت يامولاى وجداً فما   تُبصرنى ألحاظ عُوَّادى
كيف آهتدى الوجد إلى غائب   عن أعين الحاضر والبادى
ملَّ مداواتى طبيبى فقـــد   يَرحمنى للسُّقم حُسَّادى

---

(١) كذا فى الأصل .

باب الهجر

ومن آفات الحُب أيضاً الهجر ، وهو على ضروب : فأولها هجر يُوجبه تحفظ من رقيب حاضر ، وإنه لأحلى من كل وصل ، ولولا أن ظاهر اللفظ وحكم التسمية يُوجب إدخاله فى هذا الباب لرجعت به عنه ولأجللته عن تسطيره فيه. فحينئذ ترى الحبيب مُنحرفاً عن مُحبه مقبلاً بالحديث على غيره مُعرضاً بمعرض لئلا تلحق ظنته أو تسبق آسترابته . وترى المحب أيضاً كذلك ، ولكنّ طبعه له جاذب ، ونَفسه له صارفة بالرغم، فتراه حينئذ مُنحرفاً كمُقبل، وساكتاً كناطق ، وناظراً إلى جهة نفسه فى غيرها . والحاذق الفطن إذا كَشف بوعمه عن باطن حديثهما عَلِمَ أن الخافى غير البادى ، وما جَهر به غير نفس الخَبر ، وأنه لمن المَشاهد الجالبة للفتن والمناظر المحركة للسواكن الباعثة للخواطر المهيجة للضمائر الجاذبة للفتوة . ولى أبيات فى شىء من هذا أوردتها . وإن كان فيها غير هذا المعنى على ما شرطنا ، منها :

يلوم أبو العبّاس جهلاً بطَبعه ... كما عيّر الحوتُ النعامةَ بالصَّدَى

ومنها :

وكم صاحبٍ أكرمتُه غيرَ طائع ... ولا مُكْرَه إلا لأمر تعمَّدا
وما كان ذاك البرّ إلا لغيره ... كما نَصبوا للطير بالحُب صيدا

وأقول من قصيدة محتوية على ضروب من الحِكَم وفنون من الآداب الطبيعية :

وسَرّاء أحشائى لمن أنا مُؤثر ... وسَراء أبنائى لمن أتحبّب
فقد يُشرب الصابُ الكريهُ لعلّة ... ويُترك صَفوُ الشُّهد وهو مُحَبَّب
وأعدل فى إجهاد نَفْسى فى الذى ... أُريد وإنى فيه أشقَى وأتعب
هل اللؤلؤ المكنون والدُّر كله ... رأيتَ بغير الغوص فى البحر يُطلب

وأصرف نفسى عن وجُوه طباعها ... إذا فى سواها صَحّ ما أنا أرغب
كما نَسخ الله الشرائعَ قبلنا ... بما هو أدنى للصلاح وأقرب
وألقى سَجايا كُل خَلْق بمثلها ... ونَعت سجاياى الصّحيح المهذب
كما صار لونُ الماء لونَ إنائه ... وفى الأصل لونُ الماء أبيض معجب

ومنهـــا :

أقمتُ ذَوى وُدّى مُقام طَبائعى ... حياتى بها والموتُ منهن يَرهب

ومنهـــا :

وما أنا ممّن تَطَّبيه[1] بَشاشةٌ ... ولا يَقتضى مافى ضميرى التجنُّبُ
أَزيد نِفاراً عنـــد ذلك باطناً ... وفى ظاهرى أهلٌ وسهل ومَرحب
فإنى رأيتُ الحَرب يَعلو اشتعالها ... ومَبدؤها فى أول الأمر مَلْعب
وللحَيّة الرَّقشاء وَشْىٌ ولونُها ... عَجيب وتحت الوَشْى سُمّ مركّب
وإنّ فِرنْد السَّيف أعجبُ منظر ... وفيه إذا هُزّ الحِمام المُذَرَّب
وأَجعَلُ ذُلّ النّفس عِزّة أهلها ... إذا هى نالتْ ما بها فيه مَذْهب
فقد يَضع الإنسان فى الترب وَجهه ... ليأتى غداً وهو المَصون المقرَّب
فذُلٌّ يَسوق العِزّ أجودُ لِلفتى ... من العِزّ يَتلوه من الذُّل مَرْكب
وكم مأكلٍ أربتْ عواقبُ غَيّه ... ورُبَّ طَوَى بالخِصْب آتٍ ومُعْقب
وماذاق عِزّ النَّفس مَن لا يُذِلّها ... ولا التذّ طَعم الرَّوح مَن ليس يَنْصَب
وُرودك نَهل الماء من بعد ظَمأة ... أَلذّ من العَلّ المـكين وأعذب

ومنهـــا :

وفى كل مَخلوق تراه تفاضُلٌ ... فردْ طَيّبا إن لم يُتح لك أطيب
ولا تَرضَ وِرْداً رَيّق إلا ضَرورة ... إذا لم يكن فى الأرض حاشاه مَشْرب

---

(١) تطبيه : تجذبه وتؤثر فيه .

ولا تقربن مِلح المِيـــاه فإنها شَجًى والصدَى بالحر أولى وأوجب

ومنهـــا :

فخذ مِن جَرَاها ما تيسّر واقتنع ولا تَكُ مشغولاً بمن هو يَغْلب

فمالك شرْط عندها لا ولا يدٌ ولا هِيَ إن حَصّلت أمٌ ولا أب

ومنهـــا :

ولا تيأسَن ممـا يُنـال بحيلةٍ وإن بَعُدت فالأمر يَنأى ويَصْعُب

ولا تأْمن الإظلامَ فالفَجر طالعٌ ولاَ تلْتبس بالضّوء فالشّمس تَغرُب

ومنهـــا :

ألِحَّ فإن الماء يَكدَحُ في الصّفا إذا طال ما يأتى عليه ويَذْهب

وكَثِّرْ ولا تَفشل وقلّل كثيرَما فعلتَ فماء المُزن جَمٌّ وَ يَنْضُبُ

فلو يتغذّى المرء بالسُّم قاته وقام له منه غِـذاء مُجرَّب

ثم هَجْر يُوجبه التذلّل ،وهو ألذ من كثير الوصال،ولذلك لا يكون إلا عن ثقة كُل واحد من المتحابِّين بصاحبه ، واستحكام البصيرة فى صحة عقده فحينئذ يَظهر المحبوب هجراناً ليرى صبر مُحبه ، وذلك لئلاّ يصفو الدهر البتة، وليأسف المحب إن كان مُفرط العشق عند ذلك لا لمـا حلّ ،لـكن مخافة أن يترقّى الأمر إلى ما هو أجلّ ، يكون ذلك الهجر سبباً إلى غيره ، أو خوفاً من آفة حادث ملل .ولقد عرض لى فى الصبا هجر مع بعض من كنت آلف ، على هذه الصفة وهو لا يلبث أن يضمحل ثم يعود . فلما كثر ذلك قلتُ على سبيل المزاح شعراً بديهياً ختمتُ كل بيت منه بقسم من أول قصيدة طرفة بن العبد المعلقة ، وهى التى قرأناها مشروحة على أبى سعيد الفتى الجعفرى عن أبى بكر المقرىء عن أبى جعفر النحاس ، رحمهم الله ، فى المسجد الجامع بقرطبة ، وهى :

تذكّرت وُدًّا للحبيب كأنه لِخَولة أطلالٌ ببُرقة ثَهمدِ

وعَهدى بعهد كان لى منه ثابتٍ يلوح كباقى الوَشْم فى ظاهر اليد

وقفت به لا مُوقناً برجوعه ولا آيساً أبكى وأبكى إلى الغد
إلى أن أطال الناس عَذْلى وأكثروا
يقولون لا تَهْلِك أسًى وتجلّد
كأن فُنونَ السُّخط ممن أحبه خلايا سَفَين بالنواصف من دَد
كأنّ انقلاب الهجر والوصل مَرْكب
يجور به الملاّح طَوراً ويهتدى
فَوقْت رضًى يتلوه وَقت تسخّط كما قَسَم التُّرب المفايل باليد
ويَبْسم نحوى وهو غَضبان مُعْرِض مُظاهر سِمْطَى لُؤلؤ وَزَبَرْجد

ثم هَجْر يُوجبه العِتاب لذنب يقع من المحب، وهذا فيه بعضُ الشدة، لكن فرحة الرجعة وسُرور الرضى يعدل مامضى، فإن لرضى المَحبوب بعد سخطه لذةً فى القلب لاتعدلها لذة، وموقفاً من الروح لا يفوقه شىء من أسباب الدنيا. وهل شاهد مُشاهد أو رأت عين أو قام فى فكرٍ ألذُّ وأشهى من مقام قد قام عنه كل رقيب، وبَعد عنه كل بغيض، وغاب عنه كل واشٍ، واجتمع فيه محبان قد تصارما لذنب وقع من المحب منهما وطال ذلك قليلاً، وبدأ بعض الهجر ولم يكن ثمَّ مانع من الإطالة للحديث، فابتدأ المُحب فى الاعتذار والخضوع والتذلّل والأدلّة بحجته الواضحة من الإدلال والإذلال والتذمم بما سلف، فطوراً يدلى ببراءته، وطوراً يردّ بالعفو ويستدعى المغفرة ويقر بالذّنب ولا ذنب له، والمحبوب فى كل ذلك ناظر إلى الأرض يسارقه اللحظ الخفى، وربما أدامه فيه ثم يبسم مخفياً لتبسمه، وذلك علامة الرضى. ثم ينجلى مجلسهما عن قبول العذر، ويقبل القول، وامتحت ذنوب النقل، وذهبت آثار السخط، ووقع الجواب بنعم وذنبك مغفور، ولو كان فكيف ولا ذنب، وختما أمرهما بالوصل الممكن وسقوط العتاب والإسعاد وتفرقا على هذا.

هذا مكان تَتقاصر دونه الصفات وتتلكّن بتحديده الألسنة . ولقد وطئت بساط الخلفاء وشاهدتُ محاضر الملوك فما رأيتُ هيبة تعدل هيبة مُحب لمحبوبه ، ورأيت تمكّن المتغلبين على الرؤساء وتحكّم الوزراء ، وانبساط مدبرى الدول ، فما رأيت أشد تبجحاً ولا أعظم سروراً بما هو فيه من محب أيقن أن قلب محبوبه عنده ووثق بمَيله إليه وصحة مودته له .

وحضرت مقام المعتذرين بين يدى السلاطين ، ومواقف المتهمين بعظيم الذنوب مع المتمردين الطاغين، فما رأيت أذل من موقف مُحب هَيمان بين يدى مَحبوب غضبان قد غَمره السخط وغلب عليه الجفاء . ولقد امتحنت الأمرين وكنت فى الحالة الأولى أشدَّ من الحديد وأنفذ من السيف ، لا أجيب إلى الدنية ، ولا أساعد على الخضوع ، وفى الثانية أذل من الرداء ، وألين من القطن ، أبادر إلى أقصى غايات التذلل ، وأغتنم فُرصة الخضوع لو نجع ، وأتحلَّل بلسانى ، وأغوص على دقائق المعانى ببيانى ، وأفنن القول فنوناً ، وأتصدى لكل ما يوجب الترضى .

التجنى

والتجنى : بعضُ عوارض الهجران ، وهو يقع فى أول الحب وآخره ، فهو فى أوله علامة لصحّة المحبة ، وفى آخره علامة لفتورها وباب للسلو .

خبر : وأذكر فى مثل هذا أنى كنت مجتازاً فى بعض الأيام بقُرطبة فى مقبرة باب عامر فى لمّة من الطلاب وأصحاب الحديث ، ونحن نريد مجلس الشيخ أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد المصرى بالرصافة أستاذى رضى الله عنه ، ومعنا أبو بكر عبد الرحمن بن سليمان البلوى من أهل سِبتة ، وكان شاعراً مفلقاً وهو ينشد لنفسه فى صفة متجنٍ معهوداً أبياتاً له ، منها :

سَريع إلى ظَهر الطريق وإنه   إلى نَقض أسباب المودّة يسرع

يَطُول عَلينا أن نُرقِّع وُدَّه　　إذا كان فى تَرقيعه يتقَطّع

فوافق إنشاد البيت الأول من هذين البيتين خطور أبى الحسين بن على الفاسي رحمه الله تعالى وهو يؤم أيضاً مجلس ابن أبى يزيد ، فسمعه فتبسم رحمه الله نحونا وطوانا ماشياً وهو يقول : بل إلى عقد المودة إن شاء الله ، فهو أولى . هذا على جِد أبى الحسين رحمه الله وفضله وتقرّبه وبراءته ونسكه وزهده وعلمه . فقلت فى ذلك :

دَعْ عنك نَقْض مودتى مُتعمِّداً　　واْعقِد حِبالَ وصالنا ياظالمُ
ولترجعنّ أردْتَه أو لم تُرِد　　كُرهاً لما قال الفقيه العالم

ويقع فيه الهجر(١) والعتاب . ولعمرى إن فيه إذا كان قليلا للذة ، وأما إذا تفاقم فهو فأل غير محمود ، وأمارة وبيئة المصدر ، وعلامة سوء ، وهى بجملة الأمر مطية الهجران ، ورائد الصريمة ، ونتيجة التجنى ، وعنوان الثقل ، ورسول الانفصال ، وداعية القلى ، ومقدِّمة الصد ، وإنما يستحسن إذا لَطُف وكان أصله الإشفاق . وفى ذلك أقول :

لعلّك بعد عَتبك أن تجُودا　　بما منه عتبتَ وأن تَزِيدا
فكم يومٍ رأينا فيه صَحْواً　　وأسمعنا بآخِره الرُّعودا
وعاد الصَّحو بعدُ كما عَلِمنا　　وأنت كذاك نَرجو أن تعودا

وكان سبب قولى هذه الأبيات عِتاب وقع فى يوم هذه صفتُه من أيام الربيع فتلتُها فى ذلك الوقت ، وكان لى فى بعض الزمن صديقان وكانا أخوين فغابا فى سفر ثم قَدِما ، وقد أصابنى رَمَدفتأخرا عن عيادتى ، فكتبتُ إليهما ، والمخاطبة للأكبر منهما ، شعراً منه :

---

(١) فيه : الضمير يعود على التجنى فى الصفحة السابقة .

وكنت أعدّد أيضاً على أخيك بمؤلمة السّامع
ولكنْ إذا الدّجْن غطّى ذُكا ء فما الظّنّ بالقَمر الطالع

ثم هجر يُوجبه الوُشاة ، وقد تقدم القول فيهم وفيما يتولد من ذبيب عقاربهم ، وربما كان سبباً للمقاطعة البتة .

هجر الملل

ثم هجر الملل : والملل من الأخلاق المطبوعة فى الإنسان ، وأحرى لمن دُهى به ألا يصفو له صديق ، ولا يَصح له إخاء ، ولا يثبت على عهد ، ولا يصبر على إلف ، ولا تطول مُساعدته لمُحب ، ولا يعتقد منه وُد ولا بغض . وأولى الأمور بالناس ألاّ يغروه منهم وأن يفروا عن صحبته ولقائه . فلن يظفروا منه بطائل ، ولذلك أبعدناهذه الصفةعن المحبين وجعلناها فى المحبوبين، فهم بالجملة أهل التجنى والتظنّى . والتعرض للمقاطعة . وأما من تزيّا باسم الْحب وهو مَلُول فليس منهم ، وحقّه ألا يتجرع مذاقه ، ويُنفى عن أهل هذه الصفة ولا يدخل فى جملتهم .

وما رأيت قط هذه الصفة أشد تغلباً منها على أبى عامر محمد بن عامر رحمه الله ، فلو وصف لى واصف بعضَ ما علمتُه منه لما صدقتُه . وأهل هذا الطبع أسرع الخلق محبةً ، وأقلّهم صبراً على المحبوب وعلى المكروه والصد ، وانقلابهم على الودّ على قدر تسرعهم إليه . فلا تثِق بملول ولا تَشغل به نفسك ، ولا تُعنها بالرجاء فى وفائه . فإن دُفعت إلى محبتهضرورةً فعُدّه ابنَ ساعته ، واستأنفه كُل حين من أحيانه بحسب ما تراه من تلونه ، وقابله بما يشاكله . ولقد كان أبو عامر المُحدَّث عنه يرى الجاريةَ فلا يصبر عنها ، ويُحيق به من الاغتمام والهم ما يَكاد أن يأتى عليه حتى يملكها ، ولو حال

دون ذلك شوكُ انقتاد ، فإذا أيقن بتصيُّرها إليه عادت المحبة نفاراً ، وذلك الأنس شُروداً ، والقلق إليها قلقا منها ، ونزاعه نحوها نزاعاً عنها ، فيبيعها بأوكس الأثمان . هذا كان دأبه حتى أتلف فيما ذكرنا من عشرات ألوف الدنانير عدداً عظيما ، وكان رحمه الله مع هذا من أهل الأدب والحذق والذكاء والنبل والحلاوة والتوقّد ، مع الشرف العظيم والمنصب الفخم والجاه العريض. وأما حسن وجهه وكمال صُورته فشيء تقف الحدود عنه وتَـكِل الأوهام عن وصف أقله ولا يتعاطى أحد وصفه . ولقد كانت الشوارع تخلو من السيّارة ويتعمدون الخطور على باب داره فى الشارع الآخذ من النهر الصغير على باب دارنا فى الجانب الشرقى بقُرطبة إلى الدرب المتصل بقصر الزاهرة ، وفى هذا الدرب كانت داره رحمه الله ملاصقة لنا ، لا لشيء إلا للنظر منه . ولقد مات من محبّته جوارٍ كُنّ علقّن أوهامهن به ، ورثين له فخانهن مما أملنه منه ، فصرن رهائن البِلَى وقتلتهنّ الوُحدة .

وأنا أعرف جارية منهن كانت تُسمى عفراء ، عهدى بها لا تتستر بمحبته حيثما جلست ، ولا تجف دموعها ، وكانت قد تصيرت من داره إلى البركات الخيّال صاحب الفتيان . ولقد كان رحمه الله يُخبرنى عن نفسه أنه يمل اسمه فضلا عن غير ذلك .

وأما إخوانه فإنه تبدّل بهم فى عُمره على قِصَره مراراً ، وكان لا يثبُت على زى واحد كأبى بَراقش ، حيناً يكون فى ملابس الملوك وحيناً فى ملابس الفتّاك .

فيجب على من امتُحن بمخالطة مَن هذه صفته على أى وجه كان ألاّ يستفرغ عامة جُهده فى محبّته ، وأن يُقيم اليأس من دوامه خَصماً لنفسه ؛ فإذا لاحت له

مخايل الَملل قاطعه أياماً حتى ينشط بالُه ، ويبعد به عنه ، ثم يُعاوده ، فربما دامت المودّة مع هذا . وفى ذلك أقول :

لا تَرجُونّ مَـلُولاَ ليس الملول بُعـدّه
وُدَّ المَـلول فدَعْهُ عَارِيَةَ مُسْـتردَّه

الهجـــر

ومن الهَجر : ضَرب يكون متولّيه المحب ، وذلك عندما يرى من جَفاء محبوبه والميل عنه إلى غيره ، أو لثقيل يلازمه ، فيرى الموت ويتجرّع غُصص الأسى ، والعَضّ على نقيف الحنظل أهون من رؤية ما يكره ، فينقطع وكبده تتقطع ، وفى ذلك أقول :

هجرتُ من أهواه لاعن قِلى يا عجباً للعاشق الهاجِر
لـكنّ عينى لم تُطِق نظرة إلى مُحيّا الرّشا الغـادر
فالموتُ أحلى مَطْعماً من هوًى
يُبـاح للوارد والصـادر
وفى الفؤاد النار مَذْكيَّة فاعجب لصَبٍّ جَزِع صابر
وقد أباح الله فى دِينه تَقيَّة المـأسور للآسر
وقد أحلَ الـكُفر خوفُ الرّدى
حتى تَرى المؤمن كالـكافر

خبر: ومن عجيب ما يكون فيها وشنيعه أنى أعرف مَن هام قلبُه بمتناء عنه نافر منه ، فقاسى الوجد زمناً طويلا ، ثم سَنحت له الأيام بسانحة عجيبة من الوصل أشرف بها على بلوغ أمله ، فحين لم يكُن بينه وبين غاية رجائه إلا كهؤلاء عاد الهَجر والبعد إلى أكثر ما كان قبل . فقلت فى ذلك :

كانت إلى دهرىَ لِى حاجةٌ مقرونةٌ فى البُعد بالمُشترِى
فساقها باللُّطف حتى إذا كانت من القُرب على مَحْجِرِ
أَبْعدها عنِّى فعادت كأنْ لم تَبْدُ للعين ولم تَظهر

وقلت :

دنا أملى حتى مددتُ لأخذه يَداً فانثنَى نحوَ المَجرَّة راحلاَ
فأصبحتُ لا أرجو وقد كنتُ مُوقناً وأُضحى مع الشِّعرى وقد كان حاصلا
وقد كُنت محسوداً فأصبحت حاسداً
وقد كنت مأمولا فأصبحت آملا
كذا الدهرُ فى كَرَّاته وانتقاله فلا يأمننّ الدهرَ مَن كان عاقلا

ثم هَجْر القِلَى : وهنا ضلّت الأساطير ونفدت الحِيل وعظم البلاء ؛ وهو الذى خلّى العقولَ ذواهلَ ، فمن دُهى بهذه الداهية فليتصدَّ لمحبوب محبوبه ، وليتعمد ما يعرف أنه يستحسنه . ويجب أن يجتنب ما يدرى أنه يكرهه ، فربما عَطفه ذلك عليه إن كان المحبوب ممن يدرى قدر المُوافقة والرغبة فيه ، وأما من لم يعلم قدر هذا فلا طَمع فى استصرافه ، بل حسناتك عنده ذنوب . فإن لم يقدر المرء على استصرافه فليتعمّد السُّلوان وليحاسب نفسه بما هو فيه من البلاء والحرمان ، ويسعى فى نَيل رغبته على أى وجه أمكنه . ولقد رأيتُ مَن هذه صفته ، وفى ذلك أقول قطعة أولها :

دُهيت بمن لو أدفع الموتَ دونه لقال إذًا ياليتنى فى المَقابر

ومنها :

ولا ذنب لى إذ صرتُ أحدور كائبى
إلى الورْد والدُّنيا تُسِىء مَصادرى
وماذا على الشمس المُنيرة بالضُّحى إذا قَصُرت عنها ضِعاف البصائر

وأقول :

ما أقبحَ الهَجرَ بعد وَصْلٍ   وأحسنَ الوصلَ بعد هجر
كالوَفْر تحويه بعد فَقر   والفَقْرِ يأتيك بعـد وَفر

وأقول :

مَعهود أخلاقك قِسْمان   والدهرُ فيك اليوم صِنْفان
فإنك النُّعمان فيما مَضى   وكان للنُّعمان يومان
يومُ نَعيم فيه سَعد الوَرى   ويومُ بَأْسَاء وعُدوان
فيومُ نُعماك لغيرى ويَو   مى منك ذو بُؤس وهِجْران
أليس حُبى لك مُستأهلا   لأن تُجـــازيه بإحسان

وأقول قطعة منها :

يامَن جميعُ الُحسنِ مُنتظم   فيه كَنظْم الدرّ فى العقْد
ما بال حَتْفى منك يَطْرُقنى   قَصْداً ووجهُك طالعُ السَّعد

وأقول قصيدة أولها :

أساعةُ تَوْديعك أم ساعةُ الَحْشْر   وليلةُ بَيْنى منك أم ليلة النَّشر
وهجرك تَعْذيب الموحِّد ينْقضى   ويرجو التلاقى أم عذاب ذوى الـكفر

ومنهـا :

سقى الله أياماً مضتْ ولياليـاً   تُحا كى لنا النَّيلوفَرالغَض فى النَّشر
فأَوراقُه الأيام حُسناً وبهجةً   وأوسطه الليلُ الُمقصِّر للعُمر
لَهونا بها فى غَمرة وتآلف   تَمُر فلا نَدْرى وتأتى فلا ندرى
فأعْقبنا منــه زمانٌ كأنه   ولاشكَّ حُسن العقد أعقب بالغَدر

ومنها :

فلا تيأَسى يا نَفْس علَّ زمانَنا   يَعُود بوجه مُقْبل غير مُدْبر

كما صَرف الرحمنُ مُلك أمية إليهم ولُوذى بالتجمّل والصَّبر

وفى هذه القصيدة أمدح أبا بكر هشام بن محمد أخا أمير المؤمنين عبد الرحمن المرتضى رحمه الله .

فأقول :

أليس يُحيط الرُّوح فينا بكُل ما دناَ وتَناءى وهو فى حُجُب الصَّدر

كذا الدهرُ جِسْم وهو فى الدَّهر رُوحه
مُحيط بما فيه وإن شئت فاستقر

ومنها :

إتاواتها تهدى إليه ومِنّة تَقَبُّلها منهم يقاوم بالشُّكر

كذا كل نهر فى البلاد وإن طمت غزارته ينصبّ فى لُجج البَحر

باب الوفاء

ومن حميد الغرائز وكريم الشِّيم وفاضل الأخلاق فى الُحب وغيره الوفاء ، وإنه لمن أقوى الدلائل وأوضح البراهين على طِيب الأصل وشَرف العُنصر ، وهو يتفاضل بالتفاضل اللازم للمخلوقات . وفى ذلك أقول قطعة منها :

أَفعالُ كل امرىء تُنبى بعُنصره
والعينُ تُغنيك عن أن تطلُب الأثرا

ومنها :

وهل تَرى قطُّ دِ فْلى أنبتت عنباً أو تَذْخر النحل فى أوكارها الصَّبرا

وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له ، وهذا فرض لازم وحق واجب على المُحب والمحبوب ، لا يحول عنه إلا خبيث المحتد لا خَلاق له ولا خير عنده . ولولا أن رسالتنا هذه لم نقصد بها الكلام فى أخلاق الإنسان

وصفاته المطبوعة والتطبع بها ، وما يزيد من المطبوع بالتطبع وما يضمحل من التطبع بعدم الطبع ، لزدتُ فى هذا المكان ما يجب أن يُوضع فى مثله ، ولكنا إنما قصدنا التكلم فيما رغبتهُ من أمر الحب فقط . وهذا أمر كان يطول جدًّا إذ الكلام فيه يتفنن كثيراً .

خبر : ومن أرفع ما شاهدته من الوفاء فى هذا المعنى وأهوله شأناً قصَّة رأيتها عياناً ، وهو أنى أعرف مَن رَضِى بقطيعة محبوبه وأعزّ الناس عليه ، ومن كان الموت عنده أحلى من هجر ساعة فى جَنب طيّه لسر أودعه ، والتزم محبوبه يميناً غليظة ألَّا يكلمه أبداً ولا يكون بينهما خبر أو ينفضح إليه ذلك السر . على أن صاحب ذلك السر كان غائباً فأبى من ذلك وتمادى هو على كتمانه والثانى على هجرانه إلى أن فرقت بينهما الأيام .

ثم مرتبة ثانية وهو الوفاء لمن غَدر ، وهى للمُحب دون المحبوب ، وليس للمحبوب ها هنا طريق ولا يلزمه ذلك ، وهى خُطة لا يُطيقها إلا جَلْد قوىّ واسع الصدر حر النفس عظيم الِحْلم جليل الصبر حَصيف العقل ماجد الخلق سالم النية . ومن قابل الغدر بمثله فليس بمُستأهل للملامة ، ولكن الحال التى قدمنا تفوقها جدًّا وتفوتها بعداً . وغاية الوفاء فى هذه الحال تركُ مكافأة الأذى بمثله ، والكف عن سيىء المعارضة بالفعل والقول ، والتأنى فى جر حَبل الصحبة ما أمكن ، ورُجيت الألفة ، وطُمع فى الرجعة ، ولاحت للعودة أدنى مخيلة ، وشيمت منها أقل بارقة ، أو تُوجس منها أيسر علامة . فإذا وقع اليأس واستحكم الغيظ حينئذ والسلامة من غرّك والأمن من ضرّك والنجاة من أذاك ، وأن يكون ذكر ما سلف مانعاً من شفاء الغيظ فيما وقع ، فَرَعْى الأذمة حق وَكيد على أهل العقول ، والحنين إلى ما مضى وألا ينسى ما قد فرغ منه وفنيت مدته أثبت الدلائل على صحة الوفاء . وهذه الصفة حسنة جدًّا وواجب استعمالها فى كل وجه من وجوه معاملات الناس فيما بينهم على أى حال كانت .

خبر : ولعهدى برجل من صَفوة إخوانى قد عَلق بجارية فتأكد الود بينهما ، ثم غدرت بعهده ونَقضت وُده وشاع خبرها ، فوجد لذلك وجداً شديداً .

خبر : وكان لى مرّة صديق ، ففسدت نيّته بعد وَكيد مودة لا يُـكفر بمثلها ، وكان علم كل واحد مناسر صاحبه ، وسَقطت المؤونة[1] ، فلما تغير علىّ أفشى كل ما اطلع لى عليه مما كنت اطلعت منه على أضعافه ، ثم اتصل به أن قوله فى قد بلغنى ، فجزع لذلك وخشى أن أقارضه[2] . على قبيح فعلته . وبلغنى ذلك فكتبت إليه شعراً أؤنسه فيه وأعلمه أنى لا أقارضه .

خبر : ومما يدخل فى هذه الدرج ، وإن كان ليس منه ولا هذا الفصل المتقدم من جنس الرسالة والباب ولكنه شبيه له على ما قد ذكرنا وشرطنا ، وذلك أن محمد بن وليد بن مكسير الكاتب كان مُتصلاً بى ومُنقطعاً إلى أيام وزارة أبى رحمة الله عليه ، فلما وقع بقُرطبة ما وقع وتغيّرت أحوال خرج إلى بعض النواحى فاتصل بصاحبها فعرض جاهُه وحدثت له وَجاهة وحال حسنة. فحللتُ أنا تلك الناحية فى بعض رحلتى فلم يُوَفّنى حقى بل ثَقُل عليه مكانى وأساء معاملتى وصُحبتى ، وكلَّفته فى خلال ذلك حاجة لم يقُم فيها ولا قَعد واشتغل عنها بما ليس فى مثله شُغل . فكتبت إليه شعراً أعاتبه فيه ، فجاوبنى مستعتباً على ذلك . فما كلَّفته حاجة بعدها . ومما لى فى هذا المعنى وليس من جنس الباب ولكنه يشبهه أبياتاً قلتها ، منها :

وليس يُحمد كِتْمان لِمُـكتِتم	ولـكنَّ كَتْمك ما أفشاه مُفْشيه
كالجُود بالوَفْر أَثنَى ما يكون إذا	قِلّ الوُجود له أو ضَنّ مُعْطيه

(١) الـكلفة بينهما .

(٢) أرد عليه بمثل ما بدأنى به .

ثم مَرتبة ثالثة وهى الوفاء مع اليأس الباتّ ، وبعد حلول المنايا وفجاآت المنون . وإن الوفاء فى هذه الحالة لأجلّ وأحسن منه فى الحياة ومع رجاء اللقاء .

خبر : ولقد حدّثتنى امرأة أثق بها أنها رأت فى دار محمد بن وهب المعروف بابن الركيزة من وَلد بدر الداخل مع الإمام عبد الرحمن بن معاوية رضى الله عنه جاريةً رائعة جميلة كان لها مولى ، فجاءته المنيّة فبيعت فى تركته ، فأبت أن ترضى ، بالرجال بعده وما جامعها رجل إلى أن لقيت الله عز وجل. وكانت تُحسن الغناء فأنكرت علمَها به ورضيت بالخدمة والخروج عن جملة المتخذات للنّسل واللذة والحال الحسنة ، وفاء منها لمن قد دثَر ووارتْه الأرض والتأمت عليه الصفائح . ولقد رامها سيدها المذكور أن يضمّها إلى فراشه مع سائر جواريه ويُخرجها مما هى فيه فأَبت ، فضربها غير مرة وأوقع بها الأدب ، فصبرت على ذلك كله . وأقامت على امتناعها . وإن هذا من الوفاء غريب جداً .

واعلم أن الوفاء على المحب أوجب منه على المحبوب وشرطه له ألزم ، لأن المحب هو البادى باللّصوق والتعرض لعقد الأذمة والقاصد لتأكيد المودة والمستدعى صحة العشرة ، والأول فى عدد طلاب الأصفياء ، والسابق فى ابتغاء اللذة باكتساب الخلة ، والمقيد نفسه بزمام المحبة قد عقلها بأوثق عقال وخطمها بأشد خطام ، فمن قسره على هذا كله إن لم يرد إتمامه ؟ ومن أجبره على استجلاب المقة إن لم يَنْو خَتْمها بالوفاء لمن أراده عليها ؟ والمحبوب إنما هو مجلوب إليه ومقصود نحوه ومخيّر فى القبول أو الترك فإن قبل فغاية الرجاء ، وإن أبى فغير مستحق للذم . وليس التعرض للوصل والإلحاح فيه والتأنى نكل ما يستجلب به من الموافقة وتصفية الحضرة والمغيب من الوفاء فى شىء ، فحظ نفسه أراد الطالب ، وفى سُروره سَعى وله احتطب . والحب يدعوه ويَحْدوه على ذلك شاء أو أبىَ ، وإنما يُحمد الوفاء ممن يقدر على تركه .

وللوفاء شُروط على المُحبين لازمة . فأولها يحفظ عهدَ محبوبه ويرعى غيبته ، وتستوى علانيته وسريرته ، ويطوى شره وينشر خيره ، ويغطى على عيوبه ويحسن أفعاله ، ويتغافل عما يقع منه على سبيل الهفوة ويرضى بما حمله ، ولا يكثر عليه بما ينفر منه ، وألا يكون طُلعة ثؤوباً ولا مَلَّة طَروقاً . وعلى المحبوب إن ساواه فى المحبَّة مثل ذلك ، وإن كان دونه فيها فليس للمحب أن يكلفه الصعود إلى مرتبته ولا له الاستشاطة عليه بأن يسومه الاستواء معه فى درجته . وبحسبه منه حينئذ كتمان خبره وألا يقابله بما يكره ولا يخيفه به ، وإن كانت الثالثة وهى السلامة مما يلقى بالجملة فَلْيقنع بما وجد ، وليأخذ من الأمر ما استدف[1] ولا يطلب شرطاً ولا يقترح حتما . وإنما له ماسنح بجده أو ما حان بكده ، واعلم أنه لا يَستبينقُبح الفعل لأهله ، ولذلك يتضاعف قُبحه عند من ليس من ذويه . ولا أقول قولى هذا مُمتدحاً ولكن آخذاً بأدب الله عز وجل : (وأمّا بنعمة ربك فحَدِّث) .

لقد منحنى الله عز وجل من الوفاء لكُل من يَمُت إلىّ بلقية واحدة ، ووهبنىمن المحافظةلمن يتذمّم منى ولو بمُحادثته ساعة حظا ؟ أنا له شاكر وحامد ومنه مُستمدومستزيد ، وما شىءأثقل علىّ من الغدر ،ولعمرىماسمحت نفسى قط فى الفِكرة فى إضرار من بينى وبينه أقل ذمام ، وإن عظمت جريرته وكثرت إلىَّ ذنوبه ، وَلقد دَهمنى منهذا غيرُ قليل فما جزيت علىالسُّوءى إلا بالحُسنى ، والحمد لله على ذلك كثيراً ،وبالوفاء أفتخر فى كلمة طويلة ذكرت فيها مامضنا من النكبات ، ودهمنا من الحل والترحال ، والتحول فى الآفاق . . أولها :

ولَّى فولّى جميلُ الصبر يتبعه	وصَرّح الدمعُ ما تُخفيه أضلُعه
جِسْم مَلُول وَقلْب آلِفٌ فإذا	حَلّ الفراق عليه فهو مُوجعه

(١) استدف : سهل وأمكن .

لم تستقرّ به دارٌ ولا وَطن ... ولا تَدَفّأَ منه قطّ مَضْجعه
كأنما صِيغ مِن رَهْوِ السّحابِ فما ... تزال ريحٌ إلى الآفاقِ تَدْفعه
كأنما هو توحيد تَضِيق به ... نَفْسُ الكفورِ فتأبَى حين تُودعه
أو كوكبٌ قاطعٌ في الأفق منتقل ... فالسَّير يُغرِبُه حِيناً ويُطلِعه
أظنّه لو جَزَتْه أو تُساعده ... ألتمت عليه انهمال الدمع يَتبعه

وبالوفاء أيضا أفتخر في قصيدة لي طويلة أوردتها . وإن كان أكثرها ليس من جنس الكتاب ، فكان سبب قولي لها أن قوماً من مُخالفي شرقوا بي فأساءوا العتب في وجهي وقذفوني بأني أعضُد الباطل بحُجتي، عجزاً منهم عن مُقاومة ما أوردته من نصر الحق وأهله ، وحسداً لي . فقلت ، وخاطبت بقصيدتي بعض إخواني وكان ذا فهم ، منها :

وَخُذْني عصا موسى وهاتِ جميعَهم ... ولو أنهم حَيّاتُ ضالٍ نَضانِضِ

ومنها :

يُريغون في عيني عجائبَ جَمّةً ... وَقد يتمنّى الليثُ وَالليثُ رابِضُ

ومنها :

ويَرجون ما لا يبلغون كمِثْل ما ... يُرجِّي محالاً في الإمام الرّوافضُ

ومنها :

ولو جلدي في كل قلْب ومُهجة ... لما أثّرت فيها العيون المرائضُ
أبتْ عن دنيء الوَصفِ ضربةُ لازبٍ ... كما أبتِ الفِعلَ الحُرُوفُ الخوافضُ

ومنها :

و رَأْيي له في كُل ما غابَ مسْلك ... كما تَسلُك الجسمَ العروقُ النوابضُ
يَبين مدَبّ النمل في غير مُشْكل ... ويُسترُ عنهم للفُيول المَرابضُ

باب الغدر

وكما أنّ الوفاء من سريّ النعوت ونَبيل الصفات ، فكذلك الغدر من ذَميمها ومكروهها ، وإنما يُسمى غدراً من البادى . وأما المُقارض بالغدر على مثله ، وإن استوى معه فى حقيقة الفعل فليس بغدر ولا هو مَعيباً بذلك ، والله عز وجل يقول : (وجَزاء سَيِّئة سيئة مثلُها) . وقد علمنا أنّ الثانية ليست بسيِّئة ولكنْ لما جانست الأولى فى الشبه أُوقع عليها مثلُ اسمها ، وسيأتى هذا مفسَّراً فى باب السلو إن شاء الله . ولكثرة وجود الغدر فى المحبوب آستَغرب الوفاء منه فصار قليله الواقعُ منهم يُقاوم الكثيرَ الموجود فى سواهم . وفى ذلك أقول :

قليلُ وفاءِ من يُهْوَى يَجِلّ ... وعُظْم وفاء من يَهْوَى يَقِلّ
فنادرةُ الجبان أجلّ مما ... يَجىء به الشجاعُ المُستقل

ومن قبيح الغدر أن يكون للمُحب سفير إلى محبوبه يستريح إليه بأسراره فيسعى حتى يقلبه إلى نفسه ويستأثر به دونه . وفيه أقول :

أقمت سفيراً قاصداً فى مَطالبى ... وثقتُ به جهلا فَضرَّب بيننا
وحلّ عُرى وُدّى وأثبت وُدّه ... وأبعد عنّى كلّ ما كان مُمْكنا
فصرتُ شهيداً بعدما كنت مُشْهِدًا ... وأصبحت ضيفاً بعدما كان ضَيفَنا

خبر : ولقد حدّثنى القاضى يونس بن عبدالله قال : أذكر فى الصّبى جارية فى بعض السدد يهواها فتًى من أهل الأدب من أبناء الملوك وتهواه ويتراسلان ، وكان السفير بينهما والرسول بكتبهما فتى من أترابه كان يصل إليها ، فلما عُرضت الجارية للبيع أراد الذى كان يُحبها آبتياعها ، فبدر الذى كان رسولا فاشتراها . فدخل عليها يوماً فوجدها قد فتحت دُرجاً لها تطلب فيه بعض حوائجها ، فأتى إليها وجعل ينتّش الدرج ، فخرج إليه كتاب من ذلك الفتى الذى كان يهواها

مضمَّخًا بالغالية[1] مَصونًا مُكرماً ، فغضب وقال : من أين هذا يافاسقة ؟ قالت : أنت سُقته إلى . فقال : لعله مُحدَث بعد ذاك الحين . فقالت : ما هو إلا من قديم تلك التى تعرف . قال : فكأنما ألقمته حجراً ، فسُقِط فى يديه وسكت .

باب البين

وقد علمنا أنه لابد لكل مُجتمِع من افتراق ، ولكل دانٍ من تَنَاء ، وتلك عادة الله فى العباد والبلاد حتى يرث الله الأرض ومَن عليها وهو خير الوارثين . وما شىء من دواهى الدنيا يَعدل الأفتراق ، ولو سالت الأرواحُ به فضلا عن الدموع كان قليلا . وسمع بعضُ الحكماء قائلا يقول : الفراق أخو الموت ، فقال : بل الموت أخو الفراق .

والبين ينقسم أقساماً :

فأولها مُدة يُوقَن بانصرامِها وبالعودة عن قريب ، وإنه اشجى فى القلب ، وغُصّة فى الحلق لا تبرأ إلا بالرجعة ، وأنا أعلم مَن كان يَغيب من يُحب عن بصره يوماً واحداً فيعتريه من الهلَع والجزَع وشُغل البال وترادُف الكُرَب ما يكاد يأتى عليه .

ثم بَيْنٌ مَنْعٌ من اللقاء ، وتَحظير على المحبوب من أن يراه مُحبه ، فهذا ـ ولو كان من تُحبه معك فى دار واحدة ـ فهو بين ؛ لأنه بائن عنك . وإن هذا ليولِّد من الحزن والأسفِ غيرَ قليل ، ولقد جرَّبناه فكان مُرّا ، وفى ذلك أقول :

أرى دارَها فى كل حِين وساعةٍ ... ولكنَّ مَن فى الدار عنّى مُغيَّب
وهل نافِعى قُربُ الدِّيار وأهلِها ... عَلَى وَصْلهم منى رقيبٌ مُراقِبُ

---

(١) نوع من الطيب .

فيالكَ جار الجَنْب أسمع حِسّه وأعلم أن الصِّين أدنى وأقرب
كصادٍ يَرى ماء الطَّوِىّ بعَينه وليس إليه من سبيل يُسبِّب
كذلك مَن فى اللَّحد عنك مُغيَّب وما دونه إلا الصَّفيح المُنصَّب

وأقول من قصيدة مُطوَّلة :

مَتى تَشتفى نفسٌ أضَرَّ بها الوَجْد وتَصْقَب[1] دارقدطوى أهلَها البُعد
وعَهدى بهندٍ وهى جارة بَيْتنا وأقربُ من هِنْد لطالبها الهِنْد
بلى إنّ فى قُرب الدِّيار لراحةً كما يُمسك الظمآن أن يَدْنو الوِرْد[2]

ثم بَيْن يتعمّده المحب بُعْدًا عن قول الوُشاة ، وخوفاً أن يكون بقاؤه سبباً إلى منع اللقاء ، وذريعة إلى أن يَفشو الكلام فيَقع الحجابُ الغليظ .

ثم بَيْنٌ يو لِّده المُحب لبعض ما يدعوه إلى ذلك من آفات الزمان ، وعُذره مقبول أو مطرح على قدر الحافز له إلى الرحيل .

خبر : ولعهدى بصديق لى دارُه المريّة ، فعَنَتْ له حوائجُ إلى شاطِبة فقصدها ، وكان نازلا بها فى منزلى مدةَ إقامته بها ، وكان له بالمريّة علاقة هى أكبرهمه وأدهى غمه ، وكان يؤمِّل بَتَّها وفراغ أسبابه وأن يُوشك الرَّجعة ويُسرع الأوبة ، فلم يكن إلا حِينٌ لطيف بعد احتلاله عندى حتى جَيَّشَ الموفَّق أبو الحسن مجاهد صاحب الجزائر الجيوش وقرّب العساكر ونابذ خَيران صاحب المريّة وعزم على استئصاله ، فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب ، وتحوميت السُّبل واحتُرس البحر بالأساطيل ، فتضاعف كَرْبه إذ لم يجد إلى الانصراف سبيلاً البتة ، وكاد يَطفأ أسفاً ، وصار لا يأنس بغير الوُحدة ، ولا يلجأ إلا إلى الزفير والوُجوم . ولعمرى لقد كان ممن لم أقدُر قط فيه أنّ قلبه يُذعن للود ؟ ولا شراسةَ طَبعه تجيب إلى الهوى .

---

(١) تقرب . (٢) مورد الماء ومكانه .

وأذكر أنى دخلتُ قرطبة بعد رحيلى عنها ثم خرجتُ منصرفاً عنها فضمّنى الطريق مع رجل من الكُتّاب قد رَحل لأمر مُهم وتَخلّف سَكَن له[1] ، فكان يرتمض لذلك . وإنى لأعلم مَن عَلِق بهوًى له وكان فى حال شَظف وكانت له فى الأرض مذاهبُ واسعة ومناديح رَحْبة ووُجوه متصرّف كثيرة، فهان عليه ذلك وآثر الإقامة مع من يحب ، وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

لك فى البلاد مَنادِحٌ معلومةٌ والسيفُ غُفْل أو يَبين قِرابهُ

ثم بَيْنُ رحيل وتباعد ديار ، ولا يكون من الأوبة فيه على يقين خَبر ، ولا يَحدُث تلاق . وهو الخطب الموجع ، والهم المفظع ، والحادث الأشنع ، والداء الدويّ . وأكثر ما يكون الهلَع فيه إذا كان النائى هو المحبوب ، وهو الذى قالت فيه الشعراء كثيراً . وفى ذلك أقول قصيدة ، منها :

وذى علّة أعيا الطبيبَ عِلاجُها ستُوردنى لاشكّ مَنْهلَ مَصْرعى
رَضيتُ بأن أُضحِى قتيلَ وداده كجارع سمٍّ فى رَحيق مُشعشعِ
فما لليـالى ما أقلّ حَياءَها وأوْلعَها بالنفس من كُل مُولَعِ
كأنّ زمانى عَبْشمىٌّ يخالُنى أعنتُ على عُثمان أهلَ التشيُّعِ

وأقول من قصيدة :

أظنّك تِمثـال الجِنان أباحه لمُجتهد النسّاك من أوليائه

وأقول من قصيدة :

لأبْرد باللّقيـا غَليلاً من الهَوى تَوقّع نيرانَ الغَضى هَيَمانُه

وأقول شعراً منه :

خَفيتِ عن الأبصار والوجدُ ظاهر فاعجبْ بأعراض تَبين ولا شَخْص
غَدا الفَلك الدوّار حَلْقة خاتم مُحيطٍ بما فيه وأنتِ له فَصّ

---

(١) زوجته أو زوجاته .

وأقول من قصيدة :

غَنِيت عن التَّشبيه حُسناً وبَهجة ... كما غَنِيت شمسُ السَّماء عن الحَلْى
عجبتُ لنفسى بعده كيف لم تَمُت ... وهِجْرانُه دَفنى وفُقدانه نَعْيى
وللجَسَد الغضّ المُنعَّم كيف لم ... تُذِبْه يد خشناء . . . . . [1]

وإنّ الأوبة من البَيْن الذى تُشفق منه النفس لِطُول مسافته وتكاد تيأس من العودة فيه ، لروعةً تبلغ مالا حدّ وراءه وربما قتلت . وفى ذلك أقول :

للتلاقى بعـــد الفِراق سرورٌ ... كسُرور المُفيق حانت وفاتُه
فَرحَةٌ تُبهج النفوس وتُحيى ... مَن دنا منه بالفراق مماتُه
ربمـا قـــد تـكون داهيةُ المو ... ت وتُودى بأهله هَجَماته
كم رأينا من عَبّ فى المـاء عَطشا ... ن فزار الحِمامِ وهو حَياته

وإنى لأعلم مَن نأت دارُ محبوبه زمناً ثم تيسرت له أوبة فلم يكن إلا بقدْر التسليم واستيفائه ،حتى دعتْه نوًى ثانية فكاد أن يَهلك . وفى ذلك أقول :

أطلتُ زمانَ البُعد حتى إذا انقضى ... زمانُ النَّوى بالقرب عُدْت إلى البُعد
فلم يكُ إلاّ كَرّة الطَّرف قُرْبُكم ... وعاودكم بَعدى وعاودنى وَجْدى
كذا حائر فى اللّيل ضاقت وجوهُه ... رأى البرقَ فى داجٍ من اللّيل مُسودِّ
فأخلفه منـــه رجاء دوامه ... وبعضُ الأراجى لا تُفيدولا تُجدى

وفى الأوبة بعد الفراق أقول قطعة ، منها :

لقد قرَّت العينان بالقُرب منكمُ ... كما سَخُنت أيامَ يطويكمُ البُعدُ
فلله فيما قد مَضى الصبرُ والرِّضى ... ولله فيما قد قَضى الشكرُ والحمد

(١) فى الأصل بياض

خبر : ولقد نُعى إلىّ بعضُ مَن كنتُ أحب من بلده نازحة ، فقمتُ فارًّا بنفسى نحو المقابر وجعلتُ أمشى بينها وأقول :

وَددْتُ بأنّ ظهر الأرض بطنٌ … وأن البطن منها صار ظَهرا
وأنى متُّ قبل وُرود خَطب … أتى فأثار فى الأكباد جَمرا
وأن دَمى لمن قد بان غُسْل … وأنّ ضُلوعَ صدرى كُنّ قَبرا

ثم اتصل بعد حين تكذيبُ ذلك الخبر فقلت :

بُشرى أتتْ واليأسُ مُستحكم … والقلبُ فى سَبْع طِبَاق شِدَاد
كَسَت فؤادى خُضرة بعد ما … كان فؤادى لابساً للحِداد
جلّى سوادَ الغمّ عنى كما … يُجْلى بلون الشمس لونُ السواد
هذا وما آمُل وصلاً سوى … صِدْقَ وفاء بقَديم الوِداد
فالمُزن قد تُطلب لا للحَيا … لكنْ لظلٍّ بارد ذى امتداد

ويقع فى هذين الصنفين من البَين الوداع ، أعنى رحِيلَ المُحب أو رحيل المحبوب . وإنه لمن المناظر الهائلة والمواقف الصعبة التى تَفتضح فيها عزيمة كل ماضى العزائم ، وتذهب قوة كل ذى بصيرة ، وتسكب كلُّ عين جُمود ، ويظهر مكنون الجوى . وهو فصل من فصول البَيْن يجب التكلّم فيه ، كالعتاب فى باب الهجر . ولعمرى لو أن ظريفاً يموت فى ساعة الوداع لكان معذوراً إذا تفكّر فيما يحُل به بعد ساعة من انقطاع الآمال ، وحلول الأوجال ، وتبدّل السرور بالحزن . وإنها ساعة تُرِقّ القلوب القاسية ، وتُلين الأفئدة الغلاظ . وإن حركة الرأس وإدمان النظر والزّفرة بعد الوداع لهاتكةٌ حجابَ القلب ، ومُوصلة إليه من الجزع بمقدار ما تفعل حركةُ الوجه فى ضد هذا .

والإشارة بالعين والتبسّم ومواطن المُوافقة والوداع ينقسم قسمين ، أحدهما لا يتمكّن فيه إلا بالنظر والإشارة ، والثانى يتمكن فيه بالعناق والملازمة ، وربما

لعلّه كان لا يُمكن قبل ذلك البتة مع تجاور المحال وإمكان التلاقى ، ولهذا تمنى بعض الشعراء البَيْنَ ومدحوا يوم النوى ، وما ذاك بحسن ولا بصواب ولا بالأصيل من الرأى، فما يفى سرورُ ساعة بحزن ساعات فكيف إذا كان البين أياماً وشهوراً وربما أعواماً ، وهذا سوء من النظر ومعْوجّ من القياس، وإنما أثنيتُ على النوى فى شعرى تمنّياً لرجوع يومها ، فيكون فى كل يوم لقاء ووداع. على أن تحمُّل مضض هذا الاسم الكريه ، وذلك عندما يمضى من الأيام التى لا التقاء فيها ، يرغِّب المحب عن يوم الفراق لو أمكنه فى كل يوم . وفى الصنف الأول من الوداع أقول شعراً ، منه :

تَنوبُ عن بَهجة الأنوار بهجتُه كما تَنوب عن النِّيران أنفاسى

وفى الصنف الثانى من الوداع أقول شعراً ، منه :

وجهٌ تَخِرّ له الأنوار ساجدةً والوجهُ تمٌّ فلم يَنقُص ولم يَزدِ
دِفْءٌ وشمسُ الضحى بالجدْى نازلة وبارد باعمٌ والشمسُ فى الأسَدِ

ومنه :

يوم الفِراق لعمرى لستُ أَكْرهه أصلاً وإن شَتَّ شملُ الروح عن جَسدى
ففيه عانقتُ من أهوى بلا جَزع وكان من قبله إن سِيل لم يَجُد
أليس من عَجب [دمعى] وعَبرتها يومُ الوصال ليوم البَين ذو حَسد

وهل هجس فى الأفكار أو قام فى الظنون أشنعُ وأوجع من هَجر عِتاب وقع بين مُحبِّين ، ثم فجأتْهما النوى قبل حُلول الصُّلح وانحلال عُقدة الهجران ، فقاما إلى الوداع وقد نُسى العِتاب ، وجاء ماطَمّ على القُوى وأطار الكرى . وفيه أقول شعراً ، منه :

وقد سقط العَتْب المُقدَّم وامحَّى وجاءت جُيوش البَيْن تجرى وتُسرِعُ
وقد ذعر البينُ الصدودَ فراعه فولَّى فما يُدْرَى له اليومَ موضعُ

كذئب خلاَ بالصَّيد حتى أضلّه ... هِزَبْرٌ له من جانب الغِيلِ مَطْلع
لئن سَرَّنى فى طَرْده الهجرَ أننى ... لإبعاده عنّى الحبيبَ لمُوجَع
ولا بُد عند الموت من بعض راحة ... وفى غَيِّها الموتُ الوحِيّ المُصرِّع

وأعرف من أتى ليُودِّع محبوبَه يوم الفراق فوجده قد فات ، فوقف على آثاره ساعة وتردّد فى الموضع الذى كان فيه ثم انصرف كئيباً متغيِّر اللون كاسف البال ، فما كان بعد أيام قلائل حتى اعتل ومات رحمه الله .

وإن للبين فى إظهار السرائر المطوية عملا عجباً ، ولقد رأيتُ من كان حُبه مكتوماً وبما يَجد فيه مستتراً حتى وقع حادثُ الفراق فباح المكنون وظهر الخفى . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

بذلتَ من الودّ ما كان قبلُ ... منعتَ وأعطيتنيه جُزافاً
ومالى به حاجةٌ عند ذاك ... ولوجُدتَ قبلُ بلغتَ الشِّغافا
وما يَنفع الطبّ عند الحِمام ... ويَنفع قبل الرَّدى من تِلاَفا

وأقول :

الآن إذا حلّ الفِراقُ جُدْتَ لى ... بِخَفِىّ حُبّ كنتَ تُبدى بُخْله
فزدتنى فى حسرتى أضعافَها ... وَيْحى فهلاّ كان هذا قبله

ولقد أذكرنى هذا أنى حظيتُ فى بعض الأزمان بمودة رجل من وزراء السلطان أيام جاهه فأظهر بعض الامتساك ، فتركته حتى ذهبت أيامه وانقضت دولته ، فأبدى لى من المودة والأخوة غير قليل ، فقلت :

بَذَلْتَ لىَ الإعراضَ والدهرُ مُقبل ... وتَبذل لى الإقبال والدهرُ مُعرض
وتَبسطنى إذْ ليس ينفع بَسْطُكم ... فهلاّ أبحت البَسْط إذا كنت تقبض

ثم بَيْنُ الموت وهو الفوت ، وهو الذى لا يُرجى له إياب ، وهو المصيبة

الحالة وهو قاصمة الظهر ، وداهية الدهر ،وهو الويل ، وهو المُغطِّى على ظلمة الليل ؛ وهو قاطع كل رجاء ، وماحى كل طمع والمؤيس من اللقاء . وهنا حادت الألسن وانجذم حبل العلاج ،فلاحيلة إلا الصبر طوعاً أو كرهاً . هو أجلّ ما يُبتلى به المحبون ، فما لمن دهى به إلا النوح والبكاء إلى أن يتلف أو يَملّ ، فهى القرحة التى لا تُنكى ، والوجع الذى لا يفْنى ، وهو الغمّ الذى يتجدّد على قدر بلاء من اعتمدته ، وفيه أقول :

كُلّ بَيْنٍ واقعٍ فمُرجّى لم يَفُت
لا تَعجّل قَنِطاً لم يَفُتْ مَن لم يَمُت
والذى قد مات فاليأس عنه قد ثَبت

وقد رأينا مَن عَرض له هذا كثيراً . وعنى أخبرك أنى أحدُ من دُهى بهذه الفادحة وتعجّلت له هذه المصيبة ، وذلك أنى كنتُ أشدَّ الناس كلفاً وأعظمهم حُبّا بجارية لى ، كانت فيما خلا اسمها نُعْم . وكانت أمنيةَ المتمنِّى وغايةَ الحسن خَلْقاً وخُلقاً ومُوافقة لى ، وكنت أنا عذرها ، وكنا قد تكافأنا المودة ، ففجعتْنى بها الأقدار واخترمتها الليالى ومرُّ النهار ، وصارت ثالثةَ التراب والأحجار . وسنّى حين وفاتها دون العشرين سنة ، وكانت هى دونى فى السن، فلقد أقمتُ بعدها سبعةَ أشهر لا أتجرّد عن ثيابى ولا تَفتر لى دمعة على جُمود عينى وقلة إسعادها . وعلى ذلك فوالله ما سلوتُ حتى الآن . ولو قُبل فداء لفديتها بكل ما أملك من تالد وطارف وببعض أعضاء جسمى العزيزة علىّ مُسارعاً طائعاً . وما طاب لى عيش بعدها ولا نسيتُ ذكرها ولا أنِسْتُ بسواها . ولقد عَفّى حُبى لها على كل ما قبله ، وحرّم ما كان بعده . ومما قلتُ فيها :

مُهذّبة بَيضاء كالشّمس إن بدتْ وسائر ربّاتِ الحِجال نُجوم

أطار هواها القلبَ عن مُستقرِّه ... فبعدٌ وقوعٍ ظلّ وهو يحوم

ومن مراثىّ فيها قصيدةٌ ، منها :

كأنى لم آنسْ بألفاظِك التى ... على عُقَد الألباب هُنَّ نوافثُ

ولم أتحكّم فى الأمانى كأننى ... لإفراط ما حُكِّمتُ فيهنّ عابث

ومنها :

ويُبدِين إعراضاً وهنّ أوالف ... ويُقْسِمن فى هَجْرى وهن حَوانثُ

وأقول أيضاً فى قصيدة أخاطب فيها ابن عمى أبا المُغيرة عبد الوهاب أحمد ابن عبد الرحمن بن حَزم بن غالب وأقرضه ، فأقول :

قِفا فاسألا الأطلالَ أين قَطِينُها ... أمرّتْ عليها بالبِلَى الملَوان

على دارسات مُقْفِرات عَواطل ... كأنّ المَغانى فى الخفاء مَعانى

واختلف الناسُ فى أى الأمرين أشدّ : البينُ أم الهجر ؟ وكلاهما مُرتقًى صعب وموت أحمر وبليّة سوداء وسنة شَهباء . وكُل يستبشع من هذين ما ضادّ طبعَه ، فأما ذو النفس الأبية ، الألوف الحنانة ، الثابتة على العهد ، فلا شىء يعدل عنده مُصيبة البَين ، لأنه أتى قصداً ، وتعمدتْه النوائب عمداً ، فلا يجد شيئاً يسلىّ نفسه ولا يصرف فكرته فى معنى من المعانى إلا وجد باعثاً على صُبابته ، ومحركاً لأشجانه ، وعليه لا له ، وحجّة لوجده ، وحاضّا على البكاء على إلفه . وأما الهجر فهو داعية السلو ، ورائد الإقلاع .

وأما ذو النفس التوّاقة الكثيرة النزوع والتطلع ، القلوق العزوف ، فالهجر داؤه وجالب حَتفه . والبين له مسلاة ومنساة .

وأما أنا فالموت عندى أسهل من الفراق ، وما الهجر إلا جالب للكمد فقط ، ويوشك إن دام أن يحدث إضراراً ، وفى ذلك أقول :

وقالوا ارتحل فلعلّ السُّلوّ يكون وتَرغب أن تَرْغَبه
فقلت الرّدى لى قبل السلوّ ومَن يَشرب السمّ عن تَجْربه

وأقول :

سَبَى مُهْجتى هَواهُ وأودتْ بها نَوَاهُ
كأنّ الغرام ضَيف ورُوحى غَدَا قِرَاهُ

ولقد رأيت من يستعمل هجر محبوبه ويتعمده خوفاً من مرارة يوم البَيْن وما يحدث به من لوعة الأسف عند التفرق ، وهذا وإن لم يكن عندى من المذاهب المرضية ، فهو حجة قاطعة . على أن البين أصعب من الهجر ، وكيف لا وفى الناس من يلوذ بالهجر خوفاً من البين ، ولم أجد أحداً فى الدنيا يلوذ بالبين خوفاً من الهجر ، وإنما يأخذ الناس أبداً الأسهل ويتكلفون الأهون . وإنما قلنا إنه ليس من المذاهب المحمودة لأن أصحابه قد استعجلوا البلاء قبل نزوله ، وتجرعوا غصة الصبر قبل وقتها . ولعل ما تخوّفوه لا يكون وليس من يتعجل المكروه ، وهو على غير يقين مما يتعجل ، بحكيم ، وفيه أقول شعراً ، منه :

لَبِس الصبُّ للصبابة بَيْناً ليس من جانَب الأحبة منّا
كغَنِىّ يعيش عيشَ فقيرٍ خوفَ فَقْر وفقرُه قد أبنّا

وأذكر لأبن عمى أبى المغيرة هذا المعنى ، من أن البين أصعب من الصد ، أبياتاً من قصيدة خاطبنى بها وهو ابن سبعة عشر عاما أو نحوها ، وهى :

أجزعْتَ أن أزف الرّحيل ولهِتَ أن نُصَّ الذّميل
كلاَّ مُصابك فادحٌ وأجَلْ فراقُهم جَليل
كَذَب الألى زعموا بأنّ الصد مرتعُه وَبيل

لم يَعرفوا كُنه الغليـ ـل وقد تحمّلت الحمول
أما الفـــراق فإنه للموت إن أهوَى ذَليـل

ولى فى هذا المعنى قصيدة مطولة ، أولها :

لا مِثْل يَوْمك ضَحْوة التَّنْعيم فى مَنْظر حَسَن وفى تَنْغِيم
قد كان ذاك اليومُ نَدْرة عاقرٍ وصوابَ خاطئة ووُلْد عَقِيم
أيّامَ برقُ الوَصْل ليس بِخُلَّبٍ عندى ولا رَوْضُ الهوى بهَشِيم
من كل غانية تقول ثُديُّها سِيرى أمامك والإزارُ أقِيمى
كُلٌّ يُجاذبها فحُمْرة خَدّها خَجَلٌ من التأخير والتَّقديم
ما بى سوى تلك العُيون وليس فى بُرْئى سواها فى الوَرى بِزَعيم
مثل الأفاعى ليس فى شىء سوَى أجسادها إبْراء لَدْغ سليم

والبَيْن أبكى الشعراء على المَعاهد فأدرُّوا على الرسوم الدموع ، وسقوا الديار ماء الشوق ، وتذكروا ما قد سلف لهم فيها فأعولوا وانتحبوا ، وأحيت الآثار دفين شوقهم فناحوا وبكوا .

ولقد أخبرنى بعضُ الورَّاد من قُرطبة ، وقد آستخبرتُه عنها ، أنه رأى دورنا ببلاط مُغيث ، فى الجانب الغربىّ منها وقد امّحت رسومها ، وطُمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيَّرها البلى وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى موحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن ، وشعاباً مفزعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ، بعد رجال كالليوث ، وخرائد كالدمى تفيض لديهم النعم الفاشية . تبدد شملهم فصاروا فى البلاد أيادى سبا ، فكأن تلك المحاريب المنمقة ، والمقاصير المزينة ، التى كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها ، حين شملها الخراب ، وعمها الهدم ، كأفواه السباع فاغرة ، تؤذن

بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد فى طلبها بعد أن طالما زهدت فى تركها ، وتذكرت أيامى بها ولذاتى فيها وشهور صباى لديها ، مع كواعب إلى مثلهن صبا الحليم ، ومثلت لنفسى كونهن تحت الثرى وفى الآثار النائية والنواحى البعيدة وقد فرقتهن يد الجلاء ، ومزقتهن أكف النوى ، وخيل إلى بصرى بقاء تلك النصبة بعد ما علمته من حسنها وغضارتها ، والمراتب المحكمة التى نشأت فيما لديها ، وخلاء تلك الأفنية بعد تضايقها بأهلها ، وأوهمت سمعى صوت الصدى والهام عليها ، بعد حركة تلك الجماعات التى ربيت بينهم فيها ، وكان ليلها تبعاً لنهارها فى انتشار ساكنها والتقاء عمارها ، فعاد نهارها تبعاً لليلها فى الهدوء والاستيحاش ، فأبكى عينى ، وأوجع قلبى ، وقرع صفاة كبدى ، وزاد فى بلاء لبى ، فقلت شعراً ، منه :

لئن كان أظمانا فقد طالما سَقَى وإن ساءنا فيها فقد طالما سَرَّا

والبَيْن يولّد الحنين والاهتياج والتذكر . وفى ذلك أقول :

ليتَ الغرابَ يُعيد اليومَ لِى فعسى . يَبين بينهُمُ عنِّى فقد وَقفا
أقول والليلُ قد أرخَى أجِلّته وقد تألّى بألاّ ينقضى فوقَى
والنجمُ قد حار فى أفق السماء فما يَمضى ولا هو للتغوير مُنصرفا
تخاله مُخطِئاً أو خائفاً وَجِلاً أو راقباً مَوْعداً أو عاشقاً دَنِفا

باب القنوع

ولا بد للمحب إذا حُرم الوصل ، من القنوع بما يجد ، وإن فى ذلك لمتعللا للنفس ، وشغلا للرجا ، وتجديداً للمنى ، وبعض الراحة. وهو مراتب على قدر الإصابة والتمكُّن .

فأولها الزيارة ، وإنها لأمل من الآمال ، ومن سرىّ ما يسنح فى الدهر مع ما تبدى من الخفر والحياء ، لما يعلمه كل واحد منهما مما فى نفس صاحبه . وهى على وجهين : أحدهما أن يزور المحب محبوبه ، وهذا الوجه واسع . والوجه الثانى أن يزور المحبوب محبه . ولكن لا سبيل إلى غير النظر والحديث الظاهر. وفى ذلك أقول :

فإن تَنْأَ عنّى بالوصال فإننى سأرضى بلَحظ العين إن لم يكن وَصل
فحسبىَ أن ألقاكَ فى اليوم مرةً وما كنتُ أرضى ضِعْفَ ذا منك لى قَبْلُ
كذا همّة الوالى تكون رفيعةً ويرضى خَلاصَ النفس إن وقع العزل

وأما رَجع السلام والمخاطبة فأمل من الآمال ، وإن كنت أنا أقول فى قصيدة لى :

فها أنا ذا أُخفى وأقنع راضياً برَجع سلام إن تَيسّر فى الحين

فإنما هذا لمن ينتقل من مَرتبة إلى ما هو أدنى منها . وإنما يتفاضل المخلوقات فى جميع الأوصاف على قدر إضافتها إلى ما هو فوقها أو دونها . وإنى لأعلم مَن كان يقول لمحبوبه : عِدنى واكذب ، قُنوعاً بأن يُسلِّى نفسه فى وعده وإن كان غير صادق . فقلت فى ذلك :

إن كان وصلُك ليس فيه مَطمع والقربُ ممنوع فعِدْنى واكذب
فعسى التعلّل بالتقائك مُمسِكٌ لحياة قلبٍ بالصُّدود مُعذَّبِ
فلقد يُسلِّى المُجدبين إذا رأوا فى الأُفق يَلْمع ضوءَ بَرْق خُلَّبَ

ومما يدخل فى هذا الباب شىء رأيته ورآه غيرى معى ، أن رجلا من إخوانى جرحه من كان يحبه بمدية ، فلقد رأيته وهو يقبل مكان الجرح ويندبه مرة بعد مرة . فقلت فى ذلك :

يقولون شَجّكَ من همتَ فيه فقلت لعمرىَ ما شَجَّنى

ولكن أحسّ دمى قُرْبه فطار إليـــه ولم يَنْثَنِ
فيا قاتِلِى ظالماً مُحسنا فديتُك مِن ظالم مُحسن

ومن القُنوع أن يُسر الإنسان ويرضى ببعض آلات محبوبه ، وإن له من النفس لموقعاً حسناً وإن لم يكن فيه إلا ما نص الله تعالى علينا ، من ارتداد يعقوب بصيراً حين شم قميص يوسف عليهما السلام . وفى ذلك أقول :

لما مُنعتُ القُرب من سيّدى ولجّ فى هَجرى ولم يُنصفِ
صِرْتُ بإبصارِيَ أثوابه أو بعضَ ما قد مَسّه أكتفى
كذاك يعقوب نبىّ الهُدى إذ شَفّه الُحزن على يوسفِ
شَمَّ قميصاً جاء من عنده وكان مَكنوفاً فمنه شُفِى

وما رأيتُ قط متعاشقين إلاّ وهما يتهاديان خُصل الشعر مبخّرة بالعنبر مرشوشة بماء الورد ، وقد جمعت فى أصلها بالمُصطكى وبالشمع الأبيض المصفىّ. ولُفّت فى تطاريف الوشى والخز وما أشبه ذلك . لتكون تذكرة عند البين .

وأما تهادى المساويك بعد مضغها والمصطكى إثر استعمالها فكثير بين كل متحابين قد حُظِر عليهما اللقاء . وفى ذلك أقول قطعة منها :

أرى ريقَها ماءَ الحياة تيقّناً على أنها لم تُبق لى فى الهوى حَشَى

خبر : وأخبرنى بعض إخوانى عن سليمان بن أحمد الشاعر أنه رأى ابن سهل الحاجب بجزيرة صقلية ، وذكر أنه كان غاية فى الجمال ، فشاهده يوماً فى بعض المتنزهات ماشياً وامرأة خلفه تنظر إليه ، فلما أبعد أتت إلى المكان الذى قد أثر فيه مشيه فجعلت تقبله وتلثم الأرض التى فيها أثر رجله . وفى ذلك أقول قطعة ، أولها :

يلومونى فى مَوطئ خُفّه خطا ولو عَلموا عاد الذى لام يَحْسُدُ

فيأهل أرضٍ لا تجود سحابُها ... خُذوا بوَصاتى تستقلّوا وتُحمدوا
خُذوا من تُراب فيه موضعُ وَطئه ... وأَضْمِن أن المَحْل عنكم يُبعَّد
فكُل تراب واقعٌ فيه رِجْلهُ ... فذاك صعيدٌ طيّب ليس يُجْحد
كذلك فِعْل السامريّ وقد بدا ... لعينيه من جِبْريل إثْر مُمجَّد
فصيّر جوف العِجل من ذلك الثرى ... فقام له منه خُوَار ممدَّد

وأقول :

لقد بُورِكتَ أرض بها أنت قاطنٌ ... وبُورك مَن فيها وَحلّ بها السَّعدُ
فأحجارُها دُرٌّ وسَعْدانها وَرْد ... وأمواهها شُهد وتُربتها نَدّ

ومن القُنوع الرِّضا بمَزار الطَّيف ، وتسليم الخيال . وهذا إنما يحدُث عن ذكر لا يفارق ، وعهد لا يحول ، وفكر لا ينقضى . فإذا نامت العيون وهدأت الحركات سرى الطيف . وفى ذلك أقول :

زار الخيالُ فتًى طالت صَبابتُه ... على احتفاظ من الحُرّاس والحَفَظه
فبِتُّ فى لَيلتى جَذْلان مُبتهجاً ... ولذّة الطّيف تُنسى لذَّة اليقَظة

وأقول :

أتَى طيفُ نُعْم مَضْجعى بعد هَدْأة ... ولَّليل سُلطانٌ وظِلٌّ مُمدَّد
وَعهدى بها تحت التُّراب مُقيمةٌ ... وجاءت كما قد كنتُ من قبل أعهد
فعُدْنا كما كُنّا وعاد زَماننا ... كما قد عَهِدْنا قبلُ والعَوْد أحمد

وللشعراء فى علّة مَزار الطيف أقاويل بديعة بعيدة المرمى ، مخترعة ، كلٌّ سبق إلى معنى من المعانى ، فأبو إسحاق بن سيار النظام رأس المعتزلة جعل علة مزار الطيف خوف الأرواح من الرقيب المرقب ، على بهاء الأبدان . وأبو تمام حبيب بن أوس الطائى جعل علته أن نكاح الطيف لا يفسد الحب ونكاح الحقيقة يفسده . والبحترى جعل علة إقباله استضاءته بنار وجده ، وعلة زواله خوف

الغرق فى دموعه . وأنا أقول من غير أن أمثل شعرى بأشعارهم ، فلهم فضل التقدم والسابقة وإنما نحن لاقطون وهم الحاصدون ، ولكن اقتداء بهم وجرياً فى ميدانهم وتتبعاً لطريقتهم التى نهجوا وأوضحوا ، أبياتاً بينت فيها مزار الطيف متقطَّعة :

أغارُ عليكِ من إدراك طَرْفى وأُشفق أن يُذيبك لَمسُ كَفِّى

فأَمتنع اللقــاءَ حِذارَ هــذا وأعتمــد التلاقى حين أغفى

فرُوحى إن أنم بك ذو انفرادٍ من الأعضاء مُستترٌ ومخفى

ووصل الرُّوح ألطفُ فيك وَقْماً من الجِسم المواصل ألف ضِعْف

وحال المزور فى المنام ينقسم أقساماً أربعة : أحدها محب مهجور قد تطاول غمه ، ثم رأى فى هجعته أن حبيبه وصله فسر بذلك وابتهج ، ثم استيقظ فأسف وتلهف حيث علم أن ما كان فيه أمانى النفس وحديثها . وفى ذلك أقول :

أنت فى مَشرق النهـار بَخيلٌ وإذا الليلُ جُنّ كُنت كريماً

تجعل الشَّمس منك لى عوضاً هيـ ـهات ماذا الفِعَالُ منك قويماً

زارنى طيفُكِ البعيـدُ فيأتى واصــلاً لى وعائداً ونَدِيماً

غير أنِّى منعتْنَى من تمام العَيـ ـش لكن أَبحتَ لى التَّشْميا

فكأنّى من أهل الأعراف لاالفِرْ دوس دارِى ولا أخاف الجحِيما

والثانى محب مواصل مشفق من تغير يقع ، قد رأى فى وسنه أن حبيبه يهجره فاغتم لذلك غما شديداً ، ثم هب من نومه فعلم أن ذلك باطل وبعض وساوس الإشفاق .

والثالث محب دانى الديار يرى أن التنائى قدفدحه ، فيكترث ويوجل ، ثم ينتبه فيذهب ما به ويعود فرحاً . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

رأيتُك فى نومى كأنك راحلٌ وقُمنا إلى التوديع والدمعُ هامل

وزال الكَرى عنِّى وأنت مُعانقى وغمِّىَ إذ عاينتُ ذلك زائل

فجدّدت تعنيقاً وضماً كأننى عليك من البَيْن المَفرِّق واجل

والرابع محب نائى لمزار ، يرى أن المزار قد دنا ، والمنازل قد تصاقبت ، فيرتاح ويأنس إلى فقد الأسى ، ثم يقوم من سنته[1] فيرى أن ذلك غير صحيح ، فيعود إلى أشد ما كان فيه من الغم ، وقد جعلت فى بعض قولى علة النوم الطمع فى طيف الخيال ، فقلت :

طاف الخيالُ على مُستهتَر كَلِفٍ لولا ارتقابُ مزار الطَّيف لم يَنَم
لاتَعجَبوا إذ سرى والليلُ مُعتكر فنُوره مُوهب فى الأرض للظلم

ومن القنوع أن يقنع المحب بالنظر إلى الجدران ورؤية الحيطان التى تحتوى على من يحب ، وقد رأينا مَن هذه صفته . ولقد حدثنى أبو الوليد أحمد بن محمد ابن إسحاق الخازن رحمه الله عن رجل جليل ، أنه حدث عن نفسه بمثل هذا .

ومن القنوع أن يرتاح المحب ، إلى أن يرى من رأى محبوبه ويأنس به ومن أتى من بلاده ، وهذا كثير . وفى ذلك أقول :

توحَّش من سكّانه فكأنهم مساكنُ عادٍ أعقبته ثمودُ

ومما يدخل فى هذا الباب أبيات لى ، موجبها أنى تنزهت أنا وجماعة من إخوانى من أهل الأدب والشرف إلى بستان لرجل من أصحابنا ، فجلنا ساعة ثم أفضى بنا القعود إلى مكان دونه يتمنى، فتمددنا فى رياض أريضة ، وأرض عريضة ، للبصر فيها منفسح ، وللنفس لديها مسرح ، بين جداول تطرد كأباريق اللجين ، وأطيار تغرد بألحان تزرى بما أبدعه معبد والغريض ، وثمار مهدّلة قد ذللت للأيدى ودنت للمتناول ، وظلال مظللة تلاحظنا الشمس من بينها فتتصور بين أيدينا كرقاع الشطرنج والثياب المدبجة ، وماء عذب يوجدك حقيقة طعم الحياة ، وأنهار متدفقة تنساب كبطون الحيات لها خرير يقوم ويهدأ ، ونواوير مونقة مختلفة الألوان تصفقها الرياح الطيبة النسيم ، وهواء سجسج ، وأخلاق جلاس

(١) نومه .

تفوق كل هذا ، فى يوم ربيعى ذى شمس ظليلة ، تارة يغطيها الغيم الرقيق والمزن اللطيف ، وتارة تتجلى ، فهى كالعذراء الخفرة والخريدة الخجلة تتراءى لعاشقها من بين الأستار ثم تغيب فيها ، حذر عين مراقبة . وكان بعضنا مطرقاً كأنه يحادث أخرى ، وذلك لسر كان له ، فعرض لى بذلك ، وتداعبنا حيناً فكلفت أن أقول على لسانه شيئاً فى ذلك ، فقلت بديهة ، وما كتبوها إلا من تذكرها بعد انصرافنا ، وهى :

ولما تروّحنا بأكنافِ روضةٍ — مُهدَّلة الأفنان فى تُرْبها النَّدى
وقد ضحكتْ أنوارُها وتضوَّعت — أساورُها فى ظلٍّ فَىْءٍ ممـدَّد
وأبدتْ لنا الأطيارُ حُسن صَرِيْنها — فمن بين شالكٍ شَجْوَهُ ومُغرّد
وللمـــاء فيما بيننا متصرّف — وللعين مُرْتاد هناك ولليَـد
وماشِئْتَ من أخلاقِ أروعَ ماجدٍ — كريمِ السجايا للفَخار مُشَيِّـد
تنَغِّص عندى كلَّ ما قد وصفتُه — ولم يَهْنِنى إذْ غاب عنِّىَ سيدى
فياليتنى فى السّجن وهو مُعانقِى — وأنتمْ معاً فى قَصر دار الجدّد
فمن رام منا أن يُبدِّل حاله — بحال أخيـه أو بمُلْكٍ مخلّد
فلا عاش إلا فى شَقاء ونَـكْبة — ولا زال فى بُؤْسَى وخزى مُردّد

فقال هو ومن حضر : آمين آمين . وهذه الوُجوه التى عدَّدت وأوردت فى حقائق القناعة هى الموجودة فى أهل المودة ، بلا تزيد ولا إعياء .

وللشعراء فن من القُنوع أرادوا فيه إظهارَ غرضهم وإبانة اقتدارهم على المعانى الغامضة والمرامى البعيدة ، وكلٌّ قال على قدر قوة طبعه ، إلا أنه تحكم باللسان وتشدق فى الـكلام واستطال بالبيان ، وهو غير صحيح فى الأصل .

فمنهم من قنع بأن السماء تظله هو ومحبوبه والأرض تقلهما . ومنهم من قنع باستوائهما فى إحاطة الليل والنهار بهما ، وأشباه هذا . كل مبادر إلى احتواء

الغاية فى الاستقصاء ، وإحراز قصب السبق فى التدقيق . ولى فى هذا المعنى قول لا يمكن لمتعقب أن يجد بعده متناولا ، ولا وراءه مكاناً ، مع تبيينى علة قرب المسافة البعيدة ، وهو :

وقالوا بعيدٌ قلتُ حَسبى بأنه معى فى زَمان لا يُطيق مَحيدا
تَمُرُ علىَّ الشمسُ مثلَ مُرورها به كُلَّ يوم يَستنير جـــديدا
فمَن ليس بينى فى المسير وبينه سوى قَطْع يومٍ هل يكون بعيدا
وعِلْم إله الخلق يَجمعنا معاً كفى ذا التّدانى ما أريد مَزيدا

فبينت كما ترى أنى قانع بالاجتماع مع من أحب فى علم الله ، الذى السموات والأفلاك والعوالم كلها وجميع الموجودات لا تنفصل منه ولا تتجزأ فيه ولا يشذ عنه منها شىء ، ثم اقتصرت من علم الله تعالى على أنه فى زمان ، وهذا أعم مما قاله غيرى فى إحاطة الليل والنهار ، وإن كان الظاهر واحداً فى البادى إلى السامع ؛ لأن كل المخلوقات واقعة تحت الزمان ، وإنما الزمان اسم موضوع لمرور الساعات وقَطع الفلك وحركاته وأجرامه ، والليل والنهار متولدان عن طلوع الشمس وغروبها ، وهما متناهيان فى بعض العالم الأعلى ، وليس هكذا الزمان ، فإنهما بعض الزمان. وإن كان لبعض الفلاسفة قول إن الظل متماد، فهذا يخطئه العيان، وعلل الرد عليه بينة ليس هذا موضعها ، ثم بينت أنه وإن كان فى أقصى المعمور من المشرق وأنا فى أقصى المعمور من المغرب ، وهذا طول السكنى ، فليس بينى وبينه إلا مسافة يوم ؛ إذ الشمس تبدو فى أول النهار أول المشارق وتغرب فى آخر النهار فى آخر المغارب .

ومن القنوع :فصل أورده وأستعيذ بالله منه ومن أهله ، وأحمده على ما عرف نفوسنا من منافرته ، وهو أن يضل العقل جملة، ويفسد القريحة ، ويتلف التمييز . ويهون الصعب ،ويذهب الغيرة ، ويعدم الأنفة ، فيرضى الإنسان بالمشاركة فيما

يحب . وقد عرض هذا لقوم . أعاذنا الله من البلاء . وهذا لا يصح إلا مع كابية في الطبع ، وسقوط من العقل الذى هو عيار[1] على ما تحته ، وضعف حسن. ويؤيد هذا كله حب شديد مُعم . فإذا اجتمعت هذه الأشياء وتلاحقت بمزاج الطبائع ودخول بعضها فى بعض نتج بينهما هذا الطبع الخسيس وتولدت هذه الصفة الرذلة ، وقام منها هذا الفعل المقذور القبيح ، وأما رجل معه أقل همة وأيسر مروءة فهذا منه أبعد من الثريا ولو مات وجداً وتقطع حباً ،وفى ذلك أقول زارياً على بعض المساحين فى هذا الفصل :

رأيتك رَحْبَ الصدر ترضَى بما أتَى ... وأفضلُ شىء أن تلينَ وتَسْمحا
فحظُّكَ من بعض السوانى مُفضَّـل ... على أن يحوز الملكُ من أصلها الرَّحى
وعُضْو بعير فيه فى الوزن ضِعْف ما ... تُقدِّره فى الجدْىِ فاعص الذى لحا
والْعب الذى تهوى بسَيْنين مُعْجِب ... فكُنْ ناحياً فى نحوه كيفما نَحا

باب الضنى

ولا بد لكل محب صادق المودة ممنوع الوصل ، إما ببين وإما بهجر وإما بكتمان واقع لمعنى ، من أن يؤول إلى حد السقام والضنى والنحول ، وربما أضجعه ذلك . وهذا الأمر كثير جدا موجود أبداً ، والأعراض الواقعة من المحبة غير العلل الواقعة من هجمات العلل ، ويميزها الطبيب الحاذق والمتفرس الناقد . وفى ذلك أقول :

يقول لى الطبيبُ بغير علم ... تداوَ فأنت يا هذا عليلُ
ودائى ليس يَدريه سوَائى ... وربٌّ قادرٌ مَلِكٌ جليل
أأ كتُمه ويكشفه شهيق ... يُلازمنى وإطْراق طويل

---

(١) قوى متسلط.

ووجهٌ شاهداتُ الُحزن فيه وجِسْمٌ كالَخيال ضنٍ نَحِيل
وأثبتُ ما يكون الأمر يوماً بلاشك إذا صحّ الدليـــل
فقلتُ له أبِنْ عنّى قليـلا فلا والله تَعْرف ما تقول
فقال أرى نُحُولاً زاد جدًّا وعلّتك التى تشكو ذُبول
فقلتُ له الذُّبول تَعِلّ منه الا جَوارح وهى حُمّى تَستحيل
وما أشكو لعمرُ الله حُمّى وإنّ الحَرّ فى جسمى قَليــل
فقال أرى التفاتاً وارتقاباً وأفكاراً وصَمْتاً لا يزول
وأحسب أنها السوداء فانظُر لنفسِك أنهـا عرَض ثقيل
فقلت له كلامُك ذا مُحال فمـا للدّمع مِن عينى يَسيل
فأطرق باهتاً ممَّا رآه ألا فى مثل ذا بُهت النَّبيل
فقلتُ له دوائى منـــه دائى إلا فى مثل ذا ضَلّت عُقول
وشاهد ما أقول يُرى عياناً فُروع النَّبت إن عكُست أصول
وترياق الأفاعى ليس شىء سواه ببُرء ما لَدغت كَفيل

وحدثنى أبو بكر بن محمد بن بقىّ الحجرى، وكان حكيم الطبع عاقلاً فهيماً، عن رجل من شيوخنا لا يمكن ذكره، أنه كان ببغداد فى خانٍ من خاناتها فرأى ابنة لوكيلة الخان فأحبها وتزوّجها، فلما خلا بها نظرت إليه وكانت بكراً، وهو قد تكشف لبعض حاجته، فراعها كبر أيره، ففرّت إلى أمها وتفادت منه. فرام بها كلّ من حواليها أن تردّ إليه، فأبت وكادت أن تموت، ففارقها ثم ندم، ورام أن يُراجعها فلم يُمكنه، واستعان بالأبهرى وغيره. فلم يقدر أحد منهم على حيلة فى أمره، فاختلط عقله وأقام فى المارستان يُعانى مدة طويلة حتى نَقِه وسَــلاَ وما كاد، ولقد كان إذا ذكرها يتنفس الصعداء.

وقد تقدّم فى أشعارى المذكورة فى هذه الرسالة: من صفة النحول مفرقاً

ما استغنيت به عن أن أذكر هنا مِن سواها شيئاً خوف الإطالة . والله المعين والمستعان .

وربما ترقّت إلى أن يغلب المرء على عقله ويحال بينه وبين ذهنه فيوسوس .

خبر : وإنى لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القوّاد ، وقد بلغ بها حب فتى من إخوانى جداً من أبناء الكتاب مبلغ هيجان المرار الأسود ، وكادت تختلط . واشتهر الأمر وشاع جدا حتى علمناه وعلمه الأباعد إلى أن تدوركت بالعلاج ، وهذا إنما يتولد عن إدمان الفكر ، فإذا غلبت الفكرة وتمكن الخلط التداوى خرج الأمر عن حد الحب إلى حد الولَه والجنون ، وإذا أغفل التداوى فى الأول إلى المعاناة قوى جداً ولم يوجد له دواء سوى الوصال ، ومن بعض ما كتبتُ إليه قطعة ، منها :

قد سلبتَ الفؤاد منها آختلاساً أى خلق يعيش دون فُؤاد

فأغثها بالوَصل تحْى شريفاً وتَفُز بالثواب يومَ المَعاد

وأراها تَعتاض إنْ دام هذا من خَلاخيلها حُلَى الأقياد

أنت حقًّا مُتيَّم الشّمس حتى عشقها بين ذا الورى لك بادِى

خبر : وحدثنى جعفر مولى أحمد بن محمد بن جدير ، المعروف بالبلبينّى : أن سبب اختلاط مروان بن يحيى بن أحمد بن جُدير وذهاب عقله اعتلاقُه بجارية لأخيه ، فمنعها منه وباعها لغيره ، وما كان فى إخوته مثله ولا أتم أدباً منه .

وأخبرنى أبو العافية مولى محمد بن عباس بن أبى عبدة ، أن سبب جُنون يحيى بن أحمد بن عباس بن أبى عبدة بيع جارية له كان يجد بها وجداً شديداً ، كانت أمه أباعتها وذهبت إلى إنكاحه من بعض العامريّات .

فهذان رجلان جليلان مشهوران فَقَدا عقولهما واختلطا وصارا فى القيود والأغلال ، فأما مروان فأصابته ضربة مخطئة يوم دخول البَربر قُرطبة وانتهائهم إليها ، فتُوفى رحمه الله . وأما يحيى بن محمد فهو حىّ على حالته المذكورة فى حين كِتابتى لرسالتى هذه ، وقد رأيته أنا مراراً وجالسته فى القصر قبل أن يُمتحن بهذه المحنة . وكان أستاذى وأستاذ الفقيه أبو الخيار اللُّغوى . وكان يحيى لعمرى حُلوًا من الفتيانِ نبيلا .

وأما من دون هذه الطبقة فقد رأينا منهم كثيراً ، ولكن لم نُسمِّهم لخفائهم ، وهذه درجة إذا بلغ المشغوف إليها فقد آنبت[1] الرجاء وآنصرم[1] الطمع ، فلا دواء له بالوصل ولا بغيره ، إذ قد استحكم الفساد فى الدماغ ، وتَلِفت المعرفة ، وتغلبت الآفة . أعاذنا الله من البلاء بطوله ، وكفانا النقم بمنه .

باب السلو

وقد علمنا أن كل ماله أول فلا بد له من آخر ، حاشى نعيم الله عز وجل ، الجنة لأوليائه وعذابه بالنار لأعدائه . وأما أعراض الدنيا فنافذة فانية وزائلة مضمحلة ، وعاقبة كل حب إلى أحد أمرين : إما اخترام منية ، وإما سلو حادث. وقد نجد النفس تغلب عليها بعض القوى المصرفة معها فى الجسد، فكما نجد نفساً ترفض الراحات والملاذ للعمل فى طاعة الله تعالى وللرياء فى الدنيا ، حتى تشتهر بالزهد ، فكذلك نجد نفساً تنصرف عن الرغبة فى لقاء شكلها للأنفة المستحكمة المنافرة للغدر ، أو استمرار سوء المكافأة فى الضمير ، وهذا أصح السلو . وما كان من غير هذين الشيئين فليس إلا مذموماً . والسلو المتولد من الهجر وطوله إنما هو كاليأس يدخل على النفس من بلوغها إلى أملها ، فيفتر

---

(١) كلا الكلمتين : بمعنى انقطع .

نزاعها ولا تهوى رغبتها . ولى فى ذم السلو قصيدة منها :

إذا مارنت فالحىُّ مَيْت بلَحْظها   وإن نَطَقت قُلْتَ السلام رِطَاب
كأنَّ الهوى ضيفٌ ألمَّ بمُهجتى   فلحمى طَعام والنَّجيع(١) شَراب

ومنها :

صَبور على الأزْم الذى العِزُّ خفله   ولو أمطرتْه بالحريق سَحابُ
جَزُوعاً من الراحات إن أنتجت له   خمولاً وفى بعض النّعيم عذاب

والسلو فى التجربة الجميلة ينقسم قسمين : سلو طبيعى وهو المسمى بالنسيان . يخلو به القلب ويفرغ به البال ، ويكون الإنسان كأنه لم يحب قط. وهذا القسم ربما لحق صاحبه الذم لأنه حادث عن أخلاق مذمومة ، وعن أسباب غير موجبة استحقاق النسيان . وستأتى مبينة إن شاء الله تعالى . وربما لم تلحقه اللائمة لعذر صحيح . والثانى سلو تطبعى ، قهر النفس ، وهو المسمى بالتصبر ، فترى المرء يُظهر التجلد وفى قلبه أشد لدغاً من وخَزُ الإشفَى(٢) ، ولكنه يرى بعضَ الشر أهون من بعض، أو يحاسب نفسه بحجة ولا تصرف ولا تكسر . وهذا قسم لا يذم آتيه ، ولا يلام فاعله ، لأنه لا يحدث إلا عن عظيمة ، ولا يقع إلا عن فادحة ، إما لسبب لا يصبر على مثله الأحرار ، وإما لخطب لامرد له تجرى به الاقدار . وكفاك من الموصوف به أنه ليس بناسٍ ولكنه ذاكر ، وذو حنين واقف ، على العهد ، ومتجرِّع مرارات الصبر ، والفرق العامى بين المتصبر والناسى ، أنك ترى المتصبر وإن أبدى غاية الجلد وأظهر سب محبوبه والتحمل عليه ، يحتمل ذلك من غيره . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

دعونى وسَبِّى للحبيب فإننى   وإن كنتُ أُبدى الهجر لستُ مُعادياً
ولكنَّ سبِّى للحَبيب كقولهم   أجاد فلقَّاه الإلهُ الدواهيـا

(١) الدم .
(٢) إبرة الإسكافى أو خائط الجلود ، أو مثقبه .

والناسى ضدّ هذا ، وكل هذا فعلى قدر طبيعة الإنسان وإجابتها وامتناعها وقوة تمكن الحب من القلب أو ضعفه ، وفى ذلك أقول ، وسميت السالى فيه المتصبر ، قطعة منها :

ناسِى الأحبة غيرُ من يَسلوهمُ   حُكْمُ المقصِّر غير حكم المُقْصِر
ما قاصِرٌ للنفس غيرَ مُجيبها   ما الصابر المَطْبوع كالمتصبِّر

والأسباب الموجبة للسلو المنقسم هذين القسمين كثيرة ، وعلى حسبها وبمقدار الواقع منها يُعذر السالى ويُذم .

فمنها المَلل ، وقد قدمنا الكلام عليه ، وإن من كان سُلوه عن مَلل فليس حُبه حقيقة ، والمتسم به صاحبُ دعوى زائفة ، وإنما هو طالب لذة ومبادر شهوة ، والسالى من هذا الوجه ناسٍ مذموم .

ومنها الاستبدال ، وهو وإن كان يُشبه الملل ففيه معنى زائد ، وهو بذلك المعنى أقبح من الأول وصاحبه أحق بالذم .

ومنها حَياء مركَّب يكون فى المُحب يحول بينه وبين التعريض بما يجد ، فيتطاول الأمر ، وتتراخى المدة ، ويبلى جديد المودة ، ويحدُث السلو . وهذا وجه إن كان السالى عنه ناسياً فليس بمُنصف ، إذ منه جاء سببُ الحرمان ، وإن كان متصبراً فليس بملوم ، إذ آثر الحياء على لذة نفسه . وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الحياء من الإيمان والبذاء من النفاق .

وحدثنا أحمد بن محمد عن أحمد بن مطرف عن عبدالله بن يحيى عن أبيه عن مالك عن سلمة بن صَفوان الزرقى عن زيد بن طلحة بن رُكانة يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : لكل دين خُلق وخلق الإسلام الحياء .

فهذه الأسباب الثلاثة أصلها من المُحب وابتداؤها من قِبَله ، والذم لاصق به فى نسيانه لمن يُحب .

ثم منها أسباب أربعة هُن من قبل المحبوب وأصلها عنده ، فمنها :

الهجر ، وقد مرّ تفسير وجوهه . ولا بد لنا أن نورد منه شيئاً فى هذا الباب يوافقه ، والهجر إذا تطاول وكثُر العتاب واتصلت المفارقة يكون باباً إلى السلو، وليس مَن وصلك ثم قَطعك لغيرك من باب الهجر فى شىء ، لأنه الغدر الصحيح ، ولا مَن مال إلى غيرك دون أن يتقدم لك معه صِلةٌ من الهجر أيضاً فى شىء ، إنما ذاك هو النِّفار . وسيقع الكلامُ فى هذين الفصلين بعد هذا إن شاء الله تعالى . لكن الهجر ممن وَصَلك ثم قَطعك لتنقيل واشٍ ، أولذنب واقع،أو لشىء قام فى النفس ، ولم يَمِل إلى سواك ولا أقام أحداً غيرك مُقامك . والناسى فى هذا الفصل من المحبين ملوم دون سائر الأسباب الواقعة من المحبوب ؛ لأنه لا تقع حالة تقيم العذر فى نسيانه،وإنما هو راغب عن وصلك،وهو شىء لا يلزمه . قد تقدم من أذمّة الوصال وحق أيامه ، ما يلزم التذكر ويوجب عهد الألفة ، ولكن السالى على جهة التصبر والتجلد ها هنا معذور ، إذا رأى الهجو متمادياً ولم ير للوصال علامة ولا للمراجعة دلالة . وقد استجاز كثير من الناس أن يُسموا هذا المعنى عذراً ، إذ ظاهرهما واحد ، ولكن علتيهما مختلفتان. فلذلك فرقنا بينهما فى الحقيقة . وأقول فى ذلك شعراً ، منه :

فكُونوا كمن لم أدْر قطُّ فإننى ... كآخَر لم تَدْرُوا ولم تَصِلُوه
أنا كالصَّدى ماقال كُلُّ أُجيبه ... فما شِئْتموه اليومَ فاعتَمِدوه

وأقول أيضاً قطعةً ، ثلاثة أبيات قلتها وأنا نائم ، واستيقظت فأضفت إليها البيت الرابع :

ألاَ لله دَهْرٌ كنتُ فيـه ... أعزُّ علىّ من روُحى وأهلى
فما برحتّ يدُ الهِجران حتى ... طَواك بنانُها طىَّ السجلّ

سقانى الصبر هجر كم كما قد سقانى الحُبَّ وصلُكم بسَجْل
وجَدتُ الوصل أصلَ الوجد حقّا وطُولَ الهَجر أصلاً للتسلى

وأقول أيضاً قطعة :

لو قيل لى من قبل ذا أَنْ سوف تَسْلو من تَودّْ
لحلفتُ ألف قَسامة لا كان ذا أبد الأَبَدْ
وإذا طويلُ الهَجر ما معه من السُّلوان بُدّ
لله هجرُك إنه ساعٍ لبُرئى مُجتهد
فالآنَ أعجب للسلو وكنت أعجب للجَلَد
وأرى هواك كجَمرة تحت الرَّماد لها مدَد

وأقول :

كانت جهنّم فى الحَشى من حُبكمْ فلقد أَراها نار إبراهيما

ثم الأسباب الثلاثة الباقية التى هى من قبل المحبوب ، فالمتصبر من الناس فيها غير مذموم . لما سنُورده إن شاء الله فى كل فصل منها .

فمنها نفار يكون فى المَحبوب وانزواء قاطع للأُطماع .

خبر : وإنى لأخبر عنّى أنى ألفت فى أيام صباى ألفةَ المحبة جاريةً نشأت فى دارنا وكانت فى ذلك الوقت بنتَ ستة عشرَ عاماً ، وكانت غايةً فى حُسن وجهها وعقلها وعفافها وطهارتها وخَفَرها ودماثتها ، عديمةَ الهَزل ؛ منيعة البَذل ، بديعة البِشْر ، مُسْبلة الستر ؛ فقيدةَ الذام ، قليلة الكلام ؛ مغضوضة البصر ، شديدة الحذر ؛ نقية من العيوب ، دائمة القطوب ؛ حلوة الإعراض ، مطبوعة الانقباض ؛ مليحة الصدود ، رزينة العقود ؛ كثيرة الوقار ، مستلذة النفار ، لا توجه الأراجى[1] نحوها ، ولا تقف المطامع عليها ، ولا معرس

(١) لا يتوجه إليها رجاء .

للأمل لديها ، فوجهها جالب كل القلوب ، وحالها طارد من أمّها . تزدان في المَنع والبخل ، ما لا يزدان غيرها بالسماحة والبذل ، موقوفة على الجد في أمرها غير راغبة في اللهو ، على أنها كانت تحسن العود إحساناً جيداً . فجنحت إليها وأحببتها حبا مفرطاً شديداً ، فسعيت عامين أو نحوهما أن تجيبني بكلمة وأسمع من فِيها لفظة ، غير ما يقع في الحديث الظاهر إلى كل سامع ، بأبلغ السعي فما وصلت من ذلك إلى شيء البتة ، فلعهدي بمصطنع كان في دارنا لبعض ما يصطنع له في دور الرؤساء ، تجمعت في دخلتنا ودخلة أخي رحمه الله من النساء ونساء فتياننا ومن لاث بنا من خدمنا ، ممن يخف موضعه ويلطف محله ، فلبثن صدراً من النهار ثم تنقلن إلى قصة(١) كانت في دارنا مشرفة على بستان الدار ويطلع منها على جميع قرطبة وفحوصها(٢) ، مفتحة الأبواب . فصرن ينظرن من خلال الشراجيب(٣) وأنا بينهن ، فإني لأذكر أني كنت أقصد نحو الباب الذي هي فيه أنساً بقربها متعرضاً للدنو منها ، فما هو إلا أن تراني في جوارها فتترك ذلك الباب وتقصد غيره في لطف الحركة ، فأتعمد أنا القصد إلى الباب الذي صارت إليه ، فتعود إلى مثل ذلك الفعل من الزوال إلى غيره . وكانت قد علمت كلفي بها ولم يشعر سائر النسوان بما نحن فيه ، لأنهن كن عدداً كثيراً . وإذ كلهن يتنقلن من باب إلى باب لسبب الاطّلاع من بعض الأبواب على جهات لا يطلع من غيرها عليها .

واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مُدلج في الآثار . ثم نزلن إلى البستان فرغب عجائزنا وكرائمنا إلى سيدتها في سماع غنائها ، فأمرتها ، فأخذت العود وسوته بخفر وخجل لا عهد لي بمثله ، وإن الشيء

---

(١) شرفة

(٢) فحوصها : بيوتها وعمائرها

(٣) الفتحات الضيقة .

يتضاعف حسنه فى عين مستحسنه ، ثم اندفعت تغنى بأبيات العباس بن الأحنف حيث يقول :

إنى طربتُ إلى شمس إذا غَرَبت ... كانت مغاربُها جوفَ المقاصيرِ
شَمْس ممثَّلة فى خُلْق جارية ... كأنّ أعطافها طىّ الطَّوامير
ليستْ من الإنس إلا فى مُناسبة ... ولا من الجنّ إلا فى التّصاوير
فالوجه جوهرة والجسم عَبْهرة ... والرّيح عَنبرة والكلّ من نُور
كأنها حين تَخطو فى مجاسدها ... تخطُو على البِيض أو حدّ القوارير

فلعمرى لكأن المِضراب إنما يقع على قلبى ، وما نسيت ذلك اليوم ولا أنساه إلى يوم مفارقتى الدنيا . وهذا أكثر ما وصلت إليه من التمكّن من رؤيتها وسماع كلامها ، وفى ذلك أقول :

لا تَلُمها على النِّفار ومَنْع الـ ... ـوَصل ما هذا لها بنَكير
هل يكون الهلالُ غيرَ بعيد ... أو يكون الغزال غير نَفور

وأقول :

منعتِ جمالَ وجهك مُقلتيّا ... ولفظُك قد ضننتِ به عليّا
أراكِ نَذرت للرحمن صَوْمًا ... فلستِ تكلّمين اليوم حيّا
وقد غنّيت للعبّاس شعراً ... هنيئا ذا لعبّاسٍ هنيّا
فلو يلقاك عباس لأضحَى ... لفوزٍ قانيا وبكم شَجِيّا

ثم انتقل أبى رحمه الله من دُورنا المحدثة بالجانب الشرقى من قرطبة فى ربض الزاهرة إلى دورنا القديمة فى الجانب الغربى من قرطبة ببلاط مغيث فى اليوم الثالث من قيام أمير المؤمنين محمد المهدى بالخلافة . وانتقلت أنا بانتقاله ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلثمائة ، ولم تنتقل هى بانتقالنا لأمور

أوجبت ذلك . ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات وباعتداء أرباب دولته ، وامتُحنا بالاعتقال والترقيب والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة وألقت باعها وعمت الناس ، وخصتنا ، إلى أن تُوفى أبى الوزير رحمه الله ونحن فى هذه الأحوال بعد العصر يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى القعدة عام اثنتين وأربعمائة . واتصلت بنا تلك الحال بعده إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا فرأيتها . وقد ارتفعت الواعية(١) ، قائمة فى المأتم وسط النساء فى جملة البواكى والنوادب . فلقد أثارت وجداً دفيناً وحركت ساكناً ، وذكرتنى عهداً قديماً وحبا تليداً ودهراً ماضياً وزمناً عافياً وشهوراً خوالى وأخباراً بوالى ودهوراً فوانى وأياماً قد ذهبت وآثاراً قد دثرت ، وجددت أحزانى وهيجت بلابلى ، على أنى كنت فى ذلك النهار مرزأ مصاباً من وجوه ، وما كنت نسيت ولكن زاد الشجى وتوقدت اللاوعة وتأكد الحزن وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامناً فلباه مجيباً . فقلت قطعة ، منها :

يُبكِّى لميت مات وهو مُكَرَّم ... وللحَىِّ أولى بالدُّموع الذَّوارف
فيا عجباً من آسِف لامرئ ثَوى ... وما هو للمَقتول ظُلماً بآسف

ثم ضرب الدهرُ ضرباته وأجلينا عن منازلنا وتغَلّب علينا جند البربر ، فخرجتُ عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة وغابت عن بصرى بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر ، ثم دخلت قرطبة فى شوال سنة تسع وأربعمائة ، فنزلت على بعض نسائنا فرأيتها هنالك ، وما كدت أن أميزها حتى قيل لى هذه فلانة وقد تغيّر أكثر محاسنها ، وذهبت نَضارتها ، وفنيت تلك البهجة ، وغاض ذلك الماء الذى كان يُرى كالسيف الصقيل والمرآة الهندية ، وذبل

---

(١) الصراخ .

ذلك النوار الذى كان البصر يقصد نحوه متنوراً ، ويرتاد فيه متخيراً ، وينصرف عنه متحيراً . فلم يبق إلا البعض المنبىء عن الكل ، والخبر المخبر عن الجميع ، وذلك لقلة اهتبالها [1] بنفسها ، وعدمها الصيانة التى كانت غذيت بها أيام دولتنا وامتداد ظلنا ، ولتبذلها فى الخروج فيما لا بُدَّ لها منه مما كانت تُصان وتُرفع عنه قبل ذلك . وإنما النساء رياحين متى لم تُتعاهد نقصت ، وبنية متى لم يُهتبل بها استهدمت ، ولذلك قال من قال : إن حسن الرجال أصدق صدقاً وأثبت أصلا وأعتق جودة لصبره على ما لو لقى بعضه وجوه النساء لتغيّرت أشد التغير ، مثل الهجير والسموم والرياح واختلاف الهواء وعدم الكنّ ، وإنى لو نلت منها أقلْ وصل وأنسِتْ لى بعض الأنس لخُولطت طرباً أو لمتُّ فرحاً ، ولكن هذا النفار الذى صبَّرنى وأسلانى .

وهذا الوجه من أسباب السلو صاحبه فى كلا الوجهين مَعذور وغير ملوم ؛ إذ لم يقع تثبُّت يوجب الوفاء ، ولا عهد يقتضى المُحافظة ، ولا سالف ذمام ، ولا فرط تصادف يُلام على تضييعه ونسيانه .

ومنها جفاء يكون من المَحبوب ، فإذا أفرط فيه وأسرف وصادف من المُحب نفساً لها بعضُ الأنفة والعزة تسلّى ، وإذا كان الجفاء يسيراً منقطعاً أو دائماً أو كبيراً منقطعاً احتمل وأغضى عليه ، حتى إذا كثر ودام فلا بقاء عليه . ولا يلام الناس لمن يحب فى مثل هذا .

ومنها الغدر ، وهو الذى لا يحتمله أحد ، ولا يُغضى عليه كريم ، وهو المسلاة حقا . ولا يلام السالى عنه على أى وجه كان ناسياً أو مُتصبِّراً ، بل اللائمة لاحقة لمن صبر عليه . ولولا أن القلوب بيد مُقلِّبها لا إله إلا هو ولا يكلّف

---

(١) اهتمامها .

المرء صرف قلبه ولا إحاطة استحسانه ، لولا ذاك لقلت إن المتصبر فى سلوّ مع الغدر يكاد أن يستحق الملامة والتعنيف . ولا أدْعَى إلى السلو عند الحر النفس وذوى الحفيظة والسريّ السجايا من الغدر ، فما يصبر عليه إلا دنىء المروءة خسيس النفس نَذْل الهمة ساقط الأنفة ، وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

هَواكِ فاستُ أقربه غُرور ... وأنت لكل من يأتى سريرُ
وما إن تَصبرين على حَبيب ... فحولَك منهم عددٌ كثير
فلو كنت الأمير لما تعاطَى ... لقاءك خوفَ جَمْعِهم الأمير
رأيتُك كالأمانى ما على مَن ... يُلم بها ولو كَثرُوا غُرور
ولا عنها لمن يأتى دفاعٌ ... ولو حُشِد الأنام لهم نَفير

ثم سبب ثامن ، وهو لا من المحب ولا من المحبوب ، ولكنه من الله تعالى ، وهو اليأس . وفروعه ثلاثة : إما موت ، وإما بين لا يرجى معه أوبة ، وإما عارض يدخل على المتحابّين بعلة المحب التى من أجلها وثق المحبوب فيغيرها .

وكل هذه الوجوه من أسباب السلو والتصبّر ، وعلى المحب الناسى فى هذا الوجه المُنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة من الغَضاضة والذم واستحقاق اسم اللوم والغدر غير قليل ، وإما لليأس لعملا فى النفوس عجيباً . وثلجاً لحَرّ الأكباد كبيراً . وكل هذه الوجوه المذكورة أولا وآخراً فالتأنى فيها واجب ، والتربّص على أهلها حسن ، فيما يمكن فيه التأنى ويصح لديه التربص ، فإذا انقطعت الأطماع وانحسمت الآمال فحينئذ يقوم العذر .

وللشعراء فنٌّ من الشعر يذمّون فيه الباكى على الدِّمن ، ويُثنون على المثابر على اللذات . وهذا يدخل فى باب السلو . ولقد أكثر الحسن بن هانىء فى هذا الباب وافتخر به ، وهو كثيراً ما يصف نفسه بالغدر الصريح فى أشعاره ، تحكماً بلسانه واقتداراً على القول . وفى مثل هذا أقول شعراً ، منه :

خَلِّ هذا وبادر الدهرَ وارحل ... فى رياض الرُّبَى مطىَّ القفار

واحدُها بالبَديع من نغَمات الـ ـعُود كما تُحِثّ بالمزمار
إن خيراً من الوُقوفُ على الدا ر وقوف البَنان بالأوتار
وبدا النرجسُ البديع كصبٍّ حائر الطَّرف مائلا كالمُدار
لونُه لونُ عاشق مُستَهام وهو لا شكّ هائمٌ بالبَهار

ومَعاذ الله أن يكون نسيان مادرس لنا طبعاً ، ومعصية الله بشرب الرَّاح لنا خلقاً ، وكساد الهمة لنا صفة ، ولكن حسبنا قول الله تعالى ، ومن أصدقُ من الله قيلاً في الشعراء : « ألم ترَ أنهم في كل وادٍ يَهيمون . وأنهم يقولون مالا يفعلون » . فهذه شهادة الله العزيز الجبّار لهم ، ولكن شذوذ القائل للشعر على مرتبة الشعر خطأ . وكان سبب هذه الأبيات أن حَفنى العامرية ، إحدى كرائم المظفر عبد الملك ابن أبي عامر ، كَلِفتْنِي صنعتها فأحببتُها ، وكنت أجلها ، ولها فيها صنعة في طريقة النشيد والبسيط رائقة جداً . ولقد أنشدتها بعض إخواني من أهل الأدب فقال سروراً بها : يجب أن توضع هذه في جملة عجائب الدنيا .

فجميع فصول هذا الباب كما ترى ثمانية : منها ثلاثة هي من المحب ، اثنان منها يذم السالى فيهما على كل وجه ، وهما الملل والاستبدال ، وواحد منها يذم السالى فيه ولا يذم المتصبر ، وهو الحياء كما قدمنا . وأربعة من المحبوب ، منها واحد يذم الناسى فيه ولا يذم المتصبر ، وهو الهجر الدائم ، وثلاثة لا يذم السالى فيها على أي وجه كان ناسياً أو متصبراً ؛ وهي النفار والجفاء والغدر . ووجه ثامن وهو من قبل الله عزوجل ، وهو اليأس إما بموت أو بين أو آفة تزمن . والمتصبر في هذه معذور .

وعني أخبرك أني جبلت على طبيعتين لا يهنئني معهما عيش أبداً ، وإني لأبرم بحياتي باجتماعهما وأودّ التثبّت من نفسي أحياناً لأفقد ما أنا بسببه من النكد من أجلهما ، وهما : وفاء لا يشوبه تلون قد استوت فيه الحضرة والمغيّب ، والباطن والظاهر ، تولده الألفة التي لم تَعزف بها نفسي عمّا دريتُه ، ولا تتطلع إلى عدم

من صحبته ، وعزة نفس لا تقر على الضيم ، مهتمّة لأقل ما يرد عليها من تغير المعارف مؤثرة للموت عليه . فكل واحدة من هاتين السجيتين تدعو إلى نفسها ، وإنى لأجفى فأحتمل ، وأستعمل الأناة الطويلة ، والتلوم الذى لا يكاد يُطيقه أحد ، فإذا أفرط الأمر وحَمِيت نفسى تصبّرت ، ، وفى القلب ما فيه . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

لى خُلّتان أذاقانى الأسَى جُرَعاً ۞ وَنَغصا عِيشتى واُستهلكا جَلَدى

كِلتاهما تَطَّبينى(١) نحو جِبلتها ۞ كالصَّيد يَنْشب بين الذّئب والأسد

وفاء صِدْق فما فارقتُ ذا مِقَة ۞ فزال حزنى عليـــه آخرَ الأبد

وعزة لا يَحُل الضَّيمُ ساحَتها ۞ صرامةً فيـــه بالأموال والولد

ومما يشبه ما نحن فيه ، وإن كان ليس منه ، أن رجلا من إخوانى كنت أحللته من نفسى محلها ، وأسقطت المؤونة بينى وبينه ، واعددته ذخراً وكنزاً ، وكان كثير السمع من كل قائل ، فدب ذو النميمة بينى وبينه ، فحا كواله وأنجح سعيهم عنده ، فانقبض عما كنت أعهده . فتربصت عليه مدة فى مثلها أوب الغائب ، ورضى العاتب ، فلم يزدد إلا انقباضاً فتركته وحاله .

باب الموت

وربما تزايد الأمر ورقّ الطبع وعظُم الإشفاق فكان سبباً للموت ومفارقة الدنيا ، وقد جاء فى الآثار : من عَشَق فعفّ فمات فهو شهيد . وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

فإن أهلِك هوًى أهلك شَهيداً ۞ وإن تَمْنُن بقيتُ قريرَ عَيْن

روى هـذا لنـــا قومٌ ثِقاتٌ ۞ ثَوَوْا بالصِّدق عن جَرْح ومَيْن

ولقد حدثنى أبو السرى عمار بن زياد صاحبنا عمن يثق به ، أن الكاتب ابن قزمان امتحن بمحبة أسلم بن عبد العزيز ، أخى الحاجب هاشم بن عبد العزيز ،

(١) تستميلنى .

وكان أسلم غايةً فى الجمال ، حتى أضجره لما به وأوقعه فى أسباب المنية . وكان أسلم كثير الإلمام به والزيارة له ولا علم له بأنه أصل دائه ، إلى أن توفى أسفاً ودنفاً .

قال المخبر : فأخبرت أسلم بعد وفاته بسبب علته وموته فتأسف وقال: هلا أعلمتنى ؟ فقلت :ولم ؟ قال : كنت والله أزيد فى صلته وما أكاد أفارقه ، فما على فى ذلك ضرر . وكان أسلم هذا من أهل الأدب البارع والتفنّن، مع حظ من الفقه وافر ،وذا بصارة فى الشعر ، وله شعر جيد ، وله معرفة بالأغانى وتصرفها ، وهو صاحب تآليف فى طرائق غناء زرياب وأخباره ،وهو ديوان عجيب جداً، وكان أحسن الناس خلقاً وخلقا ، وهو والد أبى الجعد الذى كان ساكناً بالجانب الغربى من قرطبة .

وأنا أعلم جارية كانت لبعض الرؤساء فعزف عنها لشىء بلغه فى جهتها لم يكن يوجب السخط ، فباعها . فجزعت لذلك جزعاً شديداً وما فارقها النحول والأسف ، ولا بان عن عينها الدمع إلى أن سلت ، وكان ذلك سبب موتها .ولم تعش بعد خروجها عنه إلا أشهراً ليست بالكثيرة . ولقد أخبرتنى عنها امرأة أثق بها أنها لقيتها وهى قد صارت كالخيال نحولا ورقّه فقالت لها : أحسب هذا الذى بك من محبتك لفلان ؟ فتنفست الصعداء وقالت : والله لأنسيته أبداً، وإن كان جفانى بلاسبب . وما عاشت بعد هذا القول إلا يسيراً .

وأنا أخبرك عن أبى بكر أخى رحمه الله ، وكان متزوجاً بعاتكة بنت قند ، صاحب الثغر الأعلى أيام المنصور أبى عامر محمد بن عامر ، وكانت التى لا مرمى وراءها فى جمالها وكريم خلالها، ولا تأتى الدنيا بمثلها فى فضائلها. وكانا فى حد الصبا وتمكن سلطانه تغضب كل واحد منهما الكلمة التى لا قدرلها ،

فكانا لم يزالا فى تغاضب وتعاتب مدة ثمانية أعوام ، وكانت قد شفَّها حبه وأضناها الوجد فيه وأنحلها شدة كلفها به حتى صارت كالخيال المتوسم دنفاً ، لا يلهيها من الدنيا شىء ، ولا تُسر من أموالها على عرضها وتكاثرها بقليل ولا كثير إذا فاتها اتفاقه معها وسلامته لها . إلى أن توفى أخى رحمه الله فى الطاعون الواقع بقرطبة فى شهر ذى القعدة سنة إحدى وأربعمائة ، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة ، فما انفكت منذ بان عنها من السقم الدخيل والمرض والذبول إلى أن ماتت بعده بعام فى اليوم الذى أكمل هو فيه تحت الأرض عاماً . ولقد أخبرتنى عنها أمها وجميع جواريها أنها كانت تقول بعده : ما يقوى صبرى ويمسك رمقى فى الدنيا ساعة واحدة بعد وفاته إلا سرورى وتيقنى أنه لا يضمه وامرأة مضجع أبداً ، فقد أمنت هذا الذى ما كنت أتخوّف غيره ، وأعظم آمالى اليوم اللحاق به .

ولم يكن له قبلها ولا معها امرأة غيرها ، وهى كذلك لم يكن لها غيره ، فكان كما قدَّرت . غفر الله لها ورضى عنها .

وأما خبر صاحبنا أبى عبد الله محمد بن يحيى بن محمد بن الحسين التميمى ، المعروف بابن الطنبى . فإنه كان رحمه الله كأنه قد خلق الحسن على مثاله أو خلق من نفس كل من رآه ، لم أشاهد له مثلا حسناً وجمالا وخُلقاً وعفة وتصاوناً وأدباً وفهماً وحلماً ووفاء وسؤدداً وطهارة وكرماً ودماثة وحلاوة ولباقة وإغضاء وعقلا ومروءة وديناً ودراية وحفظاً للقرآن والحديث والنحو واللغة ، وشاعراً مفلقاً ، حسن الخط ، وبليغاً مفنناً ، مع حظ صالح من الكلام والجدل ، وكان من غلمان أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى أستاذى فى هذا الشأن ، وكان بينه وبين أبيه اثنا عشر عاماً فى السن ، وكنت أنا وهو متقاربين فى الأسنان ، وكنا أليفين لا نفترق ، وخدنين لا يجرى الماء بيننا إلا صفاء ، إلى أن ألقت الفتنة جرانها وأرخت عزاليها ووقع انتهاب جند البربر منازلنا فى الجانب

الغربى بقرطبة ونزولهم فيها ، وكان مسكن أبى عبد الله فى الجانب الشرقى ببلاط مغيث ، وَتقلبت بى الأمور إلى الخروج عن قرطبة وسكنى مدينة المرية ، فكنا نتهادى النظم والنثر كثيراً . وآخر ما خاطبنى به رسالة فى درجها هذه الأبيات :

ليتَ شِعْرى عن حَبْلِ ودِّك هل يُـ ... ـسى جديداً لدىّ غيرَ رَثيث
وأرانى أرى مُحَيَّاكَ يومًا ... وأناجيـك فى بَلاط مُغيث
فلو أنَّ الدّيار يُنهضها الشّو ... ق أتاكَ البلاطُ كالمستغيث
ولو أن القلوب تَستطيع سَيْرًا ... سار قَلبى إليك سَيْرَ الحثيث
كُنْ كما شِئْت لى فإنى مُحِبٌّ ... ليس لى غيرُ ذكركم من حديث
لك عندى وإن تناسيتَ عهدٌ ... فى صميم الفُؤاد غيرُ نكيث

فكُنَّا على ذلك إلى أن انقطعت دولة بنى مروان وقتل سليمان الظافر أمير المؤمنين وظهرت دولة الطالبية وبويع على بن حمود الحسنى ، المسمى بالناصر ، بالخلافة ، وتغلب على قرطبة وتملّكها واستمر فى قتاله إياها بجيوش المتغلبين والثوار فى أقطار الأندلس . وفى إثر ذلك نكبنى خيران صاحب المريه ، إذ نقل إليه من لم يتق الله عز وجل من الباغين ـ وقد انتقم الله منهم ـ عنى وعن محمد ابن إسحاق صاحبى أنا نسعى فى القيام بدعوة الدولة الأموية ، فاعتقلنا عند نفسه أشهراً ، ثم أخرجنا على جهة التغريب ، فصرنا إلى حصن القصر . ولقينا صاحبه أبو القاسم عبد الله بن هذيل التجيبى ، المعروف بابن المقفل ، فأقمنا عنده شهوراً فى خير دار إقامة ، وبين خير أهل وجيران ، وعند أجل الناس همة وأكملهم معروفاً وأتمهم سيادة . ثم ركبنا البحر قاصدين بلنسية عند ظهور أمير المؤمنين المرتضى عبد الرحمن بن محمد ، وساكناه بها . فوجدت ببلنسية أبا شاكر عبد الرحمن بن محمد بن موهب العنبرى صديقنا ، فنعى إلىَّ أبا عبد الله بن الطنبى وأخبرنى بموته رحمه الله . ثم أخبرنى بعد ذلك بمدينة القاضى أبو الوليد يونس ابن محمد المرادى وأبو عمرو أحمد بن محرر ، أن أبا بكر المصعب بن عبد الله

الأزدى ، المعروف بابن الفرضى ، حدثهما ، وكان والد المصعب هذا قاضى بالمسية أيام أمير المؤمنين المهدى ، وكان المصعب لنا صديقاً وأخاً وأليفاً أيام طلبنا الحديث على والده وسائر شيوخ المحدثين بقرطبة ، قالا : قال لنا المصعب : سألت أبا عبدالله بن الطنبى عن سبب علته ، وهو قد نحل وخفيت محاسن وجهه بالضنى فلم يبق إلا عين جوهرها المخبر عن صفاتها السالفة ، وصار يكاد أن يطيره النفس ، وقرب من الانحناء ، والشجا باد على وجهه ، ونحن منفردان ، فقال لى . نعم : أخبرك أنى كنت على باب دارى بقديد الشماس فى حين دخول على بن حمود قرطبة ، والجيوش واردة عليها من الجهات تتسارب ، فرأيت فى جملتهم فتى لم أقدر أن للحسن صورة قائمة حتى رأيته ، فغلب على عقلى وهام به لبى ، فسألت عنه فقيل لى : هذا فلان بن فلان ، من سكان جهة كذا ، ناحية قاصية عن قرطبة بعيدة المأخذ . فيئست من رؤيته بعد ذلك . ولعمرى يا أبا بكر لا فارقنى حبه أو يوردنى رمسى .

فكان كذلك ، وأنا أعرف ذلك الفتى وأدريه ، وقد رأيته لكنى أضربت عن اسمه لأنه قد مات والتقى كلاهما عند الله عز وجل . عفا الله عن الجميع .

هذا على أن أبا عبد الله ، أكرم الله نزله ، ممن لم يكن له ولهقط ، ولا فارق الطريقة المثلى ، ولا وطىء حراماً قط ، ولا قارف منكراً ، ولا أتى منهياً عنه يخل بدينه ومروءته ، ولا قارض من جفا عليه ، وما كان فى طبقتنا مثله . ثم دخلت أنا قرطبة فى خلافة القاسم بن حمود المأمون فلم أقدم شيئاً على قصد أبى عمرو القاسم بن يحيى التميمى أخى عبدالله رحمه الله . فسألته عن حاله وعزيته عن أخيه ، وما كان أولى بالتعزية عنه منى ، ثم سألته عن أشعاره ورسائله إذا كان الذى عندى منه قد ذهب بالنهب فى السبب الذى ذكرته فى صدر هذه الحكاية ، فأخبرنى عنه أنه لما قربت وفاته وأيقن بحضور المنية ولم يشك فى الموت دعا بجميع شعره وبكتبى التى كنت خاطبته أنا بها ، فقطعها كلها ثم أمر بدفنها . قال

أبو عمرو : فقلت له : يا أخى ، دعها تبق . فقال : إنى أقطعها وأنا أدرى أنى أوقع فيها أدباً كثيراً ، ولكن لو كان أبو محمد بعينى حاضراً لدفعتها إليه تكون عنده تذكرة لمودتى ، ولكنى لا أعلم أى البلاد أضمرته ولا أحىٌّ هو أم ميت، وكانت نكبتى اتصلت به ولم يعلم مستقرى ولا إلى ما آل إليه أمرى . فمن مراثى له قصيدة ، منها :

لئن سترتْك بُطون اللَّحو　　د فوَجْدىَ بعدَك لاَ يستتر

قصدتُ دِيارَك قَصْد المُشُو　　ق وللدَّهر فينا كرُور ومرّ

فألقيتُها منك قفراً خَـــلاء　　فأسْكبتُ عينى عليك العِبَر

وحدثنى أبو القاسم الهمذانى رحمه الله قال : كان معنا ببغداد أخ لعبد الله ابن يحيى بن أحمد بن دحون الفقيه ، الذى عليه مدار الفتيا بقرطبة ، وكان أعلم من أخيه وأجلّ مقداراً ، ما كان فى أصحابنا ببغداد مثله ، وأنه اجتاز يوماً بدرب قطنة فى زقاق لا ينفذ ، فدخل فيه فرأى فى أقصاه جارية واقفة مكشوفة الوجه، فقالت له . ياهذا ، إن الدرب لا ينفذ . قال : فنظر إليها فهام بها . قال: وانصرف إلينا فتزايد عليه أمرها ، وخشى الفتنة فخرج إلى البصرة فمات بها عشقاً رحمه الله ، وكان فيما ذكر من الصالحين .

حكاية : لم أزل أسمعها عن بعض ملوك البرابر ، أن رجلا أندلسياً باع جارية كان يجد بها وجداً شديداً ، لفاقة أصابته ، من رجل من أهل ذلك البلد ، ولم يظن بائعها أن نفسه تتبعها ذلك التتبع . فلما حصلت عند المشترى كادت نفس الأندلسى تخرج . فأتى إلى الذى ابتاعها منه وحكمه فى ماله أجمع وفى نفسه ، فأبى عليه ، فتحمل عليه أهل البلد فلم يسعف منهم أحد . فكاد عقله أن يذهب ورأى أن يتصدى إلى الملك فتعرض له وصاح ، فسمعه ، فأمر بإدخاله ، والملك قاعد فى علية له مشرفة عالية فوصل إليه . فلما مثل بين يديه أخبره بقصته واسترحمه وتضرع إليه ، فرق له الملك فأمر بإحضار الرجل المبتاع فحضر ؛ فقال له : هذا

رجل غريب وهو كما تراه وأنا شفيعه إليه . فأبى المبتاع وقال : أنا أشد حبا لها منه وأخشى إن صرفتها إليه أن أستغيث بك غداً وأنا فى أسوأ من حالته . فعرض له الملك ومن حواليه من أموالهم ، فأبى ولج واعتذر بمحبته لها ، فلما طال المجلس ولم يروا منه البتة جنوحاً إلى الإسعاف قال للأندلسى : يا هـذا ، مالك بيدى أكثر مما ترى ، وقد جهدت لك بأبلغ سعى ، وهو تراه يعتذر بأنه فيها أحب منك وأنه يخشى على نفسه شرا مما أنت فيه ، فاصبر لما قضى الله عليك. فقال له الأندلسى : فمالى بيدك حيلة ؟ قال له : وهل ها هنا غير الرغبة والبذل، ما أستطيع لك أكثر . فلما يئس الأندلسى منها جمع يديه ورجليه وانصب من أعلى العلية إلى الأرض . فارتاع الملك وصرخ ، فابتدر الغلمان من أسفل ،فقضى أنه لم يتأذ فى ذلك الوقوع كبير أذى، فصعد به إلى الملك ، فقال : ماذا أردت بهذا ؟فقال: أيها الملك ، لا سبيل لى إلى الحياة بعدها ثم هم أن يرمى نفسه ثانية ،فمنع. فقال الملك : الله أكبر ، قد ظهر وجه الحكم فى هذه المسألة ، ثم التفت إلى المشترى فقال : يا هذا ، إنك ذكرت أنك أود لها منه وتخاف أن تصير فى مثل حاله، فقال : نعم . قال : فإن صاحبك هذا أبدى عنوان محبته وقذف بنفسه يريد الموت لولا أن الله عز وجل وقاه ، فأنت قم فصحح حبك وترام من أعلى هذه القصبة كما فعل صاحبك ، فإن مت فبأجلك وإن عشت كنت أولى بالجارية ، إذ هى فى يدك ويمضى صاحبك عنك ، وإن أبيت نزعت الجارية منك رغماً ودفعتها إليه ، فتمنع ثم قال : أترامى . فلما قرب من الباب ونظر إلى الهوى تحته رجع القهقرى ، فقال له الملك : هو والله ما قلت ، فهم ثم نكل ، فلما لم يقدم قال له الملك : لا تتلاعب بنا ، ياغلمان ، خذوا بيديه وارموا به إلى الأرض. فلما رأى العزيمة قال : أيها الملك، قد طابت نفسى بالجارية. فقال له : جزاك الله خيراً . فاشتراها منه ودفعها إلى بائعها ، وانصرفا .

باب قبح المعصية

قال المصنف رحمه الله تعالى : وكثير من الناس يطيعون أنفسهم ويعصون عقولهم ، ويتبعون أهواءهم ، ويرفضون أديانهم ، ويتجنبون ما حض الله تعالى عليه ورتبه فى الألباب السليمة من العفة وترك المعاصى ومقارعة الهوى ، ويخالفون الله ربهم ، ويوافقون إبليس فيما يحبه من الشهوة المعطِبة فيواقعون المعصية فى حبهم . وقد علمنا أن الله عز وجل ركب فى الإنسان طبيعتين متضادتين .

إحداهما : لا تشير إلا بخير ولا تحضّ إلا على حسن ولا يتصور فيها إلا كل أمر مرضى ، وهى العقل ، وقائده العدل .

والثانية : ضد لها لا تشير إلا إلى الشهوات ، ولا تقود إلا إلى الردى ، وهى النفس ، وقائدها الشهوة . والله تعالى يقول : (إنَّ النفس لأمَّارة بالسوء) وكنى بالقلب عن العقل فقال : (إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقَى السمع وهو شهيد) . وقال تعالى : (وحبَّب إليكم الإيمان وزيَّنه فى قلوبكم) . وخاطب أولى الألباب .

فهاتان الطبيعتان قطبان فى الإنسان ، وهما قوتان من قوى الجسد الفعال بهما ، ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين العجيبين الرفيعين العلويين . ففى كل جسد منهما حظه على قدر مقابلته لهما فى تقدير الواحد الصمد ، تقدست أسماؤه حين خلقه وهيأه . فهما يتقابلان أبداً ويتنازعان دأباً ، فإذا غلب العقل النفس ارتدع الإنسان وقمع عوارضه المدخولة واستضاء بنور الله واتبع العدل ، وإذا غلبت النفس العقل عميت البصيرة ، ولم يصح الفرق

بين الحسن والقبيح ، وعظم الالتباس وتردّى فى هوة الردى ومهواة الهلكة ، وبهذا حسن الأمر والنهى ، ووجب الاكتمال ، وصح الثواب والعقاب ، واستحق الجزاء . والروح واصل بين هاتين الطبيعتين ، وموصل ما بينهما ، وحامل الالتقاء بهما . وإن الوقوف عند حد الطاعة لمعدوم إلا بطول الرياضة وصحة المعرفة ونفاذ التمييز ، ومع ذلك اجتناب التعرض للفتن ومداخلة الناس جملة والجلوس فى البيوت ، وبالحرى أن تقع السلامة المضمونة أو يكون الرجل حصوراً لا أرب له فى النساء ولا جارحة له تعينه عليهن قديماً . وورد : من وقى شر لقلقه وقبقبه وذبذبه فقد وقى شر الدنيا بحذافيرها . واللقلق : اللسان والقبقب : البطن . والذبذب : الفرج .

ولقد أخبرنى أبو حفص الكاتب هو من ولد روح بن زنباع الجذامى ، أنه سمع بعض المتسمّين باسم الفقه من أهل الرواية المشاهير ، وقد سئل عن هذا الحديث فقال : القبقبب : البطيخ .

وحدثنا أحمد بن محمد بن أحمد ، حدثنا وهب بن مسرة ومحمد بن أبى دليم عن محمد بن وضاح عن يحيى بن يحيى عن مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى حديث طويل : من وقاه الله شر اثنتين دخل الجنة . فسئل عن ذلك فقال : ما بين لحييه وما بين رجليه .

وإنى لأسمع كثيراً ممن يقول : الوفاء فى قمع الشهوات فى الرجال دون النساء . فأطيل العجب من ذلك ، وإن لى قولا لا أحول عنه : الرجال والنساء فى الجنوح إلى هذين الشيئين سواء ، وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب وطال ذلك ولم يكن ثم من مانع إلا وقع فى شرك الشيطان واستهوته المعاصى واستفزه الحرص وتغوله الطمع ، وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلا

وأمكنته ، حتما مقضياً وحكماً نافذاً لا محيد عنه البتة .

ولقد أخبرنى ثقة صدق من إخوانى من أهل التمام فى الفقه والكلام والمعرفة ، وذو صلابة فى دينه ، أنه أحب جارية نبيلة أديبة ذات جمال بارع ، قال : فعرضت لها فنفرت ، ثم عرضت فأبت . فلم يزل الأمر يطول وحبها يزيد ، وهى لا تطيع البتة ، إلى أن حملنى فرط حبى لها مع عَمَى الصبى على أن نذرت أنى متى نلت منها مرادى أن أتوب إلى الله توبة صادقة . قال : فما مرت الأيام والليالى حتى أذعنت بعد شماس ونفار . فقلت له : أبا فلان ، وفيت بعهدك ؟ فقال : إى والله ، فضحكت .

وذكرت بهذه الفعلة مالم يزل يتداول فى أسماعنا من أن فى بلاد البربر التى تجاور أندلسنا يتعهد الفاسق على أنه إذا قضى وطره ممن أراد ، أن يتوب إلى الله ، فلا يمنع من ذلك . وينكرون على من تعرض له بكلمة ويقولون له : أتحرم رجلا مسلماً التوبة .

قال : ولعهدى بها تبكى وتقول : والله لقد بلغتنى مبلغاً ما خطر قط لى ببال ، ولا قدرت أن أجيب إليه أحداً .

ولست أبعد أن يكون الصلاح فى الرجال والنساء موجوداً ، وأعوذ بالله أن أظن غير هذا ، وإنى رأيت الناس يغلطون فى معنى هذه الكلمة ، أعنى الصلاح ، غلطاً بعيداً .

والصحيح فى حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هى التى إذا ضبطت انضبطت وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هى التى إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت فى أن تتوصل إليها بضروب من الحيل .

والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصور البديعة التركيب . والفاسق من يعاشر أهل النقص وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ،ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات . والصالحان من الرجال والنساء كالنار الكامنة فى الرماد لا تحرق من جاورها إلا بأن تحرك ، والفاسقان كالنار المشتعلة تحرق كل شىء .

وأما امرأة مهملة ورجل متعرض فقد هلكا وتلفا . ولهذا حرم على المسلم الالتذاذ بسماع نغمة امرأة أجنبية . وقد جعلت النظرة الأولى لك والأخرى عليك . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من تأمل امرأة وهو صائم حتى يرى حجم عظامها فقد أفطر » وإن فيما ورد من النهى عن الهوى بنص التنزيل لشيئاً مقنعاً . وفى إيقاع هذه الكلمة ، أعنى الهوى . اسماً على معان، واشتقاقها عند العرب ، وذلك دليل على ميل النفوس وهويّها إلى هذه المقامات. وإن المتمسك عنها مقارع لنفسه محارب لها .

وشىء أصفه لك تراه عياناً ، وهو أنى ما رأيت قط امرأة فى مكان تحس أن رجلا يراها أو يسمع حسها إلا وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل، وأتت بكلام زائد كانت عنه فى غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك. ورأيت التهمم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها لائحاً فيها ظاهراً عليها لا خفاء به .والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزينة وترتيب المشى وإيقاع المزح عند خطور المرأة بالرجل واجتياز الرجل بالمرأة فهذا أشهر من الشمس فى كل مكان والله عز وجل يقول : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم). وقال تقدست أسماؤه : (ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن). فلولا علم الله عز وجل برقة إغماضهن فى السعى لإيصال حبهن إلى القلوب ، ولطف كيدهن فى التحيل لاستجلاب الهوى ، لما كشف الله عن هذا المعنى البعيد الغامض الذى ليس وراءه مرمى ، وهذا حد التعرض فكيف بما دونه .

ولقد اطلعت من سر معتقد الرجال والنساء فى هذا على أمر عظيم ، وأصل ذلك أنى لم أحسن قط بأحد ظنا فى هذا الشأن ، مع غيرة شديدة ركبت فىَّ .

وحدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن أحمد ، حدثنا أحمد ، حدثنا محمد بن على بن رفاعه ، حدثنا على بن عبد العزيز ، حدثنا أبو عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الغَيْرة من الإيمان . فلم أزل باحثاً عن أخبارهن كاشفاً عن أسرارهن ، وكن قد أنسن منى بكتمان، فكن يطلعننى على غوامض أمورهن . ولولا أن أكون منبها على عورات يستعاذ بالله منها لأوردت من تنبههن فى السر ومكرهن فيه عجائب تذهل الألباب .

وإنى لأعرف هذا وأتقنه ، ومع هذا يعلم الله وكفى به عليما أنى برىء الساحة ، سليم الأديم ، صحيح البشرة ، نقي الحجزة ، وإنى أقسم بالله أجل الأقسام أنى ما حللت مئزرى على فرج حرام قط ، ولا يحاسبنى ربى بكبيرة الزنا مذ عقلت إلى يومى هذا . والله المحمود على ذلك والمشكور فيما مضى والمستعصم فيما بقى .

حدثنا القاضى أبو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حجاف المعافرى ، وإنه لأفضل قاض رأيته ، عن محمد بن إبراهيم الطليطلى عن القاضى بمصر بكر بن العلاء فى قول الله عز وجل : (وأما بنعمة ربك فحدِّث) . أن لبعض المتقدمين فيه قولا ، وهو أن المسلم يكون مخبراً عن نفسه بما أنعم الله تعالى به عليه من طاعة ربه التى هى من أعظم النعم ، ولا سيما فى المفترض على المسلمين اجتنابه واتباعه . وكان السبب فيما ذكرته أنى كنت وقت تأجج نار الصبا وشرة الحداثة وتمكن غرارة الفتوة مقصوراً محظَّراً على بين رقباء

ورقائب ، فلما ملكت نفسى وعقلت صحبت أبا على الحسين بن على الفاسى فى مجلس أبى القاسم عبد الرحمن بن أبى يزيد الأزدى شيخنا وأستاذى رضى الله عنه ، وكان أبو على المذكور عاقلا عاملا عالماً ممن تقدم فى الصلاح والنسك الصحيح فى الزهد فى الدنيا والاجتهاد للآخرة ، وأحسبه كان حصوراً لأنه لم تكن له امرأة قط ، وما رأيت مثله جملة علماً وعملا وديناً وورعاً ، فنفعنى الله به كثيراً وعلمت موقع الإساءة وقبح المعاصى . ومات أبو على رحمه الله فى طريق الحج .

ولقد ضمنى المبيت ليلة فى بعض الأزمان عند امرأة من بعض معارفى مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتها من اللاتى قد ضمتها معى النشأة فى الصبا ، ثم غبت عنها أعواماً كثيرة . وكنت تركتها حين أعصرت[1] ووجدتها قد جرى على وجهها ماء الشباب ففاض وانساب ، وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت ، وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت ، وانبعث فى خديها أزاهير الجمال فتمت واعتمت ، فأتت كما أقول :

خَريدة صاغها الرحمنُ من نُور	جلَّت ملاحتها عن كل تقدير
لو جاءنى عمَلى فى حسنِ صورتها	يوم الحساب ويوم النفخ فى الصُّور
لكنتُ أحظَى عباد الله كُلهم	بالجَنَّتين وقُرْب الخُرّد الحُور

وكانت من أهل بيت صباحة ، وقد ظهرت على صورة تعجز الوصاف ، وقد طَبّق وصف شبابها قرطبة ، فبت عندها ثلاث ليال متوالية ولم تحجب عنى على جارى العادة فى التربية . فلعمرى لقد كاد قلبى أن يصبو ويثوب

---

(١) بلغت الحيض : (حاضت) .

إليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسى الغزل . ولقد امتنعت بعد ذلك من دخول تلك الدار خوفاً على لُبى أن يزدهيه الاستحسان . ولقد كانت هى وجميع أهلها ممن لا تتعدى الأطماع إليهن ، ولكن الشيطان غير مأمون الغوائل ، وفى ذلك أقول :

لا تُتبع النفسَ الهَوى ودَع التعرضَ لِلمحَن
إبليس حىٌّ لم يَمُت والعينُ بابٌ للفتن

وأقول :

وقائلٌ لىَ هــذا ظَنٌّ يَزيدك غَيّــا
فقلت دَع عنك لومى أليس إبليسُ حَيّا

وما أورد الله تعالى علينا من قصة يوسف بن يعقوب وداود بن إيشى رُسل الله عليهم السلام إلا ليعلّمنا نُقصاننا وفاقتنا إلى عصمته ، وأن بِنْيتنا مدخولة ضعيفة ، فإذا كانا صلى الله عليهما وهما نبيّان رسولان أبناء أنبياء رسل ومن أهل بيت نبوة ورسالة متكررين فى الحفظ ، مغموسين فى الولاية ، محفوفين بالكلاءة ، مؤيدين بالعصمة ، لا يجعل للشيطان عليهما سبيل ولا فُتح لوسواسه نحوهما طريق ، وبلغا حيث نَص الله عز وجل علينا فى قرءانه المنزّل بالجبلة الموكلة والطبع البشرىّ والخِلقة الأصيلة ، لا بتعمد الخطيئة ولا القصد إليها ، إذ النبيّون مُبرّؤون من كل ما خالف طاعة الله عزّ وجل ، لكنه استحسان طبيعى فى النفس للصور ، فمن ذا الذى يصف نفسه بِمِلْكها ويتعاطى ضَبطها إلا بحول الله وقُوته . وأول دم سُفك فى الأرض فدمُ أحد ابنى آدم على سبب المنافسة فى النساء . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « باعِدُوا بين أنفاس الرجال والنساء » . وهذه امرأة من العرب تقول وقد حبلت من ذى قرابة لها حين سئلت : ما ببطنك يا هند ؟ فقالت : قرب الوساد وطول السواد . وفى ذلك أقول شعراً ، منه :

لا تَلُم مَن عَرّض النَّفس لما ليس يُرضى غيرَه عند المِحَن
لا تُقرِّب عَرَفجاً[1] من لَهَب ومتى قَرَّبته قامت دَخَن
لا تُصرِّف ثِقةً فى أحد فَسد الناسُ جميعاً والزَّمن
خُلِق النِّسوان للفَحْل كما خُلق الفحلُ بلا شكٍّ لهن
كُل شَكْل يَتشهّى شكلَه لا تكُن عن أحد تَنْفى الظِّنن
صِفة الصالح مَن إن صُنْتَه عن قَبيح أظهر الطّوع الحسن
وسواه من إذا ثَقّفته أعمل الحيلة فى خَلْع الرَّسن

وإنى لأعلم فتى من أهل الصيانة قد أُولع بهوى له ، فاجتاز بعض إخوانه فوجده قاعداً مع من كان يحب ، فاستجلبه إلى منزله ، فأجابه إلى منزله بامتثال المسير بعده . فمضى داعيه إلى منزله وانتظره حتى طال عليه التربص فلم يأته . فلما كان بعد ذلك اجتمع به داعيه فعدد عليه وأطال لومه على إخلافه موعده ، فاعتذر وورَّى . فقلت أنا للذى دعاه : أنا أكشف عذره صحيحاً من كتاب الله عز وجل إذ يقول : (ما أخلفنا موعدَك بمَلْكنا ولكنَّا حُمِّلنا أوزاراً من زِينة القوم) . فضحك مَن حضر . وكُلِّفت أن أقول فى ذلك شيئاً فقلت :

وجَرْحك لى جَرْحُ جَبَّار فلا تَلُم ولكنّ جَرحَ الُحْب غير جُبَار
وقد صارت الخِيلان وسْطَ بَياضه كنَيلَوفر حَفَّته روضُ بَهار
وكم قال لى مَن مِتُّ وجداً بحُبه مقالةَ مَحْلول المَقالة زارِى
وقد كَثُرت منّى إليه مطالبٌ أُلِحّ عليه تارةً وأُدارى
أمَا فى التوانى ما يبرِّد غُلَّة ويُذهب شوقاً فى ضُلوعك سارى
فقلت له لو كان ذلك لم تكُن عداوةُ جارٍ فى الأنام لجار
وقد تتراءى العَسكران لدى الوغَى وبينهما للموت سَيْلُ بَوار

---

[1] نوع من الحطب .

ولى كلمتان قلتهما معرضاً بل مصرحاً برجل من أصحابنا كنا نعرفه كلنا، من أهل الطلب والعناية والورع وقيام الليل واقتفاء آثار النساك وسلوك مذاهب المتصوفين القدماء باحثاً مجتهداً ، وقد كنا نتجنب المزاح بحضرته ، فلم يمض الزمن حتى مكن الشيطان من نفسه ، وفتك بعد لباس النساك ، وملك إبليس من خطامه فسول له الغرور ، وزين له الويل والثبور، وأجرَّه رسنه بعد إباء. وأعطاه ناصيته بعد شماس، فخب فى طاعته وأوضع، واشتهر بعد ماذكرته فى بعض المعاصى القبيحة الوضرة ، ولقد أطلت ملامه وتشددت فى عذله إذ أعلن بالمعصية بعد استتار ، إلى أن أفسد ذلك ضميره على ، وخبثت نيته لى ، وتربص بى دوائر السوء ، وكان بعض أصحابنا يساعده بالكلام استجراراً إليه ، فيأنس به ويُظهر له عداوتى ، إلى أن أظهر الله سريرته ، فعلمها البادى والحاضر ، وسقط من عيون الناس كلهم بعد أن كان مقصداً للعلماء ومنتاباً للفضلاء ، ورَذَل عند إخوانه جملة . أعاذنا الله من البلاء ، وسترنا فى كفايته ، ولا سلبنا مابنا من نعمته . فياسوءتاه لمن بدأ بالاستقامة ولم يعلم أن الخذلان يحل به وأن العصمة ستفارقه ، لا إله إلا الله ، ماأشنع هذا وأفظعه . لقد دهمته إحدى بنات الحرس ، وألقت عصاها به أم طبق . من كان لله أولا ثم صار للشيطان آخرا ، ومن إحدى الكلمتين :

أمّا الغــلام فقد حانت فضيحتُه ... وأنه كان مَستورًا فقد هتــكا
مازال يَضحك من أهل الهوى عجباً ... فالآن كل جَهول منه قد ضحــكا
إليك لا تَلْحُ صَبًّا هائماً كلِفاً ... يرى التهتك فى دين الهوى نُسكا
ذو مَحْــبر وكِتاب لا يُفارقه ... نحو المحدِّث يسعى حيث ماسلــكا
فاعتاض من سُمر أقلام بنانَ فتًى ... كأنه من لُجيْن صيغ أو سُبكا
يا لائمى سَفَهاً فى ذاك قلَّ فلَم ... تَشهد جَبينين يوم المُلتقى اشتبكا
دَعْنى وَوِرْدِىَ فى الآبار أطلُبه ... إليك عنى كذا لا أبتغى البِركا

إذا تعفّفت عَفَّ الحب عنك وإن ... تَرَكت يوماً فإنّ الُحب قد تَرَكا
ولا تَحُلَّ من الهجران مُنعقدا ... إلا إذا ماحلت الأُزْرَ والتِّكَكا
ولا تُصحِّح للسلطان مملكةً ... أو تدخل البردعن إنفاذه السِّككا
ولا بغَير كَثير المَسح يَذهب ما ... يَعْلو الحديدَ من الأصداء إن سُبكا

وكان هذا المذكور من أصحابنا وقد أحكم القراءات إحكاماً جيدا ، واختصر كتاب الأنبارى فى الوقف والابتداء اختصارا حسناً أعجب به من رآه من المقرئين ، وكان دائباً على طلب الحديث وتقييده ، والمتولى لقراءة ما يسمعه على الشيوخ المحدثين ، مثابرا على النسخ مجتهدا به . فلما امتحن بهذه البلية مع بعض الغلمان رفض ما كان معتنياً وباع أكثر كتبه واستحال استحالة كلية ، نعوذ بالله من الخذلان ، وقلت فيه كلة وهى التالية للكلمة التى ذكرت منها فى أول خبره ثم تركتها .

وقد ذكر أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الرويدى فى كتاب اللفظ والإصلاح : أن إبراهيم بن سيار النظّام رأس المعتزلة ، مع علو طبقته فى الكلام وتمكنه وتحكمه فى المعرفة ، تسبب إلى ماحرم الله عليه من فتى نصرانى عشقه بأن وضع له كتاباً فى تفضيل التثليث على التوحيد . فياغوثاه عياذك يارب من تولج الشيطان ووقوع الخذلان . وقد يعظم البلاء ، وتكلب الشهوة ، ويهون القبيح ، ويرق الدين حتى يرضى الإنسان فى جنب وصوله إلى مراده بالقبائح والفضائح ، كمثل مادهم عبيد الله بن يحيى الأزدى المعروف بابن الحريرى، فإنه رضى بإهمال داره وإباحة حريمه والتعريض بأهله طمعاً فى الحصول على بغيته من فتى كان عَلِقه . نعوذ بالله من الضلال ونسأله الحياطة وتحسين آثارنا وإطابة أخبارنا ، حتى لقد صار المسكين حديثاً تعمر به المحافل ، وتصاغ فيه الأشعار ، وهو الذى تسميه العرب الديُّوث . وهو مشتق من التديث ، وهو التسهيل . وما بعد تسهيل من تسمح نفسه بهذا الشأن تسهيل ، ومنه بعير مديّث . أى

مذلل. ولعمرى إن الغيرة لتوجد فى الحيوان بالخلقة ، فكيف وقد أكدتها عندنا الشريعة ، وما بعد هذا مصاب . ولقد كنت أعرف هذا المذكور مستورا إلى أن استهواه الشيطان ونعوذ بالله من الخذلان . وفيه يقول عيسى ابن محمد بن محمل الخولانى :

يا جاعلاً إخراج حُرِّ نسائه ... شَرَكا لصَيد جآذر الغِزْلان
إنى أرى شَرَكاً يمزَّق ثم لا ... تحظى بغير مذلة الحِرمان

وأقول أنا أيضاً :

أباح أبو مروان حُرَّ نسائه ... ليبلغَ مايهوى من الرَّشأ الفَرد
فعاتبتُه الدَّيوث فى قُبح فعله ... فأنشدنى إنشاد مُستبصر جَلد
لقد كنتُ أدركت المُنى غير أننى ... يُعيِّرنى قَومى بإدراكها وَحْدى

وأقول أيضاً :

رأيت الحزيرى فيما يُعانى ... قليلَ الرَّشاد كثيرَ السَّفاه
يَبيع ويَبتاع عِرْضاً بعِرض ... أُمور وجدِّك ذاتُ اشتباه
ويأخذ مِياً بإعطاء هاء ... ألاهكذا فليكُن ذو النواهى
ويبدل أرضاً تُغذِّى النبات ... بأرض تُحف بشوك العِضاه
لقد خاب فى تَجْره ذو ابتياع ... مهبّ الرياح بمَجرى المياه

ولقد سمعتُه فى المسجد الجامع يستعيذ بالله من العصمة كما يستعاذ به من الخذلان .

ومما يُشبه هذا أنى أذكر أنى كنت فى مجلس فيه إخوان لنا عند بعض مياسير أهل بلدنا ، فرأيت بين بعض من حضر وبين مَن كان بالحضرة أيضاً من أهل صاحب المجلس أمرًا أنكرته وغمزًا استبشعته، وخلوات الحين بعد الحين، وصاحب المجلس كالغائب أو النائم ، فنبهته بالتعريض فلم ينتبه ، وحركته

بالتصريح فلم يتحرك ، فجعلت أكرر عليه بيتين قديمين لعله يفطن وهما هذان :

إن إخوانه المُقيمين بالأمـ س أتَوا للزناء لا للغناء
قَطعوا أمرهم وأنت حِمار مُوقَر من بلادة وغَبَاء

وأكثرت من إنشادهن حتى قال لى صاحب المجلس : قد أملانا من سماعهما فتفضل بتركهما أو إنشاد غيرهما. فأمسكت وأنا لا أدرى أغافل هو أم متغافل، وما أذكر أنى عدت إلى ذلك المجلس بعدها . فقلت فيه قطعة ، منها :

أنت لا شك أحسن الناس ظَنّا ويقينـاً ونيّـةً وضَمِيرا
فأُنتبه إن بعضَ من كان بالأمـ س جليساً لنـا يُعانى كبيرا
ليس كُل الرُّكوع فاْعلم صلاةً لا ولا كُل ذى لحاظ بَصيرا

وحدّثنى ثعلب بن موسى الكلاذانى قال : حدثنى سليمان بن أحمد الشاعر قال : حدثتنى امرأة اسمها هند كنت رأيتها فى المشرق ، وكانت قد حجّت خمس حجات ، وهى من المتعبدات المجتهدات ، قال سليمان : فقالت لى : يا بن أخى ، لا تحسن الظن بامرأة قط فإنى أخبرك عن نفسى بما يعلمه الله عز وجل : ركبتُ البَحر منصرفة من الحج وقد رفضت الدنيا وأنا خامسة خمس نسوة ، كلهن قد حججن ، وصرنا فى مركب فى بحر القلزم ، وفى بعض ملاحى السفينة رجل مضمّر الخلق مديد القامة واسع الأكتاف حسن التركيب ، فرأيته أول ليلة أتى إلى إحدى صواحبى فوضع إحليله فى يدها وكان ضخما جداً . فأمكنته فى الوقت من نفسها . ثم مر عليهن كلهن فى ليالى متواليات ، فلم يبق له غيرها ، تعنى نفسها ، قالت : فقلت فى نفسى : لأنتقمن منك . فأخذت موسى وأمسكتها بيدى . فأتى فى الليل على جارى عادته . فلما فعل كفعله فى سائر الليالى سقطت الموسى عليه فارتاع وقام لينهض . قالت : فأشفقت عليه وقلت له : وقد أمسكته : لا زلتَ أو آخذ نصيبى منك . قالت العجوز : فقضى وطره واستغفر الله .

وإن للشعراء من لطف التعريض عن الكناية لعجباً . ومن بعض ذلك قولى حيث أقول :

أتانى وماء المُزن فى الجو يُسفَك ... كمَحض لجين إذ يُمدّ ويُسبك
هلال الدّياجى انحطَّ من جوِّ أفقه ... فقُل فى محب نال ما ليس يُدركُ
وكان الذى إن كنت لى عنه سائلا ... فمالى جوابٌ غير أنىَ أضحك
لفَرط سرُورى خِلْتُنى عنه نائما ... فيا عجباً من مُوقن يتشكك

وأقول أيضاً قطعة ، منها :

أتيتَنى وهلالُ الجو مُطَّلع ... قُبيل قَرْع النَّصارى للنَّواقيس
كحاجب الشَّيخ عمَّ الشَّيبُ أكثره ... وإخمص الرِّجل فى لُطْف وتَقويس
ولاح فى الأفق قَوْس الله مُكتسياً ... من كل لون كأذناب الطَّواويس

وإن فيما يبدو إلينا من تعادى المتواصلين فى غير ذات الله تعالى بعد الألفة ، وتدابرهم بعد الوصال ، وتقاطعهم بعد المودة ، وتباغضهم بعد المحبة ، واستحكام الضغائن ، وتأكد السخائم فى صدورهم ، لكاشفاً ناهياً لو صادف عقولا سليمة وآراء نافذة وعزائم صحيحة . فكيف بما أعد الله لمن عصاه من النَّكال الشديد يوم الحساب وفى دار الجزاء ، ومن الكشف على رؤوس الخلائق (يوم تذهل كل مُرْضعة عما أرضعت وَتضع كُل ذات حَمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسُكارى ولكنّ عذابَ الله شديد) . جعلنا الله ممن يفوز برضاه ويستحق رحمته .

ولقد رأيت امرأة كانت مودتها فى غير ذات الله عز وجل . فعهِدتها أصفى من الماء وألطف من الهواء وأثبت من الجبال وأقوى من الحديد وأشد امتزاجاً من اللون فى الملون ، وأنفذ استحكاماً من الأعراض فى الأجسام ،

وأضوأ من الشمس، وأصح من العيان، وأثقب من النجم، وأصدق من كُدر القطا، وأعجب من الدهر، وأحسن من البر، وأجمل من وجه أبى عامر، وألذ من العافية، وأحلى من المُنى، وأدنى من النفس، وأقرب من النسب، وأرسخ من النقش فى الحجر، ثم لم ألبث أن رأيت تلك المودة قد استحالت عداوة أفظع من الموت، وأنفذ من السهم، وأمر من السقم، وأوحش من زوال النعم، وأقبح من حلول النقم، وأمضى من عقم الرياح، وأضر من الحمق، وأدهى من غلبة العدو، وأشد من الأسر، وأقسى من الصخر، وأبغض من كشف الأستار، وأنأى من الجوزاء، وأصعب من معاناة السماء، وأكبر من رؤية المصاب، وأشنع من خرق العادات، وأقطع من فجأة البلاء، وأبشع من السم الزعاف، وما لا يتولد مثله عن الذحول والترات وقتل الآباء وسبى الأمهات. وتلك عادة الله فى أهل الفسق القاصدين سواه، الآمِّين غيره، وذلك قوله عز وجل: (ياليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا لقد أضلّنى عن الذكر بعد إذ جاءنى). فيجب على اللبيب الاستجارة بالله مما يورط فيه الهوى. فهذا خلف مولى يوسف بن قمقام القائد المشهور، كان أحد القائمين مع هشام بن سليمان بن الناصر، فلما أُسر هشام وقُتل وهرب الذين وازروه فَرّ خلف فى جُملتهم ونجا. فلما أتى القسطلات لم يُطق الصبر عن جارية كانت له بقُرطبة فكرّ راجعاً. فظفر به أمير المؤمنين المهدى، فأمر بصلبه. فلعهدى به مصلوباً فى المرج على النهر الأعظم وكأنه القُنفذ من النبل.

ولقد أخبرنى أبو بكر محمد بن الوزير عبد الرحمن بن اللّيث رحمه الله أن سبب هروبه إلى محلة البرابر أيام تحوّلهم مع سليمان الظافر إنما كان لجارية

يكلف بها تصيّرت عند بعض من كان فى تلك الناحية ، ولقد كاد أن يتلف فى تلك السفرة .

وهذان الفصلان وإن لم يكونا من جنس الباب فإنهما شاهدان على ما يقود إليه الهوى من الهلاك الحاضر الظاهر ، الذى يستوى فى فهمه العالم والجاهل ، فكيف من العصمة التى لا يفهمها من ضعُفت بصيرته . ولا يقولن امرؤ : خلوت . فهو وإن انفرد فبمرأى ومسمع من علام الغيوب (الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور) (ويعلم السر وأخفى) (وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا وهو عليم بذات الصدور) وهو عالم الغيب والشهادة (ويَسْتخفون من الناس ولا يَسْتخفون من الله وهو معهم) وقال : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتُوسوس به نفسه ونحن أقربُ إليه من حبل الوريد . إذ يتلقى المُتلقيان عن اليمين وعن الشمال قَعيد . ما يلفظ من قَول إلا لديه رَقيب عتيد) .

الاستخفاف بالمعاصى ونتائجه :

وليعلم المستخف بالمعاصى المتكل على التسويف . المعرض عن طاعة ربه أن إبليس كان فى الجنة مع الملائكة المقرَّبين فلمعصية واحدة وقعت منه استحق لعنة الأبد وعذاب الخلد ، وصير شيطاناً رجيما وأبعد عن رفيع المكان . وهذا آدم صلى الله عليه وسلم بذنب واحد أُخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونكدها . ولولا أنه تلقى من ربه كلمات وتاب عليه لكان من الهالكين. أفترى هذا المغتر بالله ربه وبإملائه ليزداد إثماً يظن أنه أكرم على خالقه من أبيه آدم الذى خلقه بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد لهم ملائكته الذين هم أفضل خلقه عنده ؟ أو عقابه أعزّ عليه من عقوبته إياه ؟

كلا ، ولكن استعذاب التمنى واستيطاء مركب العجز وسخف الرأى قائدة أصحابها إلى الوبال والخزى ، ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجر من نهى الله تعالى ولا حام من غليظ عقابه لكان فى قبيح الأحدوثة عن صاحبه وعظيم الظلم الواقع فى نفس فاعله أعظم مانع وأشد رادع لمن نظر بعين الحقيقة واتبع سبيل الرشد ، فكيف والله عز وجل يقول : (ولا يَقْتلون النفس التى حَرَّم الله إلا بالحق ولاَ يَزْنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يُضاعف له العذابُ يوم القيامة ويخلُد فيها مهاناً) .

حدثنا الهمدانى فى مسجد القمرى بالجانب الغربى من قرطبة سنة إحدى وأربعمائة. حدثنا ابن سيبويه وأبو إسحاق البلخى بخراسان سنة خمس وسبعين وثلاثمائة . قالا : حدثنا محمد بن يوسف : حدثنا محمد بن إسماعيل: حدثنا قتيبة بن سعيد :حدثنا جرير عن الأعمش عن أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل قال : قال عبد الله ، وهو ابن مسعود : قال رجل : يارسول الله ، أى الذنب أكبر عند الله ؟ قال : أن تَدْعُو لله نداً وهو خَلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك . فأنزل الله تصديقها : (والذين لايَدْعُون مع الله إلهاً آخر ولا يَقْتُلون النفس التى حرَّم الله إلا بالحق ولا يزنون) وقال عز وجل : (الزَّانية والزانى فاجلدوا كُلَّ واحد منهما مائَة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله) .

حدثنا الهمدانى عن أبى إسحاق البلخى وابن سيبويه عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب الزهرى عن أبى بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسعيد بن المسيب المخزوميين وأبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى أن رسول الله ﷺ قال : لا يزنى الزانى

حين يزنى وهو مؤمن . وبالسند المذكور إلى محمد بن إسماعيل عن يحيى بن بكير عن الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبى سلمة وسعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : أتى رجل إلى رسول الله ﷺ وهو فى المسجد فقال : يارسول الله ، إنى زنيت . فأعرض عنه . ثم رد عليه أربع مرات . فلما شهد على نفسه أربع شهادات دعاه النبى ﷺ فقال : أبك جنون ؟ قال : لا . قال : فهل أحصنت ؟ قال : نعم . فقال النبى ﷺ : اذهبوا به فارجموه .

قال ابن شهاب : فأخبرنى من سمع جابر بن عبد الله قال كنت فيمن رجمه فرجمناه بالمصلى ، فلما أذلقته الحجارة هرب فأدركناه بالحرة فرجمناه .

حدثنا أبو سعيد مولى الحاجب جعفر فى المسجد الجامع بقرطبة عن أبى بكر المقرىء عن أبى جعفر النحاس عن سعيد بن بشر عن عمرو بن رافع عن منصور عن الحسن عن حطّان بن عبد الله الرقاشى عن عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال : خذوا عنى خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا : البكر بالبكر جلد ، وتغريب سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم . فيا لشُنعة ذنب أنزل الله وحيه مُبَيّناً بالتشهير بصاحبه ، والعنف بفاعله ، والتشديد لمقترفه ، وتشدّد فى ألا يُرجم إلا بحضرة أوليائه عقوبةَ رجمه ، وقد أجمع المسلمون إجماعاً لايَنقضه إلا مُلحد أن الزانى المُحصن عليه الرجم حتى يموت .

فيا لها قتلة ما أهولها . وعقوبة ما أفظعها ، وأشد عذابها وأبعدها من الإراحة وسرعة الموت .

وطوائف من أهل العلم منهم الحسن بن أبى الحسن وابن راهويه وداود وأصحابه يرون عليه مع الرجم جلد مائة ، ويحتجُّون عليه بنص القرآن وثبات السنة عن رسول الله ﷺ وبفعل على رضى الله عنه بأنه رجم امرأة محصنة

فى الزنا بعد أن جلدها مائة . وقال : جلدتها بكتاب الله ورجمتها بسنة رسول الله . والقول بذلك لازم لأصحاب الشافعى ، لأن زيادة العدل فى الحديث مقبولة ، وقد صح فى إجماع الأمة المنقول بالكافة الذى يصحبه العمل عند كل فرقة وفى أهل كل نحلة من نحل أهل القبلة ، حاشى طائفة يسيرة من الخوارج لا يعتدُّ بهم ، أنه لا يحل دم امرىء مسلم إلا بكفر بعد إيمان ، أو نفس بنفس ، أو بمحاربة لله ورسوله يشهر فيها سيفه ويسعى فى الأرض فساداً مقبلا غير مُدْبر ، وبالزنا بعد الإحصان . فإن حد ما جعل الله مع الكُفْر بالله عز وجل ومحاربته وقَطع حُجته فى الأرض ومُنابذته دينه لجرم كبير ومَعصية شنعاء ، والله تعالى يقول : (إن تَجْتنبوا كبائر ماتُنْهون عنه نُكَفر عنكم سيئاتكم). (والذين يَجتنبونَ كبائر الإثم والفواحش إلاَّ اللَّمم إنَّ رَبَّك واسعُ المَغفرة) وإن كان أهل العلم اختلفوا فى تسميتها فكلهم مجمع مهما اختلفوا فيه منها أن الزنا يقدم فيها ، لا اختلاف بينهم فى ذلك ولم يُوعد الله عز وجل فى كتابه بالنار بعد الشرك إلا فى سبع ذُنوب ، وهى الكبائر : الزنا أحدها ، وقذف المحصنات أيضاً منها ، منصوصاً ذلك كله فى كتاب الله عز وجل .

وقد ذكرنا أنه لا يجب القتل على أحد من ولد آدمُ إلا فى الذنوب الأربعة التى تقدم ذكرها . فأما الكفر منها فإن عاد صاحبه إلى الإسلام أو بالذمة إن لم يكن مرتدًّا قُبل منه، ودُرِىء عنه الموت . وأما القتل فإن قَبِل الولى الدية فى قول بعض الفقهاء أو عفا فى قول جميعهم سَقط عن القاتل القتل بالقصاص . وأما الفساد فى الأرض فإن تاب صاحبه قبل أن يُقدر عليه هُدر عنه القتل ، ولا سبيل فى قول أحد مؤالف أو مخالف فى ترك رجم المحصن ، ولا وجه لرفع الموت عنه البتة .

ومما يدل على شُنعة الزنا ما حدّثنا القاضى أبو عبد الرحمن : حدثنا القاضى أبو عيسى عن عبد الله بن يحيى عن أبيه يحيى بن يحيى عن الليث عن الزهرى عن القاسم بن محمد بن أبى بكر عن عبيد بن عمير : أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصاب فى زمانه ناساً من هذيل ، فخرجت جارية منهم فأتبعها رجل يُريدها عن نفسها فرمته بحجر فقضت كبده . فقال عمر : هذا قتيل الله ، والله لا يودى أبداً .

وما جعل الله عز وجل فيه أربعةَ شهود وفى كل حكم شاهدين إلا احياطة منه ألا تَشيع الفاحشة فى عباده ، لعظمها وشُنعتها وقبحها . وكيف لا تكون شنيعة ومن قذف بها أخاه المُسلم أو أخته المسلمة دون صحة علم أو تيقن معرفة فقد أتى كبيرة من الكبائر استحق عليها النار غداً ، ووجب عليه بنص التنزيل أن تضرب بشرته ثمانين صوتاً .

ومالِك رضى الله عنه يرى ألا يُؤخذ فى شىء من الأشياء حد بالتعريض دون التصريح إلا فى قذف .

وبالسند المذكور عن الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد عن محمد بن عبد الرحمن عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أمر أن يُجلد الرجل قال لآخر : ما أبى بزان ولا أمى بزانية .

فى حديث طويل وباجماع من الأمة كلها دون خلاف من أحد نعلمه أنه إذا قال رجل لآخر : يا كافر ، أو يا قاتل النفس التى حرم الله ، لما وجب عليه حد ؛ احتياطاً من الله عز وجل إلا بثبت هذه العظيمة فى مسلم ولا مسلمة

ومن قول مالك رحمه الله أيضاً أنه لاحد فى الإسلام إلا والقتل يغنى عنه

وينسخه إلا حد القذف ، فإنه إن وجب على من قد وجب عليه القتل حُدّ ثم قتل.
قال الله تعالى : (والَّذِينَ يَرْمُون الْمُحْصَنَاتِ ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانينَ جَلْدَة ولا تقْبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون. إلا الذين تابوا) . وقال تعالى : (إن الذين يَرمون المُحصنات الغافلات المؤمنات لُعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم) . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : الغضَب واللعنة المذكوران فى اللّعان إنهما موجبتان .

حدثنا الهمدانى عن أبى إسحاق عن محمد بن يوسف عن محمد بن إسماعيل عن عبد العزيز بن عبد الله ، قال : حدثنا سليمان عن ثور بن يزيد عن أبى الغيث عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : وماهن يارسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات .

وإن فى الزنا من إباحة الحريم ، وإفساد النسل ، والتفريق بين الأزواج الذى عظم الله أمره ، مالا يهون على ذى عقل أو من له أقل خَلاق ، ولولا مكان هذا العنصر من الإنسان وأنه غير مأمون الغلبة لما خفف الله عن البكرين وشدد على المحصنين. وهذا عندنا وفى جميع الشرائع القديمة النازلة من عند الله عز وجل حُكما باقياً لم يُنسخ ولا أُزيل ، فيترك الناظر لعباده الذى لم يشغله عظيم مافى خَلقه ولا يحيف قدرته كبير مافى عوالمه عن النظر لحقير مافيها فهو كما قال عز وجل : (الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذه سِنةٌ ولا نَوْم) . وقال : (يَعْلَمَ ما يَلِج فى الأرض وما يَخْرُج منها وما ينزل من السماء وما يَعْرُج

فيها) . وقال : (عالم الغيب لا يَعزُب عنه مِثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) .

وإن أعظم ما يأتى به العبد هَتك ستر الله عزّ وجل فى عباده . وقد جاء فى حكم أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى ضَربه الرجل الذى ضَم صبيّا حتى أمنى ضرباً كان سبباً للمنيّة . ومن إعجاب مالك رحمه الله باجتهاد الأمير الذى ضرب صبيّا مكّن رجلا من تقَبيله حتى أمنى الرجل ، ضربه إلى أن مات ، ما ينسى شدة دواعى هذا الشأن وأسبابه ، والتزيّد فى الاجتهاد ، وإن كنا لا نراه فهو قول كثير من العلماء يتبعه على ذلك عالم من الناس . وأما الذى نذهب إليه فالذى حدّثناه الهمدانى عن البلخى عن البخارى عن الفربرى عن البخارى قال : حدثنا يحيى بن سليمان ، حدثنا ابن وهب قال : أخبرنى عمرو أن بكيراً حدثه عن سليمان بن يسار عن عبدالرحمن بن جابر عن أبيه عن أبى بردة الأنصارى قال :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا فى حَد من حدود الله عز وجل .

وبه يقول أبو جعفر محمد بن على النسائى الشافعى رحمه الله .

وأما فعل قوم لوط فشنيع بشيع . قال الله تعالى : (أتأتُون الفاحشةَ ما سبَقكم بها مِن أحدٍ من العالمين) . وقد قذَف الله فاعليه بِحجارة من طين مسوّمة . ومالك رحمه الله يَرى على الفاعل والمَفعول به الرَّجم أُحصنا أو لم يُحصنا . واحتج بعض المالكيين فى ذلك بأن الله عز وجل يقول فى رجمه فاعليه بالحجارة : وما هى من الظالمين ببعيد . فوجب بهذا أنه من ظلم الآن بمثل فعلهم قربت منه .

والخلاف في هذه المسألة ليس هذا موضعه . وقد ذكر أبو إسحاق إبراهيم ابن السرى أن أبا بكر رضى الله عنه أحرق فيه بالنار . وذكر أبو عبيدة معمر ابن المثنى اسم المحرق فقال : هو شجاع بن ورقاء الأسدى أحرقه بالنار أبو بكر الصديق لأنه يُؤتى فى دُبره كما تؤتى المرأة .

وإن عن المعاصى لمذاهب للعقل واسعة ، فما حرم الله شيئاً إلا وقد عوض عباده من الحلال ما هو أحسن من المحرم وأفضل ، لا إله إلا هو .

وأقول فى النهى عن اتباع الهوى على سبيل الوعظ :

أقول لنفسى ما مُبين كحالكٍ ... وما الناسُ إلا هالكٌ وابنُ هالك

صُن النفس عمّا عابها وارفُض الهوى ... فإن الهَوى مِفْتاح بابِ المهالك

رأيتُ الهَوى سهلُ المَبادى لذيذها ... وعُقباه مُرّ الطعم ضَنك المسالك

فما لذّة الإنسان والموت بعدها ... ولو عاش ضِعْفَى عُمر نوح بن لامَك

فلا تَتّبِع داراً قليلا لباثها ... فقد أنذرتنا بالفناء المُواشك

وما تركُها إلا إذا هى أمكنت ... وكم تاركٍ إضماره غير تارك

فما تارك الآمال عُجبا جُؤاذراً ... كتاركها ذات الضُّروع الحواشك

وما قابل الأمر الذى كان راغباً ... بشَهوة مُشتاق وعقل مُبارك

لأجدى عباد الله بالفوز عنده ... لدى جَنة الفِردوس فوق الأرائك

ومن عَرف الأمر الذى هو طالب ... رأى سَبباً ما فى يَدى كل مالك

ومن عَرف الرحمن لم يَعْصِ أمره ... ولو أنه يُعطى جميعَ المَمالك

سبيلُ التّقى والنسك خيرُ المسالك ... وسالكها مُستبصر خيرُ سالك

فما فقد التّنغيص من عاج دونها ... ولا طاب عيشٌ لأمرىء غير سالك

وطُوبي لأقوامٍ يَؤُمون نحوها ... بخِفّة أرواحٍ ولين عرائك
لقد فقَدوا غلّ النفوس وفُضِّلوا ... بعز سلاطين وأمن صَعالك
فعاشوا كما شاءوا وماتوا كما آشتهوا ... وفازوا بدار الخُلد رحب المَبارك
عَصوا طاعة الأجساد فى كل لذة ... بنُور محل ظُلمة الغى هاتك
فلولا اعتداد الجسم أيقنت أنهم ... يعيشون عَيشاً مثل عيش الملائك
فيارب قدِّمهم وزِدْ فى صلاحهم ... وَصلِّ عليهم حيثُ حَلّوا وبارك
ويانفس جدِّى لا تَملِّى وشمِّرى ... لَنيل سُرور الدهر فيما هُنالك
وأنت متى دمّرت سعيك فى الهوى ... علمت بأن الحق ليس كذلك
فقد بيَّن الله الشريعةَ للورَى ... بأبين من زُهر النُّجوم الشَّوابك
فيا نفس جِدِّى فى خلاصك وآنفذى ... نفاذَ السيوف المرهفات البواتك
فلو أعمل الناس التفكّر فى الذى ... له خُلقوا ما كان حى بضاحك

باب فضل التعفف

ومن أفضل ما يأتيه الإنسان فى حُبه التعفف، وترك ركوب المعصية والفاحشة، وألاّ يرغب عن مُجازاة خالقه له بالنعيم فى دار المقامة، وألاّ يعصى مولاه المتفضل عليه الذى جعل له مكاناً وأهلاً لأمره ونهيه. وأرسل إليه رسله وجعل كلامه ثابتاً لديه، عناية منه بنا وإحساناً إلينا. وإن من هام قلبُه وشُغل باله وآشتد شوقه وعظُم وجده ثم ظفر فرام هواه أن يغلب عقلَه وشهوتُه، وأن يقهر دينه، ثم أقام العدل لنفسه حصناً، وعلم أنها النفس الأمارة بالسوء، وذكّرها بعقاب الله تعالى وفكر فى آجترائه على خالقه وهو يراه، وحذرها من يوم المعاد والوقوف بين يدى الملك العزيز الشديد العقاب الرحمن الرحيم الذى لا يحتاج إلى بينة، ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مدافع بحضرة علام الغيوب (يوم لا ينفع

مالٌ ولاَ بنون إلا مَن أتى الله بقَلْبٍ سَليم) . (يوم تُبَدَّل الأرض غير الأرض والسموات) . (يوم تَجِد كُلُّ نفس ما عَمِلت من خيْرٍ مُحْضرا وما عَمِلت من سُوء تودّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً) . يوم (وعَنت الوُجوه للحى القَيوم وقد خاب من حَمَل ظلماً) . يوم (ووَجدوا ماعملوا حاضراً ولا يظلم ربُّك أحداً) يوم الطامّة الكبرى ، (يوم يتذكر الإنسان ما سَعى وبرزت الجحيم لمن يرى فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) واليوم الذى قال الله تعالى فيه : (وكلّ إنسان ألزَمْناه طائِره فى عُنقه ونُخْرِج له يوم القيامة كِتاباً يَلْقاه مَنْشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً) عندها يقول العاصى : ياويلَتى ! ما لهذا الكِتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . فكيف بمن طُوى قلبه على أحرّ من جَمر الغضى . وطُوى كشحه على أحد من السيف ، وتجرَّع غُصصاً أمر من الحنظل ، وصرف نفسه كرهاً عما طمعت فيه وتيقّنت ببلوغه وتهيّأت له ولم يحل دونها حائل ، لحرىّ أن يُسر غداً يوم البعث ويكون من المُقربين فى دار الجزاء وعالم الخلود ، وأن يأمن رَوعات القيامة وهَول المَطلع ، وأن يُعوِّضه الله من هذه القَرحة الأمنَ يوم الحشر .

حدّثنى أبو موسى هارون بن موسى الطبيب قال : رأيت شابًّا حَسن الوجه من أهل قُرطبة قد تعبّد ورَفض الدنيا ، وكان له أخ فى الله قد سقطت بينهما مَؤونة التحفّظ ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده ، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبُعد عن منزله . فنهض لها على أن ينصرف مُسرعاً . ونزل الشاب فى داره مع امرأته ، وكانت غايةً فى الحسن وترباً للضيف فى الصبى ، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العَسس ولم يُمكنه الانصراف

إلى منزله ، فلما علمت المرأة بفوات الوقت وأن زوجها لا يمكنه المجىء تلك الليلة تاقت نفسها إلى ذلك الفتى فبرزت إليه ودعته إلى نفسها ، ولا ثالث لهما إلا الله عز وجل ، فهم بها ثم ثابت إليه عقله وفكّر فى الله عز وجل فوضع إصبعه على السراج فتفقّع ثم قال : يا نفس ، ذوقى هذا وأين هذا من نار جهنم. فهال المرأة مارأت ، ثم عاودته فعاودته الشهوة المركّبة فى الإنسان فعاد إلى الفعلة الأولى . فانبلج الصباح وسبّابته قد اصطلمتها النار .

أفتظن بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه؟أو ترى أن الله تعالى يضيّع له المقام ؟ كلا إنه لأكرم من ذلك وأعلم .

ولقد حدّثتنى امرأة أثق بها أنها عَلِقها فتى مثلها من الحُسن وعلقته وشاع القولُ عليهما ، فاجتمعا يوماً خاليين فقال : هلمى نحقق ما يقال فينا . فقالت : لا والله لا كان هذا أبداً . وأنا أقرأ قول الله : (الأخلاَّء يومئذ بعضُهم لبعض عدوٌّ إلا المتقين) . قالت : فما مَضى قليل حتى اجتمعا فى حلال .

ولقد حدثنى ثقة من إخوانى أنه خلا يوماً بجارية كانت له مفارِكة فى الصبى ، فتعرضت لبعض تلك المعانى ، فقال لها : كلا ، إن من شُكر نعمة الله فيما مَنحنى من وصالك الذى كان أقصى آمالى أن أجتنب هواى لأمره. ولعمرى إن هذا لغريب فيما خلا من الأزمان ، فكيف فى مثل هذا الزمان الذى قد ذهب خيره وأتى شره .

وما أقدر فى هذه الأخبار — وهى صحيحة — إلا أحد وجهين لاشك فيهما :

إما طبع قد مال إلى غير هذا الشأن واستحكمت معرفته بفضل سواه عليه

فهو لا يجيب دواعى الغزل فى كلمة ولا كلمتين ولا فى يوم ولا يومين ، ولو طال على هؤلاء الممتحنين ما امتحنوا به لجادت طباعهم وأجابوا هاتف الفتنة ، ولكن الله عصمهم بانقطاع السبب المُحرّك نظراً لهم وعلماً بما فى ضمائرهم من الاستعاذة به من القبائح واستدعاء الرشد . لا إله إلا هو .

وإما بصيرة حضرت فى ذلك الوقت ، وخاطر تجرد انقمعت به طوالع الشهوة فى ذلك الحين ، لخير أراد الله عز وجل لصاحبه . جعلنا الله ممن يخافه ويرجوه . آمين .

وحدثنى أبو عبد الله محمد بن عمرو بن مضاء عن رجال من بنى مروان ثقات يسندون الحديث إلى أبى العباس الوليد بن غانم أنه ذكر أن الإمام عبد الرحمن بن الحكم غاب فى بعض غزواته شهوراً وثقَّف القصر بابنه محمد الذى ولى الخلافة بعده ورتبه فى السطح وجعل مَبيته ليلا وقعوده نهاراً فيه ، ولم يأذن له فى الخروج البتة . ورتّب معه فى كل ليلة وزيراً من الوزراء وفتى من أكابر الفتيان يبيتان معه فى السطح . قال أبو العباس : فأقام على ذلك مدة طويلة وبُعد عهده بأهله وهو فى سن العشرين أو نحوها ، إلى أن وافق مبيتى فى ليلتى نوبة فتى من أكابر الفتيان ، وكان صغيراً فى سنه وغاية فى حسن وجهه . قال أبو العباس : فقلت فى نفسى : إنى أخشى الليلة على محمد بن عبد الرحمن الهلاك بمواقعة المعصية وتزيين إبليس وأتباعه له . قال : ثم أخذت مضجعى فى السطح الخارج ومحمد فى السطح الداخل المطل على حرم أمير المؤمنين ، والفتى فى الطرف الثانى القريب من المطالع فظللت أرقبه ولا أغفل وهو يظن أنى قد نمتُ ولا يشعر باطلاعى عليه . قال : فلما مضى هزيع من الليل رأيتُه قد قام واستوى قاعداً ساعةً لطيفة ثم تعوذ من الشيطان ورجع إلى منامه . ثم قام بعد حين ولبِس قميصه واستوفز ثم نزعه عن نفسه وعاد إلى منامه . ثم قام الثالثة ولبس قميصه ودلى رجليه من السرير وبقى كذلك ساعة

ثم نادى الفتى باسمه فأجابه ، فقال له : انزل عن السطح وآبق فى الفصيل الذى تحتـــه ، فقام الفتى مؤتمراً له . فلما نزل قام محمد وأغلق الباب من داخله وعاد إلى سريره . قال أبو العباس : فعلمت من ذلك الوقت أن لله فيه مراد خير .

حدثنا أحمد بن محمد بن الجسور عن أحمد بن مطرف عن عبيد الله بن يحيى عن أبيه عن مالك عن حبيب بن عبد الرحمن الأنصارى عن حفص ابن عاصم عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « سبعة يُظلهم الله فى ظله يوم لاظلّ إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله عز وجل ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا على ذلك وتفرقا ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال فقال إنى أخاف الله، ورجل تصدق صدقة فأخفى حتى لاتعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وإنى أذكر إنى دعيت إلى مجلس فيه بعض من تستحسن الأبصار صورته وتألف القلوب أخلاقه ، للحديث والمجالسة دون منكر ولامكروه، فسارعت إليه وكان هذا سحراً . فبعد أن صليت الصبح وأخذت زِيّى طَرقنى فكر فسنحت لى أبيات ، ومعى رجل من إخوانى فقال لى : ماهذا الإطراق ؟ فلم أجبه حتى أكملتها ، ثم كتبتها ودفعتها إليه وأمسكت عن المسير حيث كنت نويت . ومن الأبيات :

أراقكَ حُسنٌ غُيبُه لك تَأْرِيقُ ... وتَبريد وَصْل سِرُّه فيك تَحْريقُ
وقُرب مَزار يَقتضى لك فُرقة ... وشيكاً ولولا القُرب لم يك تَفْريق
ولذّة طعم مُعقِب لك عَلْقماً ... وصاباً وفَسْح فى تَضاعيفه ضِيق

أفضل التعفف ما كان شكرا لله .

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب لوجب علينا إفناء الأعمار وإتعاب الأبدان وإجهاد الطاقة واستنفاد الوسع واستفراغ القوة فى شكر الخالق الذى ابتدأنا بالنعم قبل استئهالها ، وامتنَّ علينا بالعقل الذى به عرفناه ، ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات ، وصرف لنا السموات جارية بمنافعها ، ودبرنا التدبير الذى لو ملكنا خلقنا لم نَهتد إليه ، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا ، وفضّلنا على أكثر المخلوقات ، وجعلنا مستودع كلامه ومستقر دينه ، وخلق لنا الجنة دون أن نستحقها ، ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبةً لهم ، قال الله تعالى : (جزاءً بما كانوا يعملون) . ورشَدنا إلى سبيلها وبَصّرنا وجه ظِلّها ، وجعل غاية إحسانه إلينا وامتنانه علينا حقّا من حقوقنا قبله ، ودينا لازماً له ، وشكرنا على ما أعطانا من الطاعة التى رزقنا قواها ، وأثابنا بفضله على تفضّله .

هذا كرم لا تهتدى إليه العقول ، ولا يمكن أن تكيّفه الألباب . ومن عرف ربّه ومقدار رضاه وسخطه هانت عنده اللذات الذاهبة والحطام الفانى ، فكيف وقد أتى من وعيده ما تقشعرّ لسماعه الأجساد ، وتذوب له النفوس ، وأورد علينا من عذابه ما لم ينته إليه أمل فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم ، وما الرغبة فى لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها ، ولا تفنى التباعة منها ، ولا يزول الخزى عن راكبها ، وإلى كم هذا التمادى وقد أسمعنا المنادى ، وكأن قد حدا بنا الحادى إلى دار القرار ، فإما إلى جنة وإما إلى نار ، ألا إن التثبط فى هذا المكان لهو الضلال المُبين . وفى ذلك أقول :

أقْصَر عن لهوه وعن طَربه ... وعفّ فى حُبه وفى عُرَبه
فليس شُرْبَ المُدام هِمّتـه ... ولا اقتناص الظباء من أربه
قـد آن للقَلب أن يُفيق وأن ... يُزيل ما قد عَلاه من حُجبه

ألهاه عمّا عهدتُ يُعجبه ... خيفةُ يومِ تُبلى السرائر به
يا نفس جدّى وَشمّرى وَدعِى ... عنك اتباع الهوَى على لَعَبه
وسارعى فى النّجاة وَاجتهدى ... ساعيةً فى الخلاص من كُربه
علِّىَ أحظى بالفوز فيه وَأن ... أنجوَ من ضِيقه وَمن لَهبه
يأيها اللاعب المُجد به الـ ... ـدّهر أما تتّقى شَبا نـكَبه
كفاكـ من كُل ما وُعظت به ... ما قد أراكـ الزّمان من عَجبه
دع عنك داراً تَفنى غَضارتها ... ومَـكْسباً لاعباً بمُـكتسبه
لم يَضْطرب فى مَحَلِّهـا أحد ... إلا نبـا حدّها بمُضطربه
من عَرف الله حقّ معرفة ... لوى وحلّ الفؤاد فى رَهبه
ما مُنقضِى المُلكِ مثلَ خالده ... ولا صَحيح التقى كمُؤتشبه
ولا تقىّ الورى كفاسِقهم ... وليس صِدْق الـكلام مِن كَذبه
فلو أمنّا مِن العقـاب وَلم ... نَخش من الله مُتّقَى غَضَبه
ولم نَخف نارَه التى خُلقت ... لـكل جانِى الـكلام مُحتقبه
لـكان فَرضا لزومَ طاعته ... ورَدُّ وَفد الهوى على عَقِبه
وصحّة الزهد فى البَقاء وأن ... يَلحق تَفنيـــدنا بمُرتقبه
فقد رأينا فعلَ الزمان بأهـ ... ـله كفعل الشُّواظ فى حَطبه
كم مُتعِبٍ فى الإِلٰه مُهجته ... راحتُه فى الـكريه من تَعبه
وطالب باجتهاده زهر الـ ... ـدنيا عَداه المَنون عن طَلبه
ومُدركـ ما ابتغاه ذى جَدل ... حلّ به ما يَخاف من سَببه
وباحث جاهـــد لبُغيته ... فإنمـا بحثُه على عَطبـــه
بينا ترى المَرء سامياً مَلِـكاً ... صار إلى السُّفل من ذُرى رُتبه
كالزَّرع للزّجل فوقه عمل ... أن يَنم حُسن النُّمو فى قَصبه
كم قاطع نفسَه أسًى وشجاً ... فى إثر جدّ يجـد فى هَربه

أليس فى ذاك زاجر عَجَب يزيد ذا اللّب فى حُلَى أدبه
فكيف والنار للمُسىء إذا عاج عن المُستقيم من عَقبه
ويوم عَرْض الحساب يفْضحه الـ له ويُبدى الخفىّ من رِيبَه
من قد حَباه الإله رحمتَه موصولةً بالمَزيد من نعمَه
فصار من جهله يصرِّفها فيما نَهى الله عنه فى كتبه
أليس هذا أَحرى العباد غداً بالوقْع فى وَيله وفى حَرَبه
شكراً لربٍّ لطيفٍ قُدرته فينا كحبل الوَريد فى كَثَبه
رازق أهلَ الزمان أجمعهم مَن كان مِن عُجمه ومِن عَربه
والحمـــدُ لله فى تفضّله وقَمعه للزّمان فى نوبه
أخدمنا الأرضَ والسماء ومن فى الجو مِن مائه ومن شُهبه
فاسمع ودَعْ مَن عصاه ناحيةً لا يحمل الحملَ غيرُ مُحتطبه

وأقول أيضاً :

أعارتك دنيا مُستردٌّ مُعارها غَضارة عيش سوف يذوى اخضرارُها
وهل يتمنّى المُحكم الرأى عيشةً وقد حان من دُهم المَنايا مَزارها
وكيف تلذّ العينُ هجعةَ ساعة وقد طال فيما عاينته اعتبارُها
وكيف تقرُّ النفس فى دار نقلة قد استيقنتْ أن ليس فيها قَرارها
وأنّى لها فى الأرض خاطرُ فكرة ولم تَدْر بعد الموت أين مَحارها
أليس لها فى السعى للفوز شاغلٌ أما فى توقِّيها العذابَ آزدجارها
فخابت نفوسٌ قادها لهوُ ساعة إلى حرّ نار ليس يُطْفَى أُوارها
لها سائق حادٍ حَثيث مُبادر إلى غير ما أضحى إليه مدارُها
تُراد لأمر وهى تَطلب غيره وتَقْصِد وجهاً فى سواه سفارُها
أمُسرعة فيما يَسوء قيامهـــا وقد أيقنتْ أنّ العذاب قُصارها
تعطّل مفروضاً وتعنى بفَضلة لقد شفّها طُغيانها واغترارها
إلى مالها منه البلاء سكونُها وعمّا لها منه النجاحُ نفارها

وتُعرض عن ربّ دعاها لرُشدها وتَتبع دُنيا جدّ عنها فِرارها
فيأيها المَغرور بادِرْ برَجعة فلله دارٌ ليس تَخمُد نارها
ولا تتخيَّر فانياً دون خالدٍ دليلٌ على مَحض العُقول آختيارها
أتعلم أنّ الحقَ فيما تركتَه وتَسلك سُبلاً ليس يَخفى عَوارها
وتترك بَيضاء المَناهج ضلّةً لبَهماء يُؤذى الرِّجْل فيها عثارها
تُسرّ بلهو مُعْقِب بندامة إذا ما آنقضى لا ينقضى مُستثارها
وتُفنى الليالى والمَسرّات كلّها وتَبقى تِباعات الذّنوب وعارها
فهل أنت يامَغبون مُستيقظ فقد تبين من سرّ الخُطوب آستتارها
فعجل إلى رضوان ربّك وآجتنب نَواهيه إذ قد تجلى منارها
يجد مُرور الدهر عنك بلاعب وتُغرى بدُنيا ساء فيك سِرارها
فكم أمةٍ قد غرّها الدهر قبلنا وهاتيك منها مُقفرات ديارها
تذكّر على ماقد مضى واُعتبر به فإن المُذكّى للعقول اعتبارها
تحامَي ذَراها كلّ باغ وطالب وكان ضماناً فى الأعادى آنتصارها
توافت ببطنَ الأرض وانشت شملُها وعاد إلى ذى ملكة استعارها
وكم راقد فى غفلة عن منيّة مشمرَّة فى القصد وهو سعارها
وَمَظلمة قد نالها متسلط مُدِلّ بأيد عند ذى العرش ثارها
أراك إذا حاولت دُنياك ساعياً على أنها بادٍ إليك اُزورارها
وفى طاعة الرحمن يُقعدك الونى وتُبدى أناة لايصحُّ اعتذارها
تُحاذر إخواناً ستفنى وتَنقضى وتَنسى التى فرضٌ عليك حِذارها
كأنى أرى منك التبرّم ظاهراً مُبيناً إذا الأوداج حلّ اضطرارها
هناك يقول المرء مَن لى بأعصر مَضت كان مِلْكاً فى يدىّ خيارها
تنبه ليوم قد أظلّك وِرْدُه عَصِيب يوافى النفس فيها آحتضارها
تبرّأ فيه منك كل مُخالط وإنّ من الآمال فيه انهيارها
فأُودعت فى ظلماء ضَنْك مقرُّها يلوح عليها للعيُون اغبرارها

تنادى فلا تدرى المنادى مُفرداً ... وقد حُط عن وجه الحياة خمارها
تُنادى إلى يوم شديد مُفزع ... وساعة حَشر ليس يخفى اشتهارها
إذا حُشرت فيه الوُحوش وجُمّعت ... صحائفنا وانثال فينا انتشارها
وزُينت الجنَّات فيه وأزلفت ... وأُذكى من نار الجحيم استعارها
وكُوّرت الشمس المنيرة بالضُّحى ... وأسرع من زُهر النجوم انكدارها
لقد جلّ أمر كان منه انتظامها ... وقد حَلّ أمر كان منه انتثارها
وسُيرت الأجبال والأرض بُدّلت ... وقد عُطّلت من مالكيها عِشارها
فإما لدار ليس يفنى نعيمُها ... وإما لدار لا يُفك إسارها
بحضرة جبّار رفيق مُعاقب ... فتُحصى المعاصى كبْرها وصِغارها
ويندم يوم البعث جانى صِغارها ... وتُهلك أهليها هناك كِبارها
ستُغبط أجساد وتُحيا نفوسُها ... إذا ما استوى إسرارها وجِهارها
إذا حفّهم عفو الإله وفضلُه ... وأسكنهم دارا حلالاً عُقارها[1]
سيلحقهم أهل الفسوق إذا استوى ... بحَلْبة سَبق طرفُها وحمارها
يفرّ بنو الدنيا بدُنياهمُ التى ... يُظَنُّ على أهل الحُظوظ اقتصارها
هى الأم خيرُ البرّ فيها عقوقُها ... وليس بغير البذْل يُحْمَى ذمارها
فما نال منها الحظ إلا مهينها ... وما الهلك إلا قربها واعتمارها
تهافت فيها طامع بعد طامع ... وقد بان للُّب الذكىّ اختبارها
تطامنْ لغمر الحادثات ولا تكن ... لها ذا اعتمار يجتنبك غمارها
وإياك أن تغترّ منها بما ترَى ... فقد صحّ فى العقل الجلىّ عيارها
رأيت ملوك الأرض يبغون عُدة ... ولذة نفس يُستطاب اجترارها
وخلَّوا طريق القَصد فى مُبتغاهمُ ... لمُتبعه الصفار جمَّ صَغارها
وإن التى يبغون نَهْج بقية ... مكين لطُلّاب الخلاص اختصارها
هل العزّ إلا همة صحّ صونُها ... إذا صان همّات الرجال انكسارها

(١) بخمرها .

وهل رابح إلا امرؤ متوكِّل قنوع غنيّ النفس بادٍ وَقارها
ويلقى ولاة الملك خوفاً وفكرة تَضيق بها ذَرعاً وَيفنى اصطبارها
عياناً نرى هذا ولكنّ سكرةً أحاطت بنا ما إن يُفيق خُمارها

دعوة إلى النظر فى الكون والتدبر فيه :

تدبّر مَن البانى على الأرض سقفَها وفى عِلمه مَعْمورها وقفارها
وَمن يمسك الأجرام والأرض أمرُه بلا عَمَد يُبنى عليه قَرارها
ومن قَدَّرَ التدبير فيها بحكمةٍ فصحّ لديها ليلُها ونهارها
ومن فتَق الأمواه فى صُفح وجهها فمنها يغذّى حَبّها وثمارها
ومن صَيرِ الألوان فى نور نَبتها فأشرق فيها وَرْدها وَبهارها
فمنهنّ مخضَرّ يرُوق بَصيصه ومنهن ما يَغشى اللِّحاظ احمرارها
ومَن حفر الأنهار دون تكلّف فثار من الصم الصِّلاب انفجارها
ومن رتَّب الشمس المُنير ابيضاضها غدوّا ويبدو بالعشىّ اصفرارها
ومن خَلق الأفلاك فامتدّ جَريها وأحكمها حتى استقام مَدارها
وَمن إن ألمت بالعُقول رزيّة فليس إلى حى سواه افتقارها
تجدْ كل هذا راجعٌ نحو خالق له مُلكها مُنقادة وائتمارها

الأنبياء والمعجزات :

أبان لنا الآياتِ فى أنبيائه فأَمكن بعد العَجْز فيها اقتدارها
فأنطَق أفواهاً بألفاظ حكمة وما حَلّها إثغارها واتغارها
وأبرز من صُمِّ الحِجارة ناقة وأسمعهم فى الحين منها حُوارُها
لِيوقن أقوام وتكفُر عُصبة أتاها بأسباب الهلاك قِدَارها
وشق لمُوسى البحرَ دون تكلف وبان من الأمواج فيه انحسارَها
وسلم من نار الأنوق خليلَهَ فلم يُؤذه إحراقُها واعترارها
ونَجّى من الطوفان نُوحاً وقدهَدت بِه أُمة أبدى الفسوقَ شِرارُها

ومكّن داوداً بأيدٍ وابنه فتعسيرها مُلقى له وبدارها
وذلّل جبّار البــــلاد لأمره وعلّم من طير السماء حِوارها
وفَضل بالقُرآن أمة أحمـــــد ومكّن فى أقصى البلاد مُغارها
وشقّ له بدر السماء وخَصّه بآيات حق لا يخُل مُعارها
وأنقذنا من كفُر أربابنا به وكان على قُطب الهلاك مَنارها
فما بالنا لا نترك الجهلَ ونحنا لنسلمَ من نارٍ ترامى شرارها

هنا أعزك الله انتهى ما تذكّرته إيجاباً لك ، وتقمناً لمسرتك ، ووقوفاً عند أمرك . ولم أمتنع أن أورد لك فى هذه الرسالة أشياء يذكرها الشعراء، ويُكثرون القول فيها ، موفيات على وجوهها، ومفردات فى أبوابها، وممنعات التفسير، مثل الإفراط فى صفة النحول، وتشبيه الدموع بالأمطار وأنها تروى السفار، وعدم النوم البتة، وانقطاع الغذاء جملة ، إلا أنها أشياء لا حقيقة لها، وكذب لا وجه له، ولكل شىء حد ، وقد جعل الله لكل شىء قدراً . والنحول قد يعظُم ولو صار حيث يصفونه لكان فى قوام الذرة أو دونها ، ولخرج عن حد المعقول . والسهر قد يتصل ليالى ، ولكن لو عدم الغذاء أسبوعين لهلك . وإنما قلنا إن الصبر عن النوم أقل من الصبر عن الطّعام ؛ لأن النوم غذاء الروح والطعام غذاء الجسد ، وإن كانا يشتركان فى كليهما ولكنا حكينا على الأغلب . وأما الماء فقد رأيت ان ميسوراً البناء جارنا بقرطبة يصبر عن الماء أسبوعين فى حمارّة القيظ ويكتفى بما فى غذائه من رطوبة .

وحدثنى القاضى أبو عبد الرحمن بن جحاف أنه كان يعرف من كان لا يشرب الماء شهراً .

وإنما اقتصرت فى رسالتى على الحقائق المعلومة التى لا يمكن وجود سواها أصلا ، وعلى أنى قد أوردت من هذه الوجوه المذكورة أشياء كثيرة يكتفى بها لئلا أخرج عن طريقة أهل الشعر ومذهبهم . وسيرى كثير من إخواننا أخباراً لهم

فى هذه الرسالة مكنياً فيها من أسمائهم على ما شرطنا فى ابتدائها. وأنا أستغفر الله تعالى مما يكتب الملكان ويحصيه الرقيبان من هذا وشبهه، استغفار من يعلم أن كلامه من عمله. ولكنه إن لم يكن من اللغو الذى لا يؤاخذ به المرء فهو إن شاء الله من اللمم المعفو، وإلا فليس من السيئات والفواحش التى يتوقع عليها العذاب. وعلى كل حال فليس من الكبائر التى ورد النص فيها.

وأنا أعلم أنه سينكر على بعض المتعصبين على تأليفى لمثل هذا ويقول إنه خالف طريقته، وتجافى عن وجهته، وما أحل لأحد أن يظن فىّ غير ما قصدته، قال الله عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم).

وحدثنى أحمد بن محمد بن الجسورى، حدثنا بن أبى دليم، حدثنا ابن وضاح عن يحيى بن مالك بن أنس عن أبى الزبير المكى عن أبى شريح الكعبى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إياكم والظن فإنه أكذب الكذب.

وبه إلى مالك عن سعيد بن أبى سعيد المقبرى عن الأعرج عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت.

وحدثنى صاحبى أبو بكر محمد بن إسحاق، حدثنا عبد الله بن يوسف الأزدى، حدثنا يحيى بن عائذ، حدثنا أبو عدى عبد العزيز بن على بن محمد بن إسحاق بن الفرج الإمام بمصر، حدثنا أبو على الحسن بن قاسم بن دحيم المصرى، حدثنا محمد بن زكريا الغلابى، حدثنا أبو العباس، حدثنا أبو بكر عن قتادة عن سعيد بن المسيب أنه قال: وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه للناس ثمانى عشر كلمة من الحكمة منها: ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك ما يغلبك عليه.

ولا تظن بكلمة خرجت من فى امرىء مسلم شراً وأنت تجد لها فى الخير

محملا . فهذا أعزك الله أدب الله وأدب رسوله صلى الله عليه وسلم وأدب أمير المؤمنين . وبالجملة فإنى لا أقول بالمراياة ولا أنسك نسكاً أعجميا . ومن أدى الفرائض المأمور بها ، واجتنب المحارم المنهى عنها ، ولم ينس الفضل فيما بينه وبين الناس فقد وقع عليه اسم الإحسان ، ودعنى مما سوى ذلك وحسبى الله .

والكلام فى مثل هذا إنما هو مع خلاء الذرع وفراغ القلب ، وإن حفظ شىء وبقاء رسم وتذكر فائت لمثل خاطرى لعجب على ما مضى ودهمنى. فأنت تعلم أن ذهنى متقلب وبالى مهصر بما نحن فيه من نبو الديار ، والخلاء عن الأوطان، وتغير الزمان ، ونكبات السلطان ، وتغير الإخوان ، وفساد الأحوال، وتبدل الأيام ، وذهاب الوفر ، والخروج عن الطارف والتالد ، واقتطاع مكاسب الآباء والأجداد ، والغربة فى البلاد ، وذهاب المال والجاه ، والفكر فى صيانة الأهل والولد ، واليأس عن الرجوع إلى موضع الأهل ، ومدافعة الدهر ، وانتظار الأقدار ، لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه ، وأعادنا إلى أفضل ما عودنا . وإن الذى أبقى لأكثر مما أخذ ، والذى ترك أعظم من الذى تحيّف ، ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التى غمرتنا لا تحد . ولا يؤدى شكرها ، والكل مِنَحه وعطاياه ، ولا حكم لنا فى أنفسنا ونحن منه ، وإليه منقلبنا ، وكل عارية فراجعة إلى مُعيرها . وله الحمد أولا وآخراً وعوداً وبدءاً وأنا أقول :

جعلتُ اليأس لى حِصْناً ودِرْعاً   فلم ألبس ثيابَ المُستضام
وأكثر من جميع الناس عِندى   يَسير صاننى دون الأنام
إذا ما صَح لى دِينى وعِرْضى   فلستُ لما تولّى ذا اهتمام
تولى الأمس والغدُ لست أدرى   أأُدركه ففيما ذا اغتمام

جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكرين الحامدين الذاكرين . آمين آمين ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

فهرست الأبواب

فهرست القوافى

فهرست الأعـــلام

تم بحمد الله تعالى طبع كتاب طوق الحمامة بإشراف

محمد عبد العظيم محمد عبد اللطيف

مدير المكتبة الحسينية

رقم الإيداع ٤١٦٦ / ١٩٧٥